

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الطشاعون

تأليف: البير كامى

ترجمة: دكتور كوثر عبد السلام البحيرى
مراجعة: دكتور محمد القصاص



اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

ة د/ عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

الطاعون

البيركامى

تأليف

دكتور كوثر عبد السلام البحري

ترجمة

دكتور محمد القصاص

مراجعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة

ملتزم الطبع والنشر
عنا المراكبي
٢٨ شارع عبدالحق ثروت - ت ١١٤٠١١
القاهرة

دار الثقافة العربية للطباعة
شارع تولعة الدمام - عابدين

يتفق لدى العقل تشبيه نوع من السجن
بنوع آخر منه ، وتشبيه أى شئ بوجود
حقيقة بشئ غير موجود .

[دانيال دى فو]

وقعت تلك الحوادث المثيرة التى يتألف منها هذا التاريخ في
سنة ؟ ١٩٤ في مدينة وهران ، وقد أجمع الناس على أن تلك الأحداث التى
تخرج عن حيز المألوف لم تقع في المكان المناسب لها ؛ فمدينة وهران تبدو
في الواقع مدينة عادية لمن ينظر إليها لأول وهلة ، إذ أنها ليست أكثر
من مديرية فرنسية على الشاطئ الجوانبى .

ونحن نعترف بأن المدينة في حد ذاتها قبيحة المنظر، ولا بد من بعض
الوقت لكي يدرك المرء لماذا تختلف هذه المدينة عن غيرها من المدن التجارية
الكثيرة في جميع أنحاء العالم، وذلك لمنظرها الهادئ . ؛ إذ كيف يمكن أن
نصور القارىء مثلاً مدينة لا يوجد بها حمام ولا أشجار ولا حدائق ،
ولا تسمع فيها خفقات أجنحة، ولا حفيف أوراق، وبالاختصار كيف
يتأتى لنا أن نصور له مكاناً لا شئ فيه يثير الاستطلاع ؟ وتغير الفصول
بها لا يقرأ إلا على صفحة السماء ؛ ذلك أن الربيع إنما تعلن عنه طبيعة
النسيم، و سلال الزهور التى يجلبها صفار الباعة من الضواحي . لأنه الربيع
الذى يباع في الأسواق ، وفي أثناء الصيف تكاد الشمس تحرق المنازل
المفرطة في الجفاف حرقاً ، وتغطي الجدران برماد داكن ؛ وحينئذ
لا يمكن للسكان الحياة إلا خلف أبواب نوافذهم المغلقة . أما في الخريف

فعلى العكس من ذلك يحتاج المدينة طوفان من الوحل ، وأما الأيام الجميلة فلا تأتي إلا في الشتاء .

ولعل من أسهل الطرق التي يتعرف بها المرء على مدينة ما أن يبحث : كيف يعمل الناس فيها ، وكيف يحبون ، وكيف يموتون ، ففي مدينتنا الصغيرة — وقد يكون ذلك من تأثير الجو — يحدث كل هذا بطريقة واحدة عصبية ذاهلة — ومعنى هذا أن السأم يدرك أهل المدينة ، وأنهم يبذلون جهدهم حتى تكون حياتهم سلسلة من العادات الراسخة ، ومواطنونا يعملون كثيراً ، وهدفهم الدائم هو الثروة ، والتجارة أكثر الأشياء إثارة لاهتمامهم ، فهم — على حد قولهم — يشغلون أنفسهم أولاً بعقد الصفقات . ومن الطبيعي أنهم يميلون كذلك للباهج التي يميل إليها الناس جميعاً ، فيحبون النساء والسينما وحمامات البحر ، ولكن حكمتهم تدفعهم إلى الاحتفاظ بهذه المسرات لمساء السبت ويوم الأحد ، باذلين جهدهم طوال أيام الأسبوع الأخرى ، في كسب الكثير من المال . وفي المساء — عندما يغادرون مكاتبهم — تراهم يتجمعون في ساعة معينة في المقاهي ، أو يتنزهون في الشارع الكبير ، أو يجلسون في شرفات منازلهم ، وإذا كانت الملهيات التي ينغمس فيها الشبان عنيفة وقصيرة الأمد فإن رذائل الشيخوخة لا تتعدى جماعات « هواة الكرة اليدوية » ، وحفلات جمعيات الصداقة ، وحلقات لعب الورق حيث يقامون بمبالغ كبيرة .

أغلب الظن أنهم سيترفون بأن ذلك لا يميز مدينتنا بالذات ، وأن جميع معاصرينا يعيشون على هذا النمط في نهاية الأمر ، وقد يكون من المألوف حقاً في أيامنا هذه أن نرى أناساً يعملون من الصباح إلى المساء ، ثم

يقضون ما يتبقى لهم من وقت يحويونه في لعب الورق ، أو في المقهى أو في
الثروة حسب ما يتراءى لهم ، واسكن هناك مدناً وبلداناً يتوق فيها
الناس لأشياء أخرى ، وقد لا يغير هذا من حياتهم في شيء ، واسكن
حسبهم هذه الضروب من التطلع التي تداعب خيالهم ، أما وهران فعلى
العكس من ذلك : مدينة بلا تطلع على ما يبدو ، أى أنها مدينة جد عصرية ،
ومن ثم فليس من الضروري أن نحدد الطريقة التي بها يمارس الناس الحب
في مدينتنا . فالرجال والنساء إما أن يلتهم بعضهم بعضاً فيما يسمى بعملية
الحب ، وإما أن ينخرطوا في عادة طويلة الأمد تربط بين شخصين ، وبين
هذين الطرفين لا يوجد وسط في غالب الأحيان ، وهذا أيضا ليس من
ميزات مدينتنا ، ففي وهران — كما في غيرها — يضطر الناس إلى أن يحبوا
دون أن يشعروا بسبب ضيق الوقت وقلة التفكير .

أما ما يعتبر أصل من كل ذلك في مدينتنا فهو الصعوبة التي يلقاها
الناس في سبيل الموت ، وكلمة « صعوبة » ليست هي الكلمة المناسبة هنا ،
وربما كان من الأصح أن نقول : « عدم الراحة » ، وذلك أنه إذا لم يكن من
الأمور المستحبة في أى مكان أن يصاب المرء بالمرض ، فهناك مدن
وبلدان تساندك في مرضك ، وتستطيع فيها الاستسلام بصورة ما .
والمرضى بطبيعة الحال يحتاج إلى الراحة ، ويجب أن يجد ما يستند عليه .
أما في وهران فإن تطرف الجو ، والاهمية القصوى التي يعلقونها على
الأعمال المالية ، وتقاهة منظر المدينة الخارجى ، والسرعة التي يمر بها الغروب ،
ونوع اللذات ، كل هذا يتطلب أن يكون المرء في صحة جيدة . فمن يقعده
المرض هنا لابد أن تضفيه الوحدة ، ولنفكر إذن فيمن يحضره الموت

وقد وقع فيما يشبه الفخ خلف مشات من الجدران التي يضطرم حرها ،
بينما تنسكب جمهرة السكان في نفس اللحظة على التليفزيون ، أو
في المقهى من عقد الصفقات وحوافظ الشحن والخصم التجاري ، وحينئذ
نستطيع أن نفهم مدى ما يمانيه الناس من عدم الراحة عند الموت عندما
يحضرون في مكان جاف كهذا المكان ، حتى ولو كان موتاً عسرياً .

قد تعطي هذه الإشارات فكرة كافية عن مدينتنا ، على أنه لا يجدر بنا
أن نهول في الأمر ؛ فإتينا لم نرد إلا أن نبرز ما تميز به المدينة والحياة
من ابتذال وقلة طرافة ، ومع ذلك فإن المرء يستطيع أن يقضى فيها
أيامه بلا صعوبة ، إذا ما كونه له بعض العادات ، ومادامت مدينتنا تحبذ
اكتساب العادات فيمكننا أن نقول : إن كل شيء فيها على ما يرام . نعم ،
لننا إذا نظرنا إلى الحياة من هذه الزاوية فربما بدت لنا غير مثيرة ولا شائقة ،
ولكن حسبنا أن الناس في مدينتنا لا يعرفون عدم النظام ؛ فهم يمتازون
بالصراحة ، وخفة الدم والنشاط مما يجعل المسافر ينظر إليهم دائماً بتقدير
يشوبه التعقل ، وهكذا نرى هذه المدينة الخالية من الجمال ومن الخضرة
ومن الروح تبسـدو مريحة حتى ينتهي فيها المرء بالركون إلى النوم .
ولكن من الحق أن نضيف أنها قد ألفت على منظر لاشييه له ، وسط
هضبة جرداء تحيط بها التلال الغارقة في الضوء تجاه خليج خطته يدرسام
بارع ، ويحق لنا أن نأسف ؛ لأنها قد بنيت بحيث تعطي ظهرها لهذا
الخليج ، فاستعالت رؤية البحر ، حتى يضطر طالبه دائماً أن يبحث عنه .
إذا عرفنا ذلك ، سهل علينا أن نسلم بأنه لم يكن هناك ما يجعل مواطنينا
يتوقعون الأحداث التي وقعت في ربيع هذا العام ، والتي كانت — كما فهمنا

فما بعد — بمثابة النذر الأولى للحوادث الخطيرة التي تقوم هنا بتسجيلها .
وقد تبدو هذه الأحداث طبيعية في نظر البعض ، وقد تبدو خيالية للبعض
الآخر ، وأيا ما كان فإن المؤرخ لا يمكنه أن يحسب حساباً لهذه المتناقضات ،
حيث أن مهمته تنحصر في أن يقول : « هذا ما حدث » ، عندما يعلم أنه قد
حدث فعلاً ، وأنه مس حياة شعب بأسره في الصميم ، وأن هناك — بناء
على ذلك — آلاف الشهود الذين يقدرون — بقلوبهم — صدق ما يقول .

ولم يكن ليتاح للراوى — الذى سنعرفه في الوقت المناسب — أن
يصل إلى شيء من هذا القليل لو لم تمكنه المصادفات من الاستماع إلى عدد
من الشهادات ، ولو لم تضطره الظروف إلى المشاركة في كل ما يدعى أنه
يقصه ، وهذا ما يخول له هنا أن ينتحل لنفسه صفة المؤرخ ، ومن الطبيعي
أن يكون لدى المؤرخ وثائقه ، حتى لو كان هاوياً ، وهكذا فلدى صاحب
هذه الرواية أيضاً مستنداته : وهى أولا شهادته وشهادات الآخرين
حيث أن الدور الذى لعبه قد مكّنه من جمع ما أسر إليه به أبطال
هذا التاريخ ، ثم هى أخيراً النصوص التى انتهت بالوقوع في يديه ، والتى
ينوى أن يستفيد منها في الوقت الذى يراه مناسباً ، وأن يستغلها كما يحلو
له ، كما أنه ينوى . . . ولكن الوقت قد حان — فيما نظن — لسكى ذترك
خروب التعليق والاحتياطات اللغوية جانباً وندخل في صلب القصة ، فإن
رواية ما حدث في أيامها الأولى تحتاج إلى بعض التدقيق .

في صبيحة اليوم السادس عشر من إبريل خرج الدكتور «برنارد ريو» من مكتبه، واصطدم بفأر ميت على بسطة السلم، وبدون أن يعطى للأمر أى اهتمام أزاح الفأر من طريقه ونزل، واسكن ما أن وصل إلى الشارع حتى تنبه إلى أن هذا الفأر لا ينبغي أن يبقى في مكانه وعاد على أعقابيه ليأفت نظر البواب إلى ذلك، وكان لرد الفعل الذى أحدثه ذلك على السيد ميشيل الهرم أثره في أن يجعل الدكتور ريو يشعر بما لهذا الاكتشاف من غرابة؛ فلم يكن وجود هذا الفأر يبدو له أكثر من أمر غريب في حين كان البواب يعتبره أمراً فاضحاً، والواقع أن موقف هذا الأخير كان حازماً؛ إذ أنه لم تكن توجد فيران بالمنزل، وعبثاً حاول الدكتور أن يؤكد له أن هناك فأراً على البسطة، وأنه قد يكون ميتاً، فقد ظل البواب يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأنه لا توجد فأران بالمنزل، وإذا وجد فأراً فلا بد أن يكون مجلوباً من الخارج، وبالاختصار لابد أن يكون في الأمر مجال لدعابة سمجة.

وفي مساء اليوم نفسه كان برنارد ريو واقفاً في دهليز العمارة يبحث عن مفااتيحه قبل أن يصعد إلى مسكنه، ففوجئ بفأر كبير يبرز في أقصى الدهليز المظلم ويسير في خطى مضطربة وقد ابتلت فروته. وتوقف الفأر كما لو كان يحاول أن يزن خطاه، ثم يستأنف مسيره في اتجاه الطبيب،

ولم يلبث أن يتوقف من جديد ويدور حول نفسه ويصرخ صرخة قصيرة ثم يسقط وقد نزف الدم من منخريه ، وقد وقف الطبيب يتأمل برهة ، ثم صعد إلى مسكنه .

ولم يكن يفكر في الغار ، وإنما أعاده هذا الدم النازف إلى مشاغله ، فزوجته المريضة منذ عام كانت تعزم السفر في اليوم التالي إلى إحدى المواقع الجبلية . وقد وجدها مستلقاه في غرفتها كما طلب منها أن تفعل حتى تستعد لتحمل متاعب السفر ، وراحت تبسم له وهي تقول :

— إنى أشعر أننى بصحة جيدة .

ونظر الطبيب على ضوء المصباح القريب من الفراش إلى ذلك الوجه الذى التفت ناحيته ، وبدا له أنه — وقد بلغ الثلاثين من العمر — هو نفسه وجه الشباب برغم آثار المرض الواضحة عليه ، وربما كان ذلك بسبب تلك الابتسامة التى تغلبت على كل شيء ، ثم قال لها :

— نامى إذا استطعت ، ستحضر الممرضة فى الحادية عشرة ، وسأصحبك إلى قطار الظهر ، ثم قبل جبينها المندى ، وشيعته هى بابتسامتها حتى الباب .

وفى الساعة الثامنة من اليوم التالى ، وهو اليوم السابع عشر من إبريل ، استوقف البواب الطبيب أثناء مروره وأخذ يتهم هؤلاء المازحين السمجين الذين ألقوا إليه بثلاثة فيران مئة وسط الدهليز ، وراح يقرر أنهم لابد أن يكونوا قد اصطادوها جميعاً بفخ كبير ، لأنها غارقة فى الدم ، ثم ظل البواب بعض الوقت واقفاً بالباب ممسكاً

يافتران الثلاثة من أرجلها، منتظراً أن يكشف المذنبون عن أنفسهم
ببعض الدعابات ، ولكن لم يأت أحد ، فأخذ يقول :
— أما هؤلاء فسأنتهى حتما بأن أعرف من هم .

وقد خامر الشك نفس ريو ، فقرر أن يبدأ جولة بالأحياء الخارجية
حيث يسكن الفقراء من مرضاه ، وفي هذه الأحياء يتم جمع القمامة في
ساعة متأخرة ، وكان من عادة السيارة التي تمر بشوارع هذا الحي المستقيمة
المتهربة أن تمر مرأ سريعا بصناديق القمامة التي يتركها أصحابها على جانبي
الطريق ، وبينما كان الطبيب يمر في أحد الشوارع استطاع أن يعدل اثني
عشر فأراً ملقاة فوق بقايا الخضر والخرق القذرة .

وقد وجد الطبيب أول مرضاه طريح الفراش في غرفة تطل على
الشارع ، وتستخدم غرفة نوم وغرفة طعام في وقت واحد ، لأنه أسباني
هرم ذو وجه جامد قد غطته التجاعيد ، وكان أمامه على الخطأ قدوان
مليتان بالبازلاء . وفي اللحظة التي دخل فيها الطبيب كان المريض جالسا
نصف جلوس ، فأنكفأ إلى الخلف محاولا التقاط أنفاسه الضيقة بفعل
الربو المزمن ، وأحضرت له زوجته صحيفة صغيرة .

وفي أثناء اشتغال الطبيب بإعطاء الحقنة ، قال له :

— أرايت يا دكتور ؟ إنها تخرج .

وقالت الزوجة :

— نعم ، وقد التقط جارنا ثلاثة منها .

ثم أخذ المعجوز يفرك يديه وهو يقول :

— إنها تخرج ، ويعثرون عليها في كل صندوق من صناديق القمامة
المنزلية . إنه الجوع !

ثم لاحظ ريو — دون جهد — أن الحى بأجمعه يتحدث عن الفئران ،
ولما انتهت زيارته عاد إلى منزله ، فقال له السيد ميشيل :
— توجد برقية لك في مسكنك .

ولما سأله الطبيب عما إذا كان قد رأى مزيداً من الفئران أجاب :
— كلا ، لأننى أقوم بالحراسة كما تفهم ، وإن يجرؤ هؤلاء الخنازير
على إعادة الكرة . . .

وكانت البرقية تخبر ريو بوصول أمه في اليوم التالى . إنها قادمة
لترعى منزل ابنها أثناء غياب زوجته ، ولما دخل الطبيب مسكنه ، وجد
المرضاة قد حضرت ، وشاهد زوجته واقفة ترتدى ثوباً من قطعتين ،
وتضع المساحيق على وجهها .

فابتسم لها وقال :

— حسن ، هذا طيب جداً .

وبعد لحظة كانا قد وصلا إلى المحطة ، وأجلسها في عربة النوم ، وقد
تأخذت السيدة تتأمل المكان وهى تقول :

— إن مثل هذا المكان يكلفنا أكثر مما نحتمل ، أليس كذلك ؟

فقال ريو :

— ولكنه ضرورى .

— وما قصة الفئران هذه ؟

— لا أدري ، إنه أمر غريب ، ولكنه سيمر بلا ريب .
ثم قال لها — بسرعة — : إنه يطلب منها الصفح ؛ لأنه قصر في السهر
على راحتها ، ولأنه قد أهملها كثيراً ، وكانت هي تهز رأسها كما لو كانت
تريد أن تطلب منه أن يكف عن الكلام .

ولكنه أردف قائلاً :

— سوف تتحسن الأحوال عند عودتك ، وسنبدأ حياتنا من

جديد .

فقلت — وقد برقت عيناها — :

— نعم ، سوف نبدأ من جديد .

وبعد لحظة كانت قد أدارت له ظهرها ، وأخذت تنظر من خلال
الزجاج ، وكان الناس على الرصيف يهرولون ويتصادمون ، وكان ضجيج
القطار يصل إلى مسامعهما ، ودعا ريو زوجته باسمها الأول ، ولما
التفتت إليه وجد وجهها قد تغطى بالدموع .

فقال لها برفقة :

— لا .

فعدت إليها ابتسامتها من وراء الدموع ، ولكنها كانت ابتسامة
مغتصبة بعض الشيء ، ثم أخذت السيدة نفساً عميقاً وقالت :

— عد أنت الآن ، سيجري كل شيء على ما يرام . فضمها إليه ،

ولم يعد الآن يرى على الرصيف من خلال الزجاج سوى ابتسامتها ، وقال لها :

— أنوسل إليك أن تعتنى بنفسك .

ولكنها لم تتمكن من سماع ما يقول .

وبالقرب من باب الخروج اصطدم ريو بالسيد « أوتون ، القاضى
الذى كان ممسكا بيد ولده الصغير ، وسأله الطبيب عما إذا كان ينوى السفر .
وكان السيد أوتون بقماته المديدة ولباسه الأسود يبدو خليطاً من
هذا الذى يسمونه رجل مجتمعة وعامل من عمال دفن الموتى ، وأجاب
أوتون فى صوت لطيف ولكنه مقتضب :

— إنى فى انتظار السيدة أوتون التى ذهبت لزيارة أسرتى .
وصفر القطار ، وقال القاضى :

— والفئران . . .

وهنا أتى ريو بحركة فى اتجاه القطار ، ثم عاد فاستدار ناحية باب
الخروج وقال :

— نعم ، إنه أمر لا أهمية له .

وفى تلك اللحظة لاحظ ريو أحد رجال التنظيم وهو يحمل صندوقاً
حليماً بالفئران الميتة .

وفى عصر اليوم نفسه استقبل ريو فى أول استشاراته شاباً قالوا عنه
إنه صحفى ، وإنه كان قد أتى لزيارته فى الصباح ، واسمه ريمون رامبير ، وهو
شاب قصير القامة ممتلئ السكتفين يبدو على وجهه التصميم ، ذو عينين صافيتين
يبدو فيهما الذكاء ، ويرتدى ملابس رياضية ، ويلوح عليه أنه يعيش
فى يسر .

وقد دخل رأساً فى الموضوع الذى أتى من أجله : إنه يجمع الأخبار
لجريدة كبيرة بباريس حول حياة العرب ، ويريد معلومات عن حالتهم
الصحية ، فقال له ريو : إن حالتهم ليست طيبة ، ولكنه يريد أن يعرف

— قبل أن يدخل في مزيد من التفاصيل — ما إذا كان الصحفي يستطيع أن يقول الحقيقة . فأجاب هذا الأخير :
— بكل تأكيد .

— أقصد هل تستطيع أن تؤكد أن حالتهم ميثوس منها
يأساً كلياً .

— يأساً كلياً لا : وهذا ما أقوله لك بصراحة ، ولكنني أفترض أن هذا الحكم لا أساس له .

وأجاب ريو بهدوء قائلاً : إن حكماً كهذا سيكون حتماً بلا أساس ، ولكنه عندما وجه هذا السؤال كان يريد فقط أن يعرف ما إذا كان رامبير يحتاج في شهادته أم لا . ثم قال :

— إنني لا أقبل إلا الشهادة التي لا يقيدتها احتياطات ، وعلى ذلك فلن .
أؤيد شهادتك بمعلوماتي .

فقال الصحفي مبتسماً :

— هذه لهجة سان جوست (١)

فقال ريو — دون أن يرفع نبرة صوته — إنه لا يعرف شيئاً عن لهجة سان جوست ، ولكنه يتكلم بلهجة رجل برم بالعالم الذي يعيش فيه . بالرغم من أن مزاجه لا يختلف عن مزاج من هم على شاكلته ، ولكنه مصمم — من ناحيته — على ألا يقبل الظلم ، ولا الامتيازات .

وأخذ رامبير ينظر إلى الطبيب ، وقد غاص عنقه بين كتفيه . ثم قاله وهو ينهض :

(١) سان جوست هو أحد الأسماء التي لعت في الثورة الفرنسية ، وقد مات على المقصلة مع روبسبير .

— أعتقد أننى أفهمك .

وصحبه الطبيب حتى الباب وهو يقول :

— أشكرك على فهمك للأمور بهذه الطريقة .

وهنا بدا على رامبير الضجر ، وهو يقول :

— نعم إننى أفهمك ، وأرجو أن تغفر لى لإقلاقى لراحتك .

وشد الطبيب على يده وهو يقول: إن هناك بحثاً صحفياً طريفاً يمكن .

أن يقدم عن كمية الفئران الميتة التى يعثرون عليها فى المدينة الآونة فى هذه .

فصاح رامبير قائلاً :

— حقاً ! إن هذا يهمنى .

وفى الساعة السابعة عشرة ، عندما خرج الطبيب لعيادات جديدة .

واجه على السلم رجلاً ما زال فى سن الشباب ، ضخم الجسم ، ذا وجه هائل .

ملىء بالحفر يعلوه حاجبان كثيفان .

وكان ريو قد قابل هذا الرجل عدة مرات عند الراقصين الأسبانيين

الذين يسكنون الدور الأخير من صمارته ، كان تارو ، هذا واقفاً

يدخن سيجارته باهتمام ، وهو يتأمل التشنجات الأخيرة لفأر يلفظ أنفاسه

على إحدى درجات السلم تحت قدميه ، ورفع تارو رأسه إلى الطبيب ،

ونظر إليه بعينيه الشهابيين نظرة هادئة ، وقال له : صباح الخير ، ثم أضاف

قائلاً: إن ظهور الفئران على هذا النحو أمر عجيب ، فأجاب الطبيب :

— نعم ، واسكنه أصبح الآن مثاراً للضيق .

— هذا من ناحية ، من ناحية واحدة فقط يا دكتور . إنما لم نر

ذلك أبدأ من قبل ، هذا كل ما فى الأمر ، ولكننى أرى أن هذا الأمر
يثير الاهتمام ، من الناحية الموضوعية .

وملئس نارويينده على شعره مرسل إياه إلى الخلف ، وألقى نظرة
أخرى على الفأر الذى أصبح الآن بلا حراك .
ثم ابتسم لريو ، وقال :

— ولكن على كل حال — يادكتور — هذا من شأن البواب .
وفى هذه اللحظة بالذات وجد الطبيب البواب واقفاً أمام البيت ، وقد
أسند ظهره إلى الحائط قرب المدخل ، وبدأ التعب على وجهه الذى لا يرى
عادة إلا محتقنا ، وقال ميشيل الهرم لريو الذى أعلن له الخبر الأخير :
— أجل ، أعرف هذا ، إنهم يعثرون عليها الآن مشى وثلاث
ولكن هذا أمر لا تخلو منه المنازل الأخرى .

كان ميشيل يبدو محطماً قلقاً ، وقد انهال على عنقه يحكمه بحركة آلية ،
وسأله ريو عن صحته . ولم يكن فى استطاعته أن يجيب بأنها ليست على
ما يرام ، ولكنه لم يكن يشعر أنه فى حالة عادية ، وتوهم أن حالته
المعنوية هى التى تسبب له هذا التعب ، فهذه الفئران قد تسببت له فى
صدمة ، وسيزول كل شيء حتماً عندما تختفى الفئران .

ولكن فى صباح اليوم التالى — الثامن عشر من أبريل — عاد الطبيب
من المحطة إلى البيت فى حجة أمه ، فوجد ميشيل وقد بدا عليه المزيد من
الغم ، وازداد وجهه ندوباً ، فمن البدروم إلى السطح انتشرت نحو عشرة
فئران على السلم ، كما امتلأت بالفئران أيضاً صناديق القمامة بالمنازل

المجاورة ، وقد تلقت أم الطبيب هذا الخبر دون أن تبد أية دهشة وقالت :
— هذا أمر كثير الحدوث .

وكانت هذه السيدة امرأة قصيرة القامة ، ذات شعر فضي ، وعينين
سوداوين رقيقتين . وقد جعلت تقول لابنها :

— إني سعيدة برؤيتك يا برنار ، وإن تقوى الفئران على تغيير
هذا الشعور .

وأيد هو ما تقول ، والحقيقة أن كل شيء كان يبدو في عينها سهلاً .
وتحدث ريو بالتليفون إلى مركز إبادة الفئران — الذي كان يعرف
رئيسه — ترى هل سبق إلى سماع هذا المدير حديث تلك الفئران التي تخرج
زرافات إلى الهواء الطلق لكي تموت فيه ؟

نعم لأنه هذا المدير — واسمه مرسيديه — قد سمع الناس يتكلمون
عنها ، بل إنهم قد عثروا في مركزه نفسه — الذي لا يبعد كثيراً عن أروقة
الميناء — على نحو خمسين منها ، ولكنه مع هذا كان يسأل نفسه عما إذا
كان الأمر حقيقة خطراً ؟ ولم يكن ريو ليستطيع أن يجزم بشيء في هذا
الصدد ، ولكنه كان يعتقد أنه يجب على مركز إبادة الفئران أن يتدخل ،
فقال مرسيديه :

— أجل ! لو كان هناك أمر بذلك ، وإذا كنت تعتقد أن الأمر
يستحق التدخل حقيقة ، ففي وسعي أن أحاول استصدار هذا الأمر .
فقال ريو :

— إن المسألة تستحق هذا العناية .

وأخبرته الخادم أنهم جمعوا من المصنع الكبير الذى يعمل به زوجها مئآت ومئآت من الفئران الميتة .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذه الآونة — على وجه التقريب — هى التى بدأ مواطنونا يشعرون فيها بالقلق ؛ إذ أنه ابتداء من الثامن عشر أخذت المصانع والمخازن تمتلئ بمئآت من جيش الفئران .

وفى بعض الحالات كانوا يضطرون إلى الإجهاز على الفئران التى يطول احتضارها ، ولكن الدكتور ريو كان يرى — أنى ذهب وأنى تجمع المواطنون ، ابتداء من الأحياء الخارجية حتى قلب المدينة — أكوام الفئران تملأ صناديق القمامة ، أو تسد الجارى .

وقد أثارَت صحف المساء هذا الموضوع ، وتساءلت عما إذا كانت البلدية تنوى التدخل أم لا ، وعن الإجراءات العاجلة التى ترى اتخاذها لحماية السكان الذين من واجبها أن ترعاهم من هذا الهجوم الممعوج . ولم تكن البلدية قد رأت اتخاذ أى إجراء ، ولكنها بدأت بعقد اجتماع للتشاور ، وصدر أمر لمركز إبادة الفئران لى يقوم بجمع الفئران النافقة كل يوم عند الفجر .

وما كانت تنتهى عملية الجمع حتى كانت تحمل هذه الحيوانات سياراتان من سيارات المركز لحرقها فى معمل لإحراق القمامة .

ولكن الحالة لم تزد إلا سوءاً فى الأيام التالية ؛ فكان عدد هذه الحيوانات الفارضة كل يوم فى ازدياد ، وكذلك كان المحصول الذى يجمع منها كل صباح .

ومنذ اليوم الرابع بدأت الفيران تخرج لتقوت جماعات ، كانت تخرج من
الأماكن المنعزلة ، ومن « بدرومات » المنازل ، ومن الأبنية والحجاري في
صفوف طويلة ، مضطربة الخطى ، وتروح ترتعد وتدور حول نفسها ثم
تنفق بالقرب من الآدميين ، وفي أثناء الليل كانت صرخاتها القصيرة —
ساعة احتضارها — تسمع بوضوح في الممرات وفي الحواري ، وفي
الأحياء البعيدة كانوا يجدونها في الصباح ملقاة بجذء النهر وعلى فيها المدبب
زهرة صغيرة من الدم . وكان يرى بعضها منتفخاً متعفنأ ، والبعض الآخر
متصلباً وشواربها زالت منتصبية ، وحتى في قلب المدينة كانوا يعثرون عليها
في أكوام صغيرة على بسطات السلام أو في الأبنية . وفي بعض الأحيان
كان يأتي بعضها منفرداً ليموت في أيها الإدارات أو في الأماكن المسقوفة
من أبنية المدارس ، أو في رحبات المقاهي ، وكانت الدهشة تعقد ألسنة
مواطنينا حين يعثرون عليها في الأماكن الآهلة من المدينة ، حتى ميدان
السلاح والشوارع الكبرى والمتنزهات لم تسلم من تكسدها فيها . وكانت
المدينة تتخلص منها ساعة الفجر ، ثم تعود فتلتقي بها — تدريجياً وفي أعداد
كبيرة — أثناء النهار . وكثيراً ما كان يحدث أن تصطدم أقدام المتنزهين
ليلاً بجثة أحدها وما زالت دافئة ، وكانت الأرض التي أقيمت عليها
منازلنا تبدو وكأنها قد أخرجت أبقالها ، وما كان ينخر جوفها من
سرطانات وقروح .

ولنتصور دهشة مدينتنا الصغيرة — التي كان يسودها الهدوء حتى
الآن — وقد اضطرب أمرها في بضعة أيام كما لو كان هناك رجل في صحة
جيدة ثم أخذ دمه الكشيف في الغليان على حين غرة !

واستفحلت الأمور حتى أن وكالة الأنباء « رانسدوك » أعلنت في إحدى إذاعاتها الإخبارية المجانية أنه في اليوم الخامس والعشرين وحده تم جمع ستة آلاف ومائتين وثلاثين قاراً ، ثم إحراقها . وقد عمل هذا الرقم الذى يقدم لنا صورة واضحة للمنظر الذى كانت المدينة تراه كل يوم تحت بصرها على ازدياد حالة الاضطراب التى سادت بها ؛ ففى ذلك الحين كان الأمر لا يتعدى الشكوى من حدث مقزز . أما الآن فقد أخذ الناس يشعرون بأن هذه الظاهرة التى لم يمكن حتى الآن تحديد مداها ، أو تبيان أصلها تحمل نذير الخطر ، ولم يكن هناك سوى الأسبابى الهرم المصاب بالربو الذى ما فقى - يفرك يديه ويردد فى فرح الشيوخ :

« إنها تخرج ، إنها تخرج » .

وفى الثامن والعشرين من إبريل ، عندما أعلنت وكالة « رانسدوك » أن المحصول قد بلغ ثمانية آلاف فأر تقريباً عم القلق المدينة ، وطالب الناس باتخاذ إجراءات جوهرية ، وأخذوا يوجهون الاتهامات للسلطات ، وجعل الأشخاص الذين يملكون منازل على شاطئ البحر يفكرون فى الهجرة إليها .

ولكن فى اليوم التالى أعلنت الوكالة أن الظاهرة قد توقفت لحاة ، وأن محصول القتران الميتة التى جمعت محصول ضئيل ، وتنفست المدينة الصعداء .

ومع ذلك فقد حدث فى ظهيرة اليوم نفسه أن كان الدكتور ريو

يوقف سيارته أمام عمارته فليح البواب وهو يقبل من أقصى الشارع بصعوبة، وقد مال رأسه وتباعدت ذراعه وساقاه كما لو كان مهرج مسرح، وكان الرجل الحرم يستند على ذراع قس يعرفه الطيب ، ولم يكن إلا الألب بانلو ، وهو قس من علماء اليسوعيين المجاهدين كان قد قابله من قبل عدة مرات ، وكان أهل مدينتنا جميعا يحيطونه بالتقدير ، حتى من كان منهم لا يهتم بأمر الدين ، ووقف الطيب ينتظر وصولها ، كانت عينا ميشيل الحرم تلهان ، ويسمع لتنفسه صفير ، وكان حينها شعر بانحراف صحته وقد عقد العزم على الخروج لاستنشاق الهواء الطلق ، ولكن آلاما حادة في العنق وتحت الإبطين ، وعند ثنيق الفخذين اضطرتة إلى العودة ، وإلى طلب المعونة من الألب بانلو .

وقال ميشيل :

— إنها عقد ، فلا بد أنى قد بذلت مجهوداً فوق طاقتى .

وأخرج الطيب ذراعه من باب السيارة ومر بإصبعه على أسفل العنق التى مدها إليه ميشيل ، قرأى بها ما يشبه عقدة من الخشب ، وقال له :

— إلزم فراشك ، وقس درجة حرارتك ، وسأحضر عصراً لزيارتك .

ولما انصرف البواب سأل ريو الألب بانلو عما يظنه فى أمر قصة الفئران ؟ فقال الألب :

— لابد أنه وباء . وكانت عينا تبتسمان من خلف زجاج نظارته المستدير .

وبعد الغداء ، وبينما كان ريو يعيد قراءة البرقية التى وصلته من

المصححة تعلن إليه وصول زوجته دق جرس التليفون . وكان المتحدث عميلاً قد يما يعمل موظفاً في دار العمدية، ويطلب الآن من ريو أن يعود . كان هذا العميل قد قاسى طويلاً من ضيق في الأورطى ، ولما كان فقيراً فقد عالج ريو مجاناً ، وانبرى الرجل يقول :

— نعم ، إنك تذكرنى، ولكن المسألة تتعلق الآن بخيرى . احضر بسرعة ، فقد حدث شيء ما عند جارى .

كان يتكلم وهو يلهث . وفكر ريو في البواب ، وقرر أن يزوره بعد رجوعه من هذه الزيارة ، ولم تمر إلا دقائق حتى كان يجتاز باب منزل منخفض في شارع د فيديرب ، من حى خارج المدينة ، وفي وسط السلم الرطب الذى تفوح منه رائحة العفن تقابل مع «جوزيف جران» الموظف الذى كان نازلاً لاستقباله ، وهو رجل فى الخمسين من عمره ، أصفر الشارب ، طويل القامة ، محدوب الظهر ، ضيق ما بين الكتفين بحميل الأطراف . وقال للطبيب وهو يتقدم منه :

— إن حالته تتحسن واسكنى قد ظننت أنه ان ينجو منها .
وأخذ يخطط أنفه .

وعندما وصل ريو إلى الدور الثانى قرأ على الباب الذى على يساره هذه العبارة : « أدخل فقد شنت نفسى ، مكتوبة بالطباشير الأحمر .

ودخلا . كان الحبل يتدلى من ثريا معلقة فوق كرسى مقلوب ، كما كانت هناك منضدة مقلوبة فى ركن من أركان المسكن ، ولكن الحبل كان يتدلى فى الفراغ . وقال جران — وهو يتلطف كلما نه رغم بساطتها — :

— كيف أشرح لك ذلك ، لقد فسكت الحبل من عنقه في الوقت المناسب ، كنت في تلك اللحظة في سبيل الخروج ، فسمعت خرقة ، ولما قرأت هذا الكلام ظننت أن الأمر لا يعدو المزاح ، ولكنني سمعت أئيناً غريباً يصدر منه ، أئيناً يمكن أن نسميه حزيناً :

وهرش رأسه ، ثم استطرد قائلاً :

— في رأي أن هذه العملية لابد أن تكون مؤلمة ، وقد دخلت بطبيعة الحال .

وهنا دفعا أمامهما أحد الأبواب ، ووقفا على عتبة غرفة يغمرها الضوء ، ولكن أثاثها ينم عن الفقر . كان فيها رجل قصير القامة ، مكور الجسم ، يرقد على سرير من نحاس . وكان يتنفس بقوة ، وينظر إليهما بعينين محنتتين . فوق الطيب في مكانه وكان يخيل إليه أنه يسمع في اللحظات التي تتخلل شيق الرجل صرخات الفئران القصيرة ، ولكن لم تكن هناك أية حركة في أركان الغرفة ، واتجه ريو نحو السرير ، لم يكن الرجل قد سقط من ارتفاع كبير ، ولا كانت سقطته مفاجئة ، ولذا صمدت فقرات ظهره . لقد أصيب طبعاً ببعض الاختناق ، وكان من الأجدر أن تؤخذ له صورة بالأشعة ، ولكن الطيب اكتفى بإعطائه حقنة من زيت الكافور ، وقال :

— إن الحالة ستتحسن خلال أيام .

ورد الرجل بصوت مختنق :

— شكراً يا دكتور .

وسأل ريو جران عما إذا كان قد أبلغ اليو ليس؟ فبدأ عليه الارتباك وقال :

— كلا كلا ! لقد ظننت أن الإجراء الأسرع أن . . .
وقاطعه الطبيب قائلا :

— طبعاً ، إذن فسا قوم أنا بالتبليغ .

ولكن لم يكذ المريض يسمع هذه الكلمة . حتى انتفض ، واستوى على فراشه ، وراح يعترض بأنه على ما يرام ، وليس هناك ما يدعو إلى ذلك ، فقال ريو :

— هدىء من روعك ، فهذه مسألة بسيطة ، وينبغي أن أقدم بلاغى .
ولكن المريض صاح قائلا :

— آه ! وألقى بنفسه إلى الخلف وهو يبكي بكاء متقطعاً .

وكان جران — حتى هذه اللحظة — مشغولاً بمداخلة شاربه ، فاقترب منه وقال :

— هيا يا سيد كوتار ، حاول أن تفهم ، فقد يعتبر الدكتور مشغولاً عما يحدث لو أنك مثلاً فكرت في إعادة الكرة . .

ولكن كوتار رد من خلال دموعه بأنه لن يعيد الكرة ، وأنها كانت لحظة جنون ، وأنه لا يطلب الآن إلا أن يتركوه فى سلام .

فقال ريو وهو يكتب تعليماته الطبية :

— اتفقنا ، وسأعود بعد يومين أو ثلاثة ، ولكن لا تتركب

حماقات أخرى .

وعلى بسطة السلم قال الطبيب لجران إنه مضطر لتقديم بلاغه ولكنه

سيطلب من الضابط ألا يقوم بالتحقيق إلا بعد يومين .
ثم أودف قائلاً :

— يجب مراقبته هذه الليلة ، هل له أسرة ؟
— أنا لا أعرف له أسرة ، ولكنني أستطيع أن أسهر عليه أنا
نفسى ، ثم هز رأسه وهو يقول :
— لا يمكننى أن أقول إننى أعرفه ، ومع ذلك فإن التعاون واجب .
وكان ريو ينظر — بحركة آية — إلى أركان ممرات المنزل ، فسأل
جران عما إذا كانت الفئران قد اختفت تماماً من الحى ؟ ولكن هذا
الموظف لم يكن يعرف شيئاً عن الموضوع ، وإذا كان بعض الناس قد
حدثه عنه ، فإنه لم يكن ليعير اهتماماً كبيراً لتقولات أهل الحى ، قال :
— إن لدى مشاغل أخرى .

وشد ريو على يده ؛ لأنه كان معجلاً لكي يزور البواب قبل أن يكتب
إلى زوجته .

وقد كان باعة الصحف يصيحون معلنين أن هجوم الفئران قد توقف ،
ولكن ريو وجد مريضه متديلاً إلى نصفه من الفراش ، وقد وضع
يداً على بطنه ، وأخرى حول عنقه ، وراح يقيء عصاره وردية في وعاء من
أوعية القمامة ، والألم يكاد يمزقه تمزيقاً .

وبعد جهد كبير عاد فاستلقى على فراشه ، وقد كادت أنفاسه أن
تنقطع . كانت درجة حرارته تسعاً وثلاثين درجة ونصف درجة ، وقد
ازدادت عقد رقبتة وأطرافه انتفاخاً ، وظهر في جنبه بقعتان داكنتان
أخذتا في الاتساع .

وأصبح الآن يشكو من ألم في جوفه ، وهو يردد قوله :

— لأنه يحرقنى ، هذا الخنزير يحرقنى .

كان له — الذى أصبح فى لون السناج — يجعله يبيض الكلمات مضغاً ،
وقد أدار نحو الطبيب عينين متبلورتين مملأهما الصداع بالدموع ، وأخذت
زوجته تنظر بقلق إلى ريو الذى ظل صامتا ، ثم قالت له :

— دكتور ، ما هذا ؟

— قد يكون أى شيء . لى حق الآن لا أستطيع الجرم بشيء ،
حق هذا المساء عليه أن يلتزم بالحمية التامة ، وتناول بعض المطهرات ،
ولا بد له من أن يشرب كثيراً .

والحقيقة أن البواب كان يحترق من العطش .

وما أن وصل ريو إلى بيته حتى دق التليفون ، وطلب زميله «ريشار»
وهو من أكبر أطباء المدينة ، ورد «ريشار» على سؤال لريو بقوله :

— كلا ، لم أر حالة واحدة غير عادية .

— ألم تصادف حالات حمى مصحوبة بالتهابات موضعية ؟

— بلى ، رأيت حالتين من التورمات الشديدة الالتهاب .

— بشكل غير عادى ؟

فقال «ريشار» .

— إن ما يسمى «هاديا» ، أنت تعرف ..

ومنها يكن من شيء ، ففي المساء كان البواب يهذى ، ويشكو من
«الفئران» ، وقد بلغت درجة حرارته الأربعين ، وحاول ريو أن يجرى

أختباره على أحد الحارريج اعلمه يعرف نوع المرض ، فكان البواب
يعمرى من طيب زيت الترنبتينا، ويقول : آه ! هؤلاء الخنازير !
وازدادت العقد حجما، وأصبحت صلبة الملمس ، وكادت زوجة البواب
تجن ، وقال لها الطبيب :

— إسهرى عليه، واطلبينى إذا دعى الأمر إلى ذلك .

وفي اليوم التالى ، وهو اليوم الثلاثين من أبريل ، أخذ يهب على
المدينة نسيم دافئ ، تحت سماء زرقاء رطبة ، وقد حمل هذا النسيم رائحة
الزهور التى جلبها معه من الضواحي البعيدة ، وكانت ضوضاء الصباح فى هذا
اليوم فى الشوارع تبدو أكثر انتعاشاً ، وأكثر مرحاً من المعتاد ، وكان
هذا اليوم أشبه ببداية عهد جديد فى مدينتنا الصغيرة بعد أن تخلصت
من الهمع الذى عاشت فيه طوال الأسبوع ، حتى انرى ريو نفسه ينزل
اميادة البواب بقلب مرح بعد أن تلقى خطاباً مطمئناً من زوجته .
وكانت الحمى قد هبطت فعلاً إلى ثمان وثلاثين درجة ، وكان المريض

يبتسم فى فراشه، وقد بدا عليه الهوال . وقالت زوجته :

— إن حالته قد تحسنت ، أليس كذلك يا دكتور ؟

ورد الطبيب :

— يجب أن ننتظر وقتاً آخر .

ولكن لم يمض وقت الظهر حتى عادت الحمى إلى الارتفاع فجأة،
فوصلت درجاتها إلى الأربعين . وعاد المريض إلى الهذيان دون توقف ،
وعاوده القيء من جديد . وكانت عقد الرقبة تؤلمه عند اللمس ، ويبدو كما
لو كان يريد أن يبعد رأسه عن جسمه بقدر المستطاع . أما زوجته فقد

جلست بجانب رجل السرير، ويداها على الغطاء وقد أمسكت بهما قدمي المريض في رفق، وكانت تنظر إلى ريو الذي قال لها :
— أنصتي لما سأقول : يجب علينا عزله ، وعلاجه علاجاً خاصاً .
سأ كلم المستشفى ، وسننقله في سيارة الإسعاف .

وبعد ساعتين كان الدكتور والمرأة ينحنيان على المريض في السيارة وكانت تخرج من فيه الميطان بالبثور الملتهبة . بعض بقايا الكلمات ، فيردد قوله « الفئران » . وهذا اخضر لون وجهه ، وأصبحت شفته في لون الشمع ، وثقل جفناه . وتقطعت أنفاسه وتلاحقت ، وتباعدت أطرافه بسبب الأورام ، وقد اصق بقاع فراشه كما لو كان يريد أن يطبقه عليه ، أو كما لو كان هناك صوت ما ينبعث من باطن الأرض ويدعوه بلا انقطاع . كان البواب يختنق تحت ضغط خفي ، وانفجرت المرأة بالبكاء وهي تقول :

— ألم يعد هناك أى أمل ، يا دكتور ؟

وأجاب ريو :

— لقد مات .

يمكننا أن نعتبر موت البواب نهاية تلك الفترة المليئة ببواغث الحيرة، وبداية لفترة أخرى أصعب نسبياً من الفترة السابقة ، تحولت فيها الدهشة التي استولت على الناس في الفترة الأولى إلى ذعر ؛ فواطنونا لم يكونوا قد فكروا قط أنه يمكن لمدينتنا الصغيرة أن تصبح مكاناً مختاراً للفران لكي تأوى وتنفق فيه تحت وهج الشمس، وأن البوابين يموتون فيه بأمراض غريبة ، وهذا ما قد فطنوا إليه منذ ذلك الحين ، ولا شك أنهم كانوا مخطئين من وجهة النظر هذه ، وأنه كان عليهم أن يعيدوا النظر في أفكارهم ، ولو أن الأمر وقف عنده هذا الحد لانضم إلى ما لديهم من عادات مكتسبة ، ولانتهت المشكلة ، ولكن كان هناك مواطنون آخرون ممن لم يكونوا دائماً بوابين ولا فقراء ، وقد اضطروا أن يسلكوا نفس الطريق التي كان ميشيل أول من ارتاده ، ومنذ هذه اللحظة بدأ لديهم الخوف المصحوب بالتفكير العميق .

ولكن الراوى يرى — قبل أن ندخل في تفاصيل هذه الحوادث — أن يستشهد برأى شاهد آخر هو دجان تارو، الذي تعرفنا عليه في أول القصة ، فيما يتعلق بالفترة التي انتهت .

كان هذا الرجل قد أتى إلى وهران قبل ذلك بعدة أسابيع ، ونزل منذ قدومه فندقاً كبيراً في وسط المدينة ، كان مظهره يدل على أنه في

درجة من اليسر تسمح له بالعيش من دخله ، ولكن لم يكن أحد يستطيع أن يقول: من أين أتى؟ ولا لماذا أتى؟ بالرغم من أن المدينة كانت قد ألفتها ، كنت تراه في جميع الأماكن العامة . وما أن بدأ الربيع حتى كان يشاهد كثيراً على الشواطئ ، ويسبح في مياهها في متعة ظاهرة ، كان رجلاً طيباً ، دائم الابتسام ، يبدو صديقاً لكل المتع العادية دون أن يكون عبداً لها، والعادة الوحيدة التي عرفت عنه كانت زياراته للراقصين الأسبانين ، وما أكثرهم في مدينتنا .

وتعتبر مفكرة هذا الرجل هي الأخرى تاريخاً لتلك الفترة العسيرة ، ولكنّه تاريخ من نوع خاص يبدو فيه التحيز بشكل ينم عن التفاهة ، وقد نظن — لأول وهلة — أن تارو كان يتفنن في إصدار أحكامه على الأشياء ، وعلى الناس من خلال الجانب المفرط في التكبير من منظاره . فكان في وسط هذا الاضطراب الذي ساد المدينة يحاول جاهداً أن يجعل من نفسه مؤرخاً لالتاريخ له ، وقد نلّمه على تجهيزه هذا ، ونظن فيه تبدل القلب ، ولكن هاتوا لا يمنعنا من الاعتراف بأن مفكرته تحوى مجموعة كبيرة من التفاصيل الثانوية التي لها أهميتها رغم كل اعتبار ، بل أن هذه الغرابة نفسها تمنعنا من التسرع في الحكم على هذا الرجل الطريف .

كانت الملاحظات الأولى التي دوّنها جان تارو ترجع إلى بداية قدومه إلى وهران ، وكانت تعبر منذ البداية عن رضاه التام بوجوده في مدينة تصل — في حد ذاتها — إلى هذه الدرجة من القبح ، فنراه يورد فيها وصفاً مفصلاً للأسدين البرنزيين اللذين يزينان دار البلدية، ويحشوها

باعتدالاته عن عدم وجود أشجار بالمدينة ، وعن قبح منظر المنازل ،
وغرابة تخطيط المدينة ، وارى تارو يذكّر في غضون هذه الملاحظات
بعض المحادثات التي سمعها في الترام والشوارع دون أن يعلق عليها ، فيما
عدا محادثة واحدة ذكرها فيما بعد ، وتدور حول شخص يدعى كامب ،
وهذه هي المحادثة التي سمعها تارو من اثنين من محصلي الترام .

— أنت تعرف كامب جيداً .

— كامب ؟ أهو شخص طويل القامة ، وذو شارب أسود ؟

— هو هذا ، كان يعمل محولاً للخطوط .

— نعم بكل تأكيد

— لقد مات .

— حقاً ؟ متى حدث ذلك ؟

— بعد قصة الفئران .

— هكذا ؟ وماذا أصابه ؟

— لا أدري ، ربما كانت الحمى ، لأنه لم يكن قوى البنية ، وقد أصيب

بخراريج تحت الإبطين ، ولم يقو على المقاومة .

— ومع ذلك لم تكن حالته تختلف عن غيره من الناس .

— بلى ، فقد كان متعب الصدر ، وكان مع ذلك مشتركاً في « جمعية

نشر الموسيقى » ، ومن الطبيعي أن يصاب المرء بالضرر من مواصلة النفخ
في قسبة هوائية .

وأنهى الثاني الكلام قائلاً :

— آه ! إذا كان المرء مريضاً فما عليه إلا أن يكف عن النفخ في
قصبة هوائية .

وبعد أن انتهى تارو من تسجيل هذه الإشارات القليلة أخذ يسائل
نفسه عن السبب الذى حدا بكامب إلى الاشتراك فى جمعية الموسيقى ضد
مصلحته الأكيدة ، والبواعث العميقة التى جعلته يغامر بحياته فى سبيل
استعراضات يوم الأحد ، ويتبع ذلك مشهد يبدو أنه أثر فى تارو
تأثيراً طيباً ، وهو مشهد يحدث كثيراً فى الشرفة المواجهة لناذته . فقد
كانت غرفته تطل على شارع جانبي تنام فيه بعض القطط فى ظل الجدران ،
ولكن لم يكن الناس ينتهون من تناول غذائهم فى كل يوم ، ويأرون إلى
مضاجعهم خلال الساعات التى تأخذ فيها المدينة بأسرها سنة من النوم
بسبب الحرارة حتى يظهر فى شرفة الجانب الآخر من الشارع رجل هرم
قصير القامة ، فكان يقف بشعره الأبيض الرجل ، وقامته المستقيمة
وملابسه ذات الطابع العسكرى ، ويدعو القطط بصوت متعال حنون فى
آن واحد : « قطيطة ، قطيطة ، وترفع القطط أعينها المثقلة بالنعاس
دون أن تتحرك ، ثم يأخذ الرجل فى تمزيق قطع صغيرة من الورق
ويلقى بها إلى الطريق ، وتلتفت القطط نحو هذه الفراشات البيضاء التى
تنهمر على الطريق ، وتتقدم نحو الشارع ، وهى تمد أرجلها بتردد نحو
القصاصات الأخيرة ، وحينئذ يأخذ الرجل فى البصاق على القطط بقوة
ودقة ، فإذا ما أصاب الهدف ضحك من أعماقه .

وفضلاً عن ذلك ، يبدو أن تارو قد أخذ بطابع المدينة التجارى ،
ذلك أن مظهر المدينة وازدحامها ، بل ووسائل التسلية فيها ، كانت كلها

من مستلزمات الحياة التجارية . وقد حظى هذا الطابع الفريد — وهذا هو نص العبارة الواردة في المفكرة — برضا تارو ، حتى لنراه ينهى لمحدى الملاحظات التي قالها في إطرانه بهذه الصيغة التعجيية « وأخيراً ، ١٠

هذه هي النواحي الوحيدة التي اتخذت فيها ملاحظات هذا المسافر طالباً شخصياً يصعب تحديد معناه وجديته ، فنراه — مثلاً — يعد أن يذكر أن اكتشاف فأر ميت قد دفع صراف الفندق إلى ارتكاب خطأ حسابي — يضيف معقّباً بخط أقل وضوحاً من المعتاد :

سؤال : ماذا نفعل حتى لا نضيع وقتنا ؟

جواب : أن نمارسه بكل ما فيه من طول .

الوسائل : قضاء أيام بطولها في قاعة الانتظار بميادة طبيب الأسنان على مقعد غير مريح ، قضاء يوم الأحد بعد الظهر في الشرفة ، الاستماع إلى محاضرات بلغة لا نفهمها ، أن يختار المرء أطول الطرق الحديدية وأكثرها مشقة ويسافر واقفاً بطبيعة الحال ، أن يقف في الصفوف الطويلة أمام شباك التذاكر في المسارح ثم يترك دوره يمر دون حيز . الخ . الخ .

وبعد هذه المفارقات اللغوية أو الفكرية مباشرة تبدأ المفكرة في وصف مفصل لعربات الترام في مدينتنا ، بشكلها الزورقي ، ولونها الذي لا يمكن تحديده ، وقذارتها المعتادة ، ثم ينهى كاتبها ملاحظاته بكلمة : « هذا جدير بالملاحظة » ، وهي عبارة لا تضيف شيئاً . أما فيما يتعلق بقصة الفران ، فهذا مثل من الإيضاحات التي يقدمها له تارو :

« لقد أصيب الرجل الهرم المواجه لى بخيبة أمل ، إذ لم تعد توجد قطط ؛ فقد اختفت جميعاً بعد أن أثارها الفئران النافقة التي يعثر عليها بكيات كبيرة فى الشوارع ، وفى رأى أن هذا الأمر لا يرجع إلى أن القطط تأكل الفئران النافقة ؛ فإنى أذكر أن قططى لم تكن تحب ذلك ، ولكن هذا لا يمنع من أنها تفرح الآن فى البدرومات ، وأن الرجل المسن القصير قد أصيب بخيبة أمل ، فهو الآن يصفف شعره بعناية أقل من ذى قبل ، ويبدو أقل قوة ، وإنك لتشعر بما يعثر به من قلق ؛ إذ أنه يعود أدراجه من الشرفة بعد لحظة من خروجه إليها ، وقد حدث ذات مرة أن بصق فى الهواء .

« وفى المدينة أوقفوا اليوم إحدى عربات الترام ؛ لأنهم وجدوا فيها فأراً ميتاً لا يدرى أحد كيف وصل إلى هذا المكان . وقد غادر العربية سيدنان ، أو ثلاث سيدات ، وألقى بالفأر بعيداً ، ثم استأنف الترام سيره .

« وفى الفندق أخبرنى المشرف المناوب — وهو رجل جدير بالثقة — بأنه يتوجس شراً من هذه الفئران الكثيرة .

« فعندما تغادر الفئران السفينة . . . وقد أجبته : أن هذا صحيح فى حالة السفن ، ولكن لم يثبت صحته فيما يتعلق بالمدن . ولكنه مع ذلك كال راسخ الاقتناع بما يقول ، وقد سأله عن رأيه فيما يمكن أن تتوقع ، فلم يدر شيئاً ؛ إذ أنه من المستحيل التسكهن بهذا الشر ، ولكنه إن يكون من المستغرب حدوث زلزال ، وقد وجدت أن هذا محتمل .

ولما سألتني عما إذا لم يكن هذا يسبب لي القلق ، قلت له : إن كل ما يهمني هو أن أتمتع بأطمئنانى الداخلى ، وقد فهمنى الرجل فهما كاملا .

« وفى مطعم الفندق توجد أسرة بأكلها نشير الاهتمام : أما الأب فرجل طويل القامة نحيل العود يرتدى لباساً أسود ، وياقة منشاه ، وبه صلح فى وسط رأسه ، وله خصلتان من الشعر الأشهب ، واحدة ذات البين ، وأخرى ذات اليسار ، وتخلع عليه عيناه المستديرتان القاسيتان ، وأنفه الدقيق ، وفه المستقيم صورة بومة مهيبة .

كان الرجل دائماً أول من يصل إلى باب المطعم ، حيث كان يتراجع تاركاً زوجته تمر — وهى سيدة قصيرة تشبه الجرذ الأسود — وبعد ذلك يدخل ، ومن خلفه مباشرة غلام وفتاة صغيرة يدوان فى ملابسهما كسكابين حسنى التدريب ، وعندما يصل إلى مائدته ينتظر حتى تأخذ زوجته مكانها ، ثم يقبعا بالجلوس ، وحينئذ يسمح للجروين الصغيرين أن يستلقيا على مقعديهما .

كان يخاطب زوجته وأولاده بكلفة ، فكان يوجه لها جرح القول فى خلاف مذهب ، ويلقى إلى أولاده بالأوامر الصارمة :

— نيكول ، إنك تبدين ثقيلة الدم بصورة تعتبر غاية فى العظمة .
« إن الفتاة الصغيرة على وشك أن تنفجر باكية ، وهذا ما ينبغى لها أن تفعل ، .

« لقد كان الغلام الصغير جمد مشغول هذا الصباح بمسألة الفيران ، وأراد أن يقول كلمة فى هذا الموضوع وهو على المائدة ، فقال الأب :

— لا ينبغي أن تتكلم عن الفئران وأنت على المائدة ،
يا فيليب . إنى أناك عن التفوه بهذه الكلمة مستقبلاً ، فقال الجرذ
الأسود :

— إن أباك على حق .

وهنا أخفى الجرذان الصغيران أنفيهما في طبقيهما ، وعبرت البومة
عن شكرها بحركة مقنضبة من رأسها .

« ورغم هذا المثل الجميل نرى المدينة تكثر من الكلام عن قصة
الفئران هذه ، وقد تدخلت الجريدة في الموضوع . أما المجلة المحلية
— وهى متنوعة الموضوعات فى العادة — فقد أصبحت لاهم لها إلاحلة
المهجوم التى شنتها على البلدية ، فقالت :

« هل يعلم رجال البلدية أى خطر تتعرض له من جراء جشث
الفئران المتحجرة ؟ » .

أما مدير الفندق ، فإنه لم يعد يستطيع التحدث فى موضوع آخر ،
ومعنى هذا أن الموضوع يشيره ، فالعنور على فئران فى مصعد فندق
محترم يبدو له أمراً غير معقول ، وقد قلت له مواسياً :

« ولكن كل الناس فى البلية سواء ، فأجابنى :

« هو كذلك ، فنحن الآن فى نفس حالة الآخرين » .

وكان هو أول من حدثنى عن حالات تلك الحمى الغريبة التى بدأ
الناس يقلقون لظهورها — وقد أصيبت بها إحدى وصيفات فندقه —
فقال لى — شارحاً — باهتمام :

— واسكنها ليست معدية بكل تأكيد .

فقلت له :

— إن هذا لا يغير من الأمر شيئاً .

فقال :

— آه . إنك مثلي يا سيدي ، تؤمن بالقضاء والقدر .

ولم أكن قد قلت شيئاً من هذا القبيل ، ولا أعتقد أنني أومن
بالقضاء والقدر .

فقلت له . . .

وتأخذ مفكرة تارو — ابتداء من هذا الموضع — في التحدث
بشيء من التفصيل عن تلك الحبي المجهولة التي بدأ الناس يقلقون بسببها ،
وبعد أن ذكر كيف أن الرجل الهرم القصير قد استعاد قططه عقب اختفاء
الغتران ، وكيف استأنف إصابته الهدف بمزيد من الدقة والأناة ،
أضاف قائلاً : إنه من الممكن أن نذكر نحو عشر حالات من هذه الحبي
فيها توفي معظم المصابين .

ومن الممكن أن نحصل على صورة للدكتور ريو من خلال هذه
الوثيقة ، وهي صورة يستطيع الراوى أن يؤكد صدقها :

د يبدو في الخامسة والثلاثين من عمره ، متوسط الطول ، له كتفان
ممتلئتان ، ووجه شبه مستطيل ، وعينان قائمتان تنمان عن الجذ ، وبفسيكه
بروز ، ويتسم أنفه بالاستقامة ، له شعر أسود قصير ، وفم مقوس ،
وشفتان غليظتان مضمومتان في غالب الأحيان ، إنه يشبه أن يكون

فلاحاً صقلياً بجلده الأسمر المغطى بشعر أسود ، وملابسه ذات الألوان
القائمة دائماً — وإن كانت لائقة — سريع الخطى ، ينزل من الإفريز
دون أن يغير من مشيته ، واسكنى رأيته مرتين كل ثلاث مرات يصعد
الإفريز المقابل بقفزة قصيرة ، كثير الشرود أثناء القيادة ، فهو ينسى
أن يعيد إشارة الدوران في سيارته حتى بعد أن يتم دورانه ، عارى
الرأس دائماً ، وهيئته تدل على أنه متمكن من عمله .

كانت الأرقام التي دونها تارو صحيحة ، وقد كان الدكتور ريو على بيئته من ذلك ، ولما تم عزل جثة البواب اتصل الدكتور — تليفونياً — بريشار ليسأله عن هذه الحى التي تصيب أعلى الفخذين .

فقال ريشار :

— لست أدرى شيئاً عنها . لقد تسببت في وفاة اثنين ، مات أحدهما بعد ثمان وأربعين ساعة من إصابته ، والثاني بعد ثلاثة أيام ، وكنت قد تركت هذا الأخير ذات صباح وقد بدت عليه كل مظاهر النقاهة .

فقال له ريو :

— أرجو إخطاري إذا صادف حالات أخرى من هذا القبيل .
ثم اتصل بأطباء آخرين ، وقد دله هذا التحقيق الذي أجراه على حدوث نحو عشرين حالة خلال بضعة أيام ، وكانت أغلبها قاتلة ، وحينئذ طلب من ريشار — أمين عام نقابة الأطباء في وهران — أن يتخذ إجراء بعزل المرضى الجدد .

فأجابه ريشار قائلاً :

— ولكنى لا أملك هذا الحق ؛ إذ لا بد لذلك من صدور

قرارات إدارية ، ولكن ما الذى يجعلك تظن أن هذا المرض معد ؟

— لاشئ يجعلنى أظن ذلك ، ولكن أعراضه تشير القلق .

ومع ذلك فقد وجد ريشار أنه ليس له الحق فى اتخاذ إجراء كهذا ، وأن كل ما يستطيع عمله هو أن يتحدث عنه إلى المدير .

وفى أثناء هذه المحادثات اكفهر الجو ، ولم يأت صباح اليوم التالى لموت البواب حتى ظهر ضباب كثيف حجب السماء ، وهطلت على المدينة أمطار كالسيول ، ولكنها كانت قصيرة الأمد ، وتلت هذه التغيرات المفاجئة حرارة مصحوبة بالاعاصير ، كما أن البحر نفسه قد فقد لونه الأزرق القاتم ، وبدا تحت هذه السماء الغائمة ذا انعكاس فضى أو حديدي تؤذى العين رؤيته ، وكانت حرارة الربيع مصحوبة بالرطوبة حتى جعلت الناس يهفون إلى حر الصيف اللافح ، وقد خيم على المدينة — التى بنيت فوق هضبة على شكل قوقعة — نوع من الخمول الحزين ، وراح كل من يقبعون وراء تلك الجدران الطويلة المتداعية ، أو يجوسون خلال الشوارع ذات المعارض الزجاجية التى يعلوها التراب ، أو يتسكدون فى عربات الترام ذات اللون الأصفر القذر ، يشعرون كما لو كانوا سجناء تحت هذه السماء . ولم يسعد بهذا الجو سوى مريض ريو الهرم الذى تغلب على ربه ، حتى كان يقول :

— إن هذا الجو اللافح مفيد لشعبيات الرئة .

والواقع أن هذا الجو كان لافحاً ، ولكنه لم يكن أشد ولا أقل لفحاً من الحى ؛ لقد أصيبت المدينة بأجمعها بالحى ، هكذا على الأقل كان إحساس

الدكتور ريو في ذلك الصباح الذي توجه فيه إلى شارع « فيديرب »
ليحضر التحقيق في محاولة كوتار الانتحار ، ولكن هذا الإحساس كان
يبدو له مجانباً للصواب ، وكان يعزوه إلى توتر أعصابه ، وإلى الهموم
التي كانت تحييطه من كل جانب ، ورأى من الواجب أن يسرع بتنظيم
أنهكائه .

وعندما وصل لم يكن ضابط الشرطة قد حضر بعد ، وكان جران
ينتظر على بسطة السلم ، فقرر أن يدخل حجراته بأدى ذى بدء ، وأن
يترك الباب مفتوحاً . وكان جران موظف البلدية يسكن غرفتين اثنتي
تأثيثاً بسيطاً ، ولم يكن فيهما ما يثير الملاحظة سوى رف من الخشب
الأبيض وضعت عليه بعض الماعجم ، وسبورة سوداء كتب عليها بخط
قد محى بعض الشيء ، وإن كان لا يستعصى على القراءة والممرات المزهرة .
وقد قرر جران أن كوتار قضى ليلة هادئة ، ولكنه استيقظ في الصباح
وهو يشكو من ألم في رأسه ، وقد فقد كل نشاط ، أما جران نفسه
فكان يبدو متعباً متوتر الأعصاب ، وقد أخذ يذرع المكان ذهاباً
وجيئة ، ثم لا يني يفتح ملفاً كبيراً موضوعاً على المنضدة ، وملئاً
بأوراق مكتوبة باليد ، لكي يعيد إغلافه .

ومع ذلك فقد قص على الطبيب أنه لا يعرف كوتار إلا معرفة
سطحية ، ولكنه يظن أن لديه بعض المال ، وكوتار في رأيه رجل غريب
الاطوار ، ولذا فقد وقفت علاقتهما مدة طويلة عند حد تبادل بعض
التحيات على السلم .

— لم أتحدث معه إلا مرتين ، فبذ بضعة أيام سقطت منى علبة

مليئة بالطباشير كنت أحملها معى إلى البيت ، وكان بها بعض الطباشير
الأحمر والأزرق ، وفي هذه اللحظة خرج كوتار إلى السلم وساعدنى في
جمعه ، وسألتنى فم أستعمل هذا الطباشير مختلف الألوان .

وحينئذ شرح له جران أنه يحاول استرجاع معلوماته فى اللاتينية
التي نسى الكثير منها منذ عهد الليسيه ، ثم قال موجهها كلامه للطبيب :
— نعم ، فقد أكدوا لى أنه ذو فائدة كبيرة فى معرفة معانى الكلمات
الفرنسية .

لقد كان إذن يكتب على سبوره كلمات لاتينية . كان يرسم أجزاء
الكلمات التي تتغير مع التصريف باللون الأزرق ، أما الأجزاء التي تبقى
على حالها فى التصريف فكان يكتبها باللون الأحمر ، ثم واصل
كلامه قائلاً :

— است أدرى ما إذا كان كوتار قد فهم ما أقول ، ولكنه أبدى
كثيراً من الاهتمام ، وطلب منى قطعة من الطباشير الأحمر ، وقد أدهشنى
ذلك بعض الشيء ، ولكن . . . لم يكن فى إمكانى طبعاً أن أتكهن بأنه
سيستخدمها فى مشروعه .

وسأله ريو عن موضوع المحادثة الثانية ، ولكن فى هذه اللحظة حضر
ضابط الشرطة يصحبه أمين أسرارہ ، وطلب أن يبدأ بسماع أقوال جران .
ولاحظ الطبيب أن جران إذا تحدث عن كوتار لقيه دائماً باليائس ، وقد
أطلق مرة على محاولته الانتحار عبارة " القرار الذى لا راد له " . وقد
استمر الرجلان يناقشانه أسباب الانتحار ، وكان يدعو على جران كما
لو كان يتحسس فى اختيار ألفاظه ، وتوقف الضابط عند عبارة " موم

شخصية ، وسأل جران عما إذا لم يكن قد ظهر شيء في تصرفات كوتار
يمكن منه الوصول إلى معرفة ما أسماء بقراره .

— لقد طرق بابى أمس ليطلب بعض عيدان الثقاب ، فأعطيته
علبتي ، وقد اعتذر لي قائلاً : « إن بين الجيران . . » ثم أكد لي أنه
سيعيد لي ، علبتي فطلبت منه أن يحتفظ بها .

ثم سأله الضابط عما إذا لم يكن قد لاحظ شيئاً غريباً في تصرفات
كوتار ، فقال :

— لقد بدا لي من الغريب أن سيماء كانت تدل على أنه يود إطالة
حديثه معي . ولكنني كنت مشغولاً بالعمل .

ثم التفت إلى ريو ، وأضاف قائلاً بشيء من الحرج :

— عمل شخصي .

وطلب الضابط رؤية المريض ، ولكن ريو رأى من الأوفى أن
بعد كوتار لهذه الزيارة أولاً . ولما دخل عليه في غرفته وجده لا يرتدى
إلا ملابس داخلية ذات لون ضارب إلى الشبهة ، وكان جالساً في سريره
وعيناه في اتجاه الباب ، ووجهه يعبر عن القلق ، وقال :

— أهي الشرطة إذن ؟

فقال ريو :

— نعم ، ولكن لا تضطرب . ما هي إلا بعض الشكليات ، ثم
يتركوك في سلام .

ولكن كوتار أجاب بأن هذا عبث في عبث ، وأنه لا يجب
الشرطة ، فظهر على ريو شيء من التأفف ، وقال :

— وأنا أيضاً لست متيهاً بحبها ، ولكن كل ما يطلب منك هو أن تجيب بسرعة على ما يوجه إليك من أسئلة ؛ لكي تنتهي المسألة إلى الأبد .

وسكت كوتار ، وعاد الطبيب ناحية الباب . ولكن هذا الرجل القصير عاد فدعاه ، ولما صار قريباً منه أمسك بيديه قائلاً :

— لا يصح أن يسيثوا إلى رجل مريض ، رجل شفق نفسه ، أليس كذلك يا دكتور ؟ .

وظل ريو يتفحصه بركة ، ثم أكد له أن أحداً لم يفكر قط في ذلك ، وأنه هنا لحمايته ، فبدأ على كوتار شيء من الارتياح . ثم قام ريو بإدخاله الضابط .

وقرئت شهادة جران على كوتار ، وسأله الضابط عما إذا كان يستطيع أن يحدد أسباب فعلته ، فأجاب — دون أن ينظر إليه — بأن تعبير « هموم شخصية » مناسب جداً ، وألح عليه الضابط أن يذكر ما إذا كان في نيته إعادة هذه الفعلة ، ولكن الانفعال بدأ على كوتار ، وأجاب بالنفي ، وبأنه لا يطلب سوى أن يتركوه في سلام .

وقال الضابط بشيء من الحدة :

— ألفت نظرك إلى ذلك ، أنت الآن تقلق سلام الآخرين .

ولكن ريو أوماً إليه بالآيواصل كلامه ، فتوقف عند هذا الحد ، واتجه إلى باب الخروج وهو يتنهد ويقول :

— أنت تعلم أن لدينا مشاغل أخرى منذ أن بدأ الناس يتكلمون عن هذه الحى .

ثم وجه كلامه للطبيب يسأله عما إذا كان الأمر جدي خطير، فأجاب
بأنه لا يدري .

فقال الضابط — خاتماً كلامه — :

— إن الوقت أوف ، هذا كل ما في الأمر .

نعم ، أغلب الظن أن الوقت قد أوف ، فقد كان الأمر يزداد
استفحالا لدى مرور كل لحظة من النهار ، وكان ريو يشعر بأن مخاوفه
تزداد بعد كل زيارة يؤديها لمرضاه ، وفي مساء اليوم نفسه ، حدث في
الحى الخارجى أن أخذ أحد حيران المريض الهرم فى القىء ، وراح يضغط
على ثنيق فخذه ، ويهذى ، وكانت أورامه أشد من أورام البواب ، وقد
بدا أحدها يبعث النتن ، ثم انفجر كما تنفجر الثمرة العطية ، ولما عاد
ريو إلى منزله اتصل — تليفونيا — بمخزن أدوية المنطقة ، وبما يذكر
بهذه المناسبة أن ريو كان يكتفى بأن يسجل فى ملاحظاته الخاصة بالعمل
فى هذا التاريخ عبارة : « إجابة بالنفى » .

وكان الناس قد أخذوا يدعونه إلى منازلهم فى حالات مشابهة ،
فكان لابد له من فتح الخراج .

وكانت تكفى ضربة أو ضربتان متقاطعتان من مبضعه حتى يقذف
الخراج بصديد مزوج بالدم ، وكان المرضى ينزفون وهم متباعدو
الأطراف ، ولكن البقع كانت لا تفى عن الظهور على البطن وعلى
السيقان ، وكان الخراج الذى يكف عن الإفراز يعود فيتورم من جديد ،
وفى أغلب الأحيان كان المريض يموت فى جو من الرائحة المروعة التى
تفوح منه .

أما الصحافة التي طالما ثرثرت حول موضوع الفئران ، فلم تذكر هذه
الحى بشئ ، ذلك أن الفئران كانت تنفق في الطرقات ، أما الناس فكانوا
يموتون في منازلهم ، والجرائد لا تهتم إلا بالشارع ، وأما المديرية
والبلدية فقد خامرهما الشك ؛ ذلك أنه لم يكن يدور بذهن أحد أن يبدى
اهتماما ما دام كل طبيب لم ير إلا حالتين أو ثلاث حالات ، ولكن
كانت الكفاية كل الكفاية في أن يقوم أحد الناس بعملية جمع بسيطة ،
وقد جاءت نتيجة هذه العملية مزعجة ، فقد تضاعفت حالات الوفاة
مراراً في بضعة أيام ، وبدا لمن كان يشغلهم هذا المرض الغريب أن
الامر يتعلق جتما بوباء حقيقى ، وكان هذا هو الوقت الذى اختاره كاستل
لزيارة ريو ، وكاستل زميل لريو ، ويكبره كثيراً في السن .

وقال له :

— أنت تعرف طبعاً يا ريو ما هو هذا المرض ؟

— لئننى أنتظر نتيجة التحليلات .

— أما أنا فأعرف ما هو ، ولست في حاجة إلى تحليلات ، فقد

قضيت شطراً من خدمتى في الصين ، ثم رأيت بعض الحالات التي من
هذا القبيل في باريس منذ نحو عشرين عاماً ، ولكن لم يكن أحد يجرؤ
على أن يطلق اسماً على هذه الحالات في ذلك الحين ؛ فالرأى العام شئ
مقدس ، ويجب أن يتجنب حدوث أى ذعر ، أن يتجنب حدوث ذعر
بوجه خاص — ثم إنه — كما يقول أحد الزملاء — « هذا مستحيل » .
فقد اختفى هذا المرض من الغرب . نعم ، الجميع يعرفون أنه اختفى
ما عدا من ماتوا ، وأنت أيضاً يا ريو تعرف ذلك ، كما أعرفه أنا .

وأخذ ريو يفكر وهو ينظر من نافذة مكتبه إلى الأراضي الضحلة التي تحيط بالخليج بما فيها من حصي ، وكانت السماء مغبرة اللون رغم زرقتها ، ولم يكن يخفف من حدة هذه الغبرة سوى وجود المساء ، وقال ريو :

— نعم يا كاستل ، من الصعب تصديق هذا ، ولكن يبدو واضحاً جلياً أنه الطاعون .

ونفض كاستل ، واتجه نحو الباب . ثم ما لبث الطبيب المعجوز أن قال :

— أنت تعرف ماذا سيقولون لنا ، سيقولون : « إنه اختفى من بلاد المناطق المعتدلة منذ سنوات » .

فأجاب ريو — وهو يهز كتفيه — :

— اختفى ؟ ماذا يعني ذلك ؟

— نعم لا تنس أنه اختفى من باريس منذ حوالي عشرين عاماً .

— حسن . ولنا أمل ألا تكون وطأته هنا أشد مما كانت هناك ، ولكنه حقيقة أمر صعب التصديق .

كانت هذه أول مرة تذكر فيها كلمة « الطاعون » . والآن وقد وصلنا إلى هذه النقطة من القصة — التي تترك فيها برنار ويوساها خلف نافذته — يحدد بنا أن نسمح للراوى بأن يبرر شك الطبيب ودهشته ؛ إذ أن وقع الأحداث على الطبيب كان هو نفسه وقعها على بقية المواطنين مع اختلاف فى الدرجة ، فالواقع أن الأوبئة من الأمور الشائعة . ولكن عندما ينزل الوباء على رموسنا يصعب علينا الاعتقاد بأنه وباء ، وقد أصيب العالم بالطاعون مرات تقارب عدد المرات التى نكسب فيها بالحرب ، ومع ذلك فكلا الشرين — الحرب والطاعون — يباغتان الناس على غير استعداد منهم للملاقاةهما .

لقد فوجئ ريو — كما فوجئ مواطنونا — بهذا الوباء ، وعلى هذا النحو ينبغي لنا أن نفسر تردده ، وعلى هذا النحو أيضاً يجب أن نفهم أنه كان موزعاً بين القلق واليقين ؛ فعندما تندلع ثيران الحرب يقول الناس : إنها لن تطول ؛ لأن استمرارها ينم عن أشد الغباء ، فالواقع أنه لا شئ أشد غباء من الحرب ، ولكن هذا لا يمنع من أن يطول أمورها ؛ إذ الغباء من شأنه المثابرة ، ويمكن أن نلبس ذلك بوضوح إذا ما صرفنا النظر قليلاً عن حصر تفكيرنا فى أنفسنا ، وإذن فقد كان مواطنونا فى هذا الصدد كغيرهم من الناس ، كان تفكيرهم محصوراً فى أنفسهم ،

و عبارة أخرى كانوا عريقين في الإنسانية ، أى لا يعتقدون في الأوبئة ، قالوا . أ كبر من الإنسان ، ولذا يميل الناس إلى الاعتقاد بأنه إيس من أمور الواقع ، وبأن المسألة لا تعدى حلاً مزعجاً لا يلبث أن ينتهى ، و لكن الحلم لا ينقضى في كل الأحيان ، ثم تتابع الأحلام المزعجة بعضها في إثر بعض ، حتى ينقض الناس أنفسهم فيها — وفي مقدمتهم أصحاب الفلسفة الإنسانية — لأنهم لم يتخذوا الأمر حيطته ، فمواطنونا لم يكونوا أشد من غيرهم وزراً ، كل ما في الأمر أنهم نسوا أن يتواضعوا ، وأنهم ظنوا أن كل شيء لا يزال ممكنًا بالنسبة لهم ، ومعنى هذا أن الأوبئة غير ممكنة الحدوث ، فاستمروا في عقد الصفقات ، وفي إعداد الرحلات ، وفي اعتناق الآراء . كيف كان يمكنهم إذن أن يفكروا في الطاعون الذى يقضى على المستقبل والأسفار والمناقشات ؟ كانوا يظنون أنفسهم أحراراً ، ولكن لا وجود للأحرار ما دام الأوبئة وجود .

وقد ظل الدكتور ريو يعتقد أن الخطر غير حقيقى بالنسبة له ، حتى بعد أن اعترف أمام صديقه بأن حفته من المرضى في نواح مختلفة من المدينة قد ماتوا منذ قليل بالطاعون دون سابق إنذار ، كل ما في الأمر أنه إذا ما كان المرء طبيباً ، فإنه يكون أقدر من غيره على تكوين فكرة عن الأهم ، ويكون أوسع من غيره خيالاً ، فلما نظر الدكتور ريو من النافذة إلى المدينة — التى لم يتغير فيها شيء — لم يكذب بشيء إلا بشيء يسير من الامتعاض أمام المستقبل الذى يسمونه القلق ، وأخذ يحاول أن يجمع في فكره ما يعرفه عن هذا المرض ، وأخذت الأرقام تطفو في ذاكرته ، وهو يقول في نفسه : إن المرات الثلاثين التى عرف

قيمتها العالم « الطاعون » ، قد أسفرت عن نحو مائة مليون من الموتى ،
ولكن ما قيمة هذه الملايين المائة من الموتى ؟ فإن كل من ساهم في حرب
لا يكاد يعرف ما هو الميت .

ولما لم تكن الإنسان الميت أية قيمة إلا إذا رأيناه ميتاً ، فإن
مائة مليون من الجثث المنتشرة في غضون التاريخ لا يعتبرون إلا بمثابة
خيوط من الدخان في خيالنا . وتذكر الطبيب طاعون القسطنطينية الذي
أسفر عن عشرة آلاف ضحية في يوم واحد ، كما يقول بروكوب ، وعشرة
آلاف شخص يقدرون — على وجه التقريب — بخمسة أمثال عدد
المتفرجين في إحدى دور السينما الكبيرة . فلتتصور — إذن — أن
شخصاً قد جمع المتفرجين بعد خروجهم من خمس دور للسينما وقادهم إلى
أحد ميادين المدينة ثم جعل منهم كومة واحدة من الموتى ؛ لكي نستطيع
الحكم على الأمر بوضوح . ويمكننا أن نضع بعض الوجوه المعروفة
فوق هذه الكومة التي تتكون من أشخاص مجهولين .

ولكن هذا بطبيعة الحال أمر مستحيل التنفيذ ، ثم من منا يعرف
عشرة آلاف وجه ؟ وأياً ما كان ، فإن بروكوب وأمثاله لا يعرفون
العدد ، وقد حدث في كاتتون — منذ سبعين عاماً — أن نفق أربعائة
ألف فأر بالطاعون قبل أن يدير الوباء وجهه نحو السكان ، ولكن لم
تكن هناك في سنة ١٨٧١ وسيلة لحصر عدد الفئران . كانت الإحصاءات
تقريبية ، بالجملة ، وكانت فرص الوقوع في الخطأ مؤكدة ، ومع ذلك فإنه
إذا كان طول الفأر ثلاثين سنتيمتراً ووضعنا أربعين ألف فأر في صف
أحدها تلو الآخر ، أصبح طولها . . .

وأخذ صبر الطبيب في النفاد ، فما كان ينبغي له أن ينساق وراء الأحداث ، ذلك أن بضع حالات لا تعتبر وباء ، ويكفي اتخاذ بعض الاحتياطات . ينبغي أن تتمسك بما تعلمناه عن أعراض هذا الوباء : الذهول ، والانهيار ، واحمرار العيون ، والتساخ الفم ، وآلام الرأس ، والعقد ، والعطش الشديد ، والهلديان ، والبقع التي تنتشر على الجسم ، والتقرق الداخلي ، وفي نهاية كل هذا . . . في نهاية كل هذا ، طرأت جملة في ذاكرة الدكتور ريو ، جملة تضع خاتمة كل هذه الأعراض : . . . يصبح النبض ضعيفاً متقطعاً ، وتحدث الوفاة فجأة إثر حركة بسيطة . . . نعم في نهاية كل هذا ، يصبح المرء وكأنه علق بخيط رفيع ، وكان ثلاثة أرباع الناس — وهذا هو الرقم الصحيح — ينتظرون بقلق شديد أن تصدر منهم تلك الحركة الصغيرة التي سوف تهوى بهم .

واستمر الطبيب ينظر من النافذة . كان يرى خلال زجاج النافذة سماء الربيع الرطبة من ناحية ، ومن الناحية الأخرى تلك الكلمة التي ما زالت ترن في الغرفة : الطاعون .

ولم يكن لهذه الكلمة نفس المعنى الذي أراد العلم أن يضمها لإياه ، واسكنها كانت تعني سلسلة طويلة من الصور الغريبة التي تلقى والمدينة التي يغلب عليها اللونان الأصفر والأشهب ، تلك المدينة التي كانت في هذه الآونة متوسطة الازدحام ، والصوت الذي ينبعث منها أقرب إلى الطنين منه إلى العجيج ، بالاختصار تلك المدينة السعيدة . ، إذا كان من الممكن أن يكون الشيء سعيداً وكثيراً في وقت واحد .

كان اطمئنان المدينة وهدوءها وعدم اكترائها مما يباعد — بكل سهولة — بينها وبين الصور القديمة المعروفة للوباء : أثينا عندما اجتاحتها الطاعون وهجرتها العصفير ، المدينة الصينية ، وقد غصت بالمحتضرين في صمت ، المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في مرسيليا وهم يهيلون في الحفر الجثث التي تقطر دماً ، مدينة بروقانس عندما بنوا فيها الجدار الكبير ليصد ريح العاتية ، يافا وما فيها من متساوين ذوى مناظر بشعة ، الاسرة الرطبة المتعفنة وقد التصقت بأرض مستشفى القسطنطينية ، المرضى وهم يحرون بالخطم ، وتلك المواكب التنكيرية من الأطباء ذوى الأقعة إبان الطاعون الأسود ، ووضع الأحياء في قبور ميلانو كل زوجين في قبر ، عربات اليد وهي تحمل الموتى في مدينة لندن المذعورة ، والأيام والليالي وقد غصت — في كل مكان وكل وقت — بصرخات الناس التي لا تنتهى . . . ولكن لم تكن كل هذه الصور قد وصلت بعد من القوة إلى الحد الذى يكفى للقضاء على الهدوء الذى ساد المدينة ذلك النهار ، ومن الناحية الأخرى أخذ ضجيج الترام يرتفع فجأة من خلال النافذة مفقداً — فى ثانية واحدة — كل قسوة وكل ألم ، أما البحر الذى ربض فى نهاية رقعة الشطرنج القاتمة التي تكونها المساكن ، فسكان هو وحده الذى يكشف عما يحويه العالم أبداً من اضطراب وعدم استقرار .

وأخذ الدكتور ريو — وهو ينظر إلى الخليج — يفكر فى الحرائق التي تحدث عنها لوكريس والتي كان الاتينيون يقيمونها تجاه البحر حيث كانوا يحملون إليها الموتى ليلا ؛ ولكن لما لم يكن ثمة مكان لسك الجثث ، كان الأحياء يتصارعون بالمشاعل ايتسكنوا من الحصول على

مكان لمن كانوا أعزاء عليهم ، مفضلين النضال الدامى على ترك ما معهم من جثث . ويمكننا أن نتخيل هذه النيران الحمراء أمام مياه البحر الهادئة الداكنة ، ومعارك المشاعل في ليل يتطاير فيه الشرر ، والدخان الكثيف المتصاعد إلى السماء التى ترهى كل هذا ، ويمكننا أن نخشى ...

ولكن هذا الدوار لم يكن ليصمد أمام صوت العقل . صحيح أن كلمة طاعون ، قد ذكرت منذ لحظة ، وصحيح أنه فى هذه اللحظة نفسها انقضّ الوباء على ضحية أو ضحيتين وجند لهما .

ولكن هذا مما يستطيع إبقاؤه . وكل ما هنالك — مما ينبغي عمله — ينحصر فى أن نعترف بوضوح بما يجب الاعتراف به ، وأن نطرد الظلال غير المفيدة ، ونتخذ الإجراءات المناسبة . وبعد ذلك لابد أن يتوقف الطاعون ؛ إذ أن الطاعون لا يمكن توهمه ، أو يمكن توهمه بصورة خاطئة ، فلو توقف — وهو الأمر الأقرب إلى الاحتمال — سار كل شيء على ما يرام ، أما إذا كان الأمر عكس ذلك فإن حقيقته ستعرف ، ويعرف أيضاً ما إذا لم تكن هناك وسيلة الاستعداد له أو لا ، ثم للقضاء عليه ثانياً .

وقتح الطبيب النافذة ، وارتفع فجأة صخب المدينة ، وأخذ يطرق سمعه صليل متقطع قصير للمنشار ميكانيكى فى مصنع مجاور ، وانتهض ريو مسيقظاً . فهذا العمل اليومى هو اليقين بعينه ، أما ما دون ذلك فليس إلا خيوطاً واهية ، وأحداثاً غير ذات قيمة لا يصح التوقف عندها ، وأهم ما فى الأمر أن يمارس كل إنسان مهمته بأمانة .

بينما كان الدكتور ريو غارقا في تأملاته على هذا النحو ، أعلن
إليه مقدم جوزيف جران .

وكان جوزيف جران الموظف بالبلدية كثير المشاغل ، وبالرغم من
هذا كان يكلف من حين لآخر بالمعاونة في أعمال الإحصاء الخاصة
بالأحوال الشخصية للسكان ، وقد ساقه ذلك إلى القيام بحصر الوفيات ،
ولما كان بطبيعته خدوما ، فقد قبل أن يحضر بنفسه إلى ريو نسخة من
النتائج التي يصل إليها .

ورأى الطبيب جران يدخل مصحوبا بجاره كوتار ، وكان الموظف
يلوح بورقة في يده ، وهو يصيح قائلا :

— إن الأرقام في صعود يادكتور ، إحدى عشرة حالة وفاة في ثمان
وأربعين ساعة .

وحسب ريو كوتار ، وسأله عن صحته ، وشرح جران للطبيب
كيف أن كوتار أصر على شكر الطبيب ، والاعتذار له عن المتاعب التي
سببها له ، ولكن ريو كان مشغولا بالنظر في صحيفة الإحصائيات .
ثم قال بعد قليل :

— قد يكون من الأفضل أن تقرر تسمية هذا المرض باسمه .

لقد كننا نتخبط حتى الآن، هيا ممي فإني ذاهب إلى المعمل .

وقال جران وهو يهبط السلم خلف الطبيب :

— نعم ، نعم . يجب تسمية الأشياء بأسمائها ، واسكن ما هو هذا الاسم ؟

— لا أستطيع أن أذكره لك ، وإن يجديك هذا في شيء .

وابتسم الموظف قائلا :

— أترى ؟ إن الأمر ليس سهلا .

وانتجه الجميع إلى ميدان الأسلحة حيث ظل كوتار لائذا بالصمت ، وكانت الشوارع قد بدأت تزدهم بالناس ، وأخذ غروب بلدنا العابر ينسحب أمام جحافل الليل ، وبدأت طلائع النجوم في الأفق الذي لم يزل واضحا للبصر ، وما هي إلا ثوان حتى أضيئت المصابيح فوق الشوارع فشملت السماء كلها بالظلام . وبدأ ضجيج المناقشات وكأنه قد ازداد درجة عن ذي قبل .

ولما وصلوا إلى ركن من أركان ميدان الأسلحة قال جران :

— إنني أسألك المعذرة ؛ إذ يجب أن أستقل الترام ، فإن أمسياتي مقدسة عندي ، وكما يقولون في بلدي : د لا ينفخى أبدا أن تؤجل للغد . ، وكان ريو كثيرأ ما لاحظ أن جران — وهو من مواليد مونتليار — يجب دائما أن يستشهد بأمثال بلده ، وأن يضيف إليها عبارات أخرى غامضة لا تنتمي لأي مكان مثل : د زمن الأحلام ، أو د إضاءة سحرية ، وقال كوتار :

— هذا صحيح ، فمن غير الممكن إخراجه من مسكنه بعد العشاء .
وسأله ريو عما إذا كان يعمل لحساب البلدية ، فأجاب جران بالنفي
قائلاً : إنه يعمل لحسابه هو .

فقال ريو — مجرد أن يضيف شيئاً — :
— حسن . وهل هناك تقدم ؟

— بطبيعة الحال ؛ إذ أنى أعمل في ذلك منذ سنوات ، ولكن إذا
نظرنا البسالة من ناحية أخرى ، وجدنا أن النجاح ليس كبيراً .

وقال الطبيب وهو يوقف سيارته :
— ولكن ما هذا العمل ؟

وتتم جران بشيء ما ، وهو يثبت قبعته المستديرة فوق أذنيه
الكبيرتين :

وفهم ريو بشكل غامض جداً أن الأمر يتعلق بذهاب إحدى
الشخصيات . وهنا كان الموظف قد غادرهما ، وأخذ يسير بخطى سريعة
قصيرة في شارع المارن ، وعلى عتبة المعمل قال كوتار للطبيب : إنه يريد
مقابلته ليطلب إليه النصيحة ، فدعاه ريو — ويده تعبت في جيبيه بورقة
الإحصائيات — إلى أن يأتي لاستشارته ، واسكنه تنبهه إلى أنه ذاهب في
اليوم التالي إلى الحى الذى يسكنه ، فاستدرك قائلاً : إنه سيمر لرؤيته في
نهاية فترة العصر .

ولاحظ الطبيب — وهو يغادر كوتار — أنه لا يزال يفكر في
جران . تخيله وسط نوع من وباء الطاعون ، ليس هذا الوباء الذى تمر به
المدينة الآن ؛ لأنه بكل تأكيد ان يكون ذا خطر ، ولكن وسط وباء

من تلك الأوبئة الكبار التي عرفها التاريخ . ولأنه من هذا النوع من الأشخاص الذين لا يمسون بسوء في مثل هذه الحالات ، . ونذكر أنه قرأ — في مكان ما — أن الطاعون لا يمس ذوى البنية الضعيفة بسوء ، ولكنه — بصفة خاصة — يحطم ذوى البنية القوية ، واستمر يفكر فيه ، وقد رأى أن مظهره يوحى بشيء من الغموض .

والواقع أن دجوزيف جران ، لا يبدو لأول وهلة أكثر من موظف في دار البلدية — كما تدل عليه هيئته — فم طويل القامة ، نحيل ، ويبدو غارقاً في ملابسه التي يختارها دائماً فضفاضة متوهماً أنه بذلك يستطيع الانتفاع بها مدة أطول ، وإذا كان يحتفظ للآن بكل أسنانه السفلى فإنه على العكس من ذلك قد فقد كل أسنان الفك العلوى ، ومن شأن ابتسامته — التي ترفع شفته العليا — أن تجعله يبدو كفتحة مظلمة ، فإذا أضفنا إلى هذه الصورة ما يتسم به من هيئة تشبه هيئة رجل من رجال مدرسة اللاهوت ، ومن السير بجذء الجدران ، والتسلل إلى البيوت ، ورائحة البدروم والدخان ، وكل ملامح التفاهة ، عرفنا أننا لانستطيع أن نتخيله إلا أمام أحد المكاتب منكباً على مراجعة تعريفات حمامات المدينة ، أو منهمكا في جمع عناصر تقرير حول الضريبة الجديدة المقررة على رفع القمامة المنزلية ، يقوم أحد المحررين الشبان بإعداده : نعم لقد كان جران يبدو — حتى في عين من لم يوهبوا فطنة خاصة — كما لو كان قد خلق لكي يشغل وظيفة مساعد مؤقت في البلدية ، حيث يعهد إليه بالأعمال الدقيقة والضرورية في آن واحد ، ويتقاضى عليها أجراً قدره اثنان وستون فرنكاً في اليوم .

والواقع أن هذه هي الصفة التي يقول إنه ذكرها أمام كلمة « المؤهلات » في أوراق توظيفه ، وكانوا قد وعدوه قبل هذا العمل منذ اثنين وعشرين عاماً — بعد فشله في الحصول على «الليسانس» بسبب قلة المال — بأن يجعلوا منه موظفاً مثبتاً بعد فترة وجيزة ، وكان ذلك يتوقف على أن يقضى في منصبه فترة قصيرة يثب فيها كفاءته في المسائل الدقيقة التي تعرض لإدارة مدينتنا ، وقد أكدوا له أنه لابد سيصل إلى مركز محرر الذي يسمح له بالعيش في سعة . وبما لا شك فيه أنه لم يكن الطموح هو الذي دفع جوزيف جران . إلى العمل ، وكان هو نفسه يؤكد لنا ذلك بالتسامة حزينة ، ولكنه كان شديد الرغبة في حياة مادية مستقرة ، يصل إليها بوسائل شريفة، ومن ثم يمكنه القيام بالمشاغل المحببة إلى نفسه دون أن يتعرض لتأنيب الضمير ، وإذا كان قد قبل العرض الذي عرض عليه ، فإنه لم يفعل ذلك إلا لأسباب مشرفة ، بل ويمكننا أن نقول : إلا بدافع إخلاصه لمثل أعلى .

واستمر هذا الوضع المؤقت سنوات طويلة، وارتفع مستوى المعيشة بنسب لا حدود لها ، وظل راتب جران — رغم بعض العلاوات — صغيراً بشكل يصعب تصديقه . وقد شكّا ذلك إلى ريو ، ولكن يبدو أنه لم يكن يهتم بذلك أحد ، وهنا تظهر غرابة أطوار جران ، أو على الأقل إحدى علاماتها ؛ فقد كان في إمكانه أن يطالب ، لانه يحق لم يكن هو نفسه متأكداً منها ، ولكن بما أعطى من تأكيدات ووعد . ولكن رئيس المكتب الذي عينه كان قد مات منذ زمن طويل ، ثم لم يكن هذا الموظف يذكر بدقة نص الألفاظ التي قيلت له في الوعد الذي أعطى له ، أما السبب

الأخير — وهو أهم الأسباب — فهو أن جوزيف جران كان لا يجد كلماته إلا بصعوبة .

كانت هذه هي السمة المميزة التي يبدو طابعها واضح المعالم على مواطننا هذا ، كما لاحظ ريو ، وكانت هي التي تمنعه من كتابة خطاب المطالبة الذي يفكر فيه ، أو تحول بينه وبين القيام بالمساعي التي تتطلبها الظروف ، فقد كان — على حد قوله — يحس أن شيئاً ما يمنعه من استعمال كلمة « حق » ، بصفة خاصة ، لأنه لم يكن واثقاً من وجاهتها ، أو كلمة « وعد » التي قد يفهم منها ضمناً أنه يطالب بحقه ، ومن ثم تنم عن نوع من الجرأة لا يتفق والوظيفة المتواضعة التي يشغلها . ومن جهة أخرى كان يحرم على نفسه استعمال كلمات « التعطف » و « الرجاء » والاعتراف بالجميل ، التي يرى أنها لا تتفق مع كرامته الشخصية ، وهكذا ظل مواطننا يمارس وظيفته المغمورة تلك إلى سن متقدمة ، لأنه لم يجد الكلمة المناسبة . هذا إلى أن جران قد لاحظ — على حد قوله للدكتور ريو — أن حالته المادية مضمونة ، لأنه يكفيه في هذا الصدد أن يقيس احتياجاته على دخله ، وهكذا رأى نفسه يعترف بصحة إحدى الكلمات المحببة إلى العمد ، وهو من كبار رجال الصناعات في مدينتنا ، وتؤكد هذه الكلمة — بكل قوة — أنه في نهاية الأمر (وهو يدقق في إبراز هذه الكلمة التي تحمل كل ما في هذه الحجة من وزن) إنها إذن تؤكد نهاية الأمر ، أنه لم يأت لأحد أن يشاهد شخصاً يموت من الجوع ، وأياً ما كان ، فقد كان من شأن الحياة المتقشفة — شبه الصوفية هذه التي يحياها جوزيف

جران — أن حررته نهائياً من كل المشاغل التي من هذا القبيل، واستمر يبحث عن ألفاظه .

ويمكننا — على نحو ما — أن نقول : إن حياته كانت مثالية ؛ فقد كان من أولئك الرجال النادرين في مدينتنا وفي غيرها من المدن ، الذين لا تنقصهم شجاعة التصريح بمشاعرهم الطيبة . والواقع أن القليل الذي كان يدلي به عن ذات نفسه يشهد بما يمتاز به من طيبة وميول لا يمكن الاعتراف بها في أيامنا هذه ؛ فلم يكن وجهه يحمر خجلاً عندما يقر أنه يحب أبناء أخته وأخته ، وهم كل ما تبقى له من أقارب ، وأنه يذهب لزيارتهم في فرنسا مرة كل عامين ، ويعترف بأن ذكرى والديه — اللذين فقدتهما وهو لا يزال صغيراً — تحز في نفسه ، ولا يضيره أن يعترف بأنه يحب — أولاً وقبل كل شيء — أحد أجراس الحى الذي يسكنه ، وهي تدق بركة حوالى الساعة الخامسة مساء . ومع ذلك فقد كانت كل كلمة يستعملها في التعبير عن هذه العواطف البسيطة تكلفه عناء كبيراً ، وكانت هذه الصعوبة هي أكثر ما عاناه من هموم ، فكان يقول للدكتور :

— آه يادكتور ! كم يطيب لى أن أعلم كيف أعبر عن نفسى ، وكان يكرر ذلك في كل مرة يقابل فيها ريو .

وفي هذا المساء فهم ريو فجأة — وهو ينظر إلى هذا الموظف في انصرافه — ماذا يريد جران أن يقول ، إنه يكتب ولا ريب كتاباً أو شيئاً من هذا القبيل . وقد اطمأن ريو إلى هذه الفكرة حتى عندما

وصل إلى المعمل . لقد كان يعلم أنها فكرة سخيفة ، ولكن لم يكن في استطاعته أن يصدق أن الطاعون يستطيع أن يحيط رحاله في مدينة يوجد فيها موظفون صفاراً يمارسون هوايات مشرفة ، ذلك أنه لم يستطع أن يتخيل وجود مكان لهذه الهوايات وسط الطاعون ، ومن ثم فقد أصدر حكمه بأنه لا يمكن للطاعون — من الوجهة العملية — أن يكون له مستقبل بين مواطنينا .

وفي اليوم التالي تمكن ريو — بفضل إلحاحه الذي قيل إنه في غير محله — من تشكيل لجنة صحية بالمديرية ، وقال ريشار :
— صحيح أن الشعب في حالة قلق ، ومن شأن الثروة أن تحيط كل شيء بالتمويل ، وقد قال لي المدير : « لتصرفوا بسرعة — إذا أردتم — ولكن في صمت ، وذلك بالرغم من اقتناعه بأن المسألة لا تتعدى كونها إنذاراً كاذباً .

وبينما كان برنار ريو يصطحب كاستل في عربته قاصدين المديرية ، قال له هذا الأخير :

— أتعرف أن هذا المركز خال من المصل ؟

— أعرف ذلك ، وقد اتصلت تليفونياً بالمخزن ، والمدير واقع في حيرة . يجب إحضار المصل من باريس .

— أتعشم ألا يطول ذلك . .

وواصل ريو كلامه قائلاً :

— لقد أبرقت فعلاً .

وكان المدير لطيفاً ، ولكنه كان بادی العصبية فقال :

— لنبدأ في الموضوع أيها السادة : هل ألخص لكم الموقف ؟

ولكن كان من رأى ريشار ألا فائدة من ذلك ، فالأطباء يعرفون الموقف ، ولم تبق إلا معرفة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها .

وأجاب كاستل العجوز بصراحة مذهلة قائلاً :

— المسألة تنحصر في معرفة ما إذا كان المرض هو الطاعون أم لا .

وصاح طبيبان أو ثلاثة في دهشة . أما الآخرون فبدأ عليهم التردد ، وانتفض المدير في مكانه ، والتفت بحركة آلية نحو الباب كما لو كان يريد أن يتأكد من منع هذا الخبير الهائل من التسرب إلى الممرات ، وأعلن ريشار أنه لا ينبغي الاستسلام للذعر ، فالمسألة تتعلق بمحى ذات مضاعفات على شكل عقد ، هذا هو كل ما يمكن إعلانه . أما الفروض ، فإنها دائماً أخطر الأمور ، سواء في العلم أو في الحياة ، وأخذ كاستل العجوز يمزق شارببه الأصفر في هدوء ، ورفع عينيه الغائمتين نحو ريو ، ثم عاد فوجه إلى الحضور نظرة ملؤها حسن النية ، ونبههم إلى أنه يعرف جيداً أنه الطاعون ، ولكن الاعتراف بذلك رسمياً يضطرهم طبعاً إلى اتخاذ إجراءات لا تعرف الرحمة ، وهو يعرف أيضاً أن هذا هو ما يضطر زملاءه إلى التراجع ، لذلك يراه يود — لكيلا يزعجهم — أن يقر بأنه ليس الطاعون ، وهنا ثار المدير ، وأعلن أن هذه طريقة خاطئة في التفكير .

وقال كاستل :

— ليس المهم أن تكون هذه الطريقة في التفكير حسنة ، ولكن المهم أن تبعث على التأمل .

ولما كان ريو قد لزم الصمت ، فقد طلبوا منه أن يدلى برأيه ،
فقال :

— إنها حتى تشبه التيفود ، ولكنها مصحوبة بعقد وقيء ، وقد تحت
بعض العقد ، وأجريت بعض تحليلات يرى المعمل أنها تحتوى على
ميكروب الطاعون ، ومع ذلك يجب أن تكون أكثر دقة ، فنقول : إن
هناك بعض خلافاً نوعية في هذا الميكروب تجعله لا يتفق تماماً
والأوصاف التقليدية لميكروب الطاعون .

وانبرى ريشار يؤكد أن هذه النتيجة تبعث على التردد ، وأنه
ينبغي على الأقل الانتظار حتى ظهور النتيجة الإحصائية لمجموعة التحليلات
التي بدأ فيها منذ أيام .

وقال ريو بعد فترة صمت وجيزة :

— إذا كان الميكروب يصل في ظرف ثلاثة أيام إلى مضاعفة حجم
الطحال إلى أربعة أمثاله ، وأن يجعل العقد تصبح في حجم البرقعة وقوام
العصيدة ، فإن هذا بالذات يحرم علينا أن نتردد ؛ فبؤرات العدوى في
ازدياد مطرد ، وإذا لم نوقف المرض بعد أن رأينا هذه الصورة التي ينتشر
بها فإنه قد يقضى على نصف سكان المدينة قبل مضي شهرين ، ومن ثم
فليس المهم أن نسميه طاعوناً أو حمى ، إنما المهم ألا نسمح له بالقضاء
على نصف سكان المدينة .

وكان من رأى ريشار ألا نكون متطرفين في تشاؤمنا ، ولا سيما أنه
لم يقدم الدلائل بعد على أنه مرض معد ، مادام أهل المرض لم يصابوا بسوء .
ولكن ريو لفت نظر الجميع إلى أن آخرين قد ماتوا ، وأن العدوى

لم تكن قط أمراً مطلقاً ، وإلا استمرت في صعود لا ينتهى حتى يقضى
المرض على جميع السكان بشكل صاعق ، والمسألة لاعلاقة لها بالتشاور ،
ولأنما ينبغى اتخاذ الإجراءات اللازمة .

ومع ذلك فقد ظن ريشار أنه يلخص الموقف عندما ذكر الحضور
بأنه ينبغي — لإيقاف هذا المرض ، في حالة ما إذا لم يتوقف من تلقاء
نفسه — أن نطبق الإجراءات الوقائية الصارمة التى ينص عليها القانون ،
وأنه لا يمكن تطبيقها إلا إذا اعترفنا بأنه الطاعون ، ولما لم يكونوا متأكدين
من ذلك ، فإن الأمر يتطلب بعض التفكير .

وألح ريو قائلاً :

— إن المسألة لا تنحصر في معرفة ما إذا كانت الإجراءات التى
ينص عليها القانون لإجراءات صارمة ، ولكن في معرفة ما إذا كانت
ضرورية لحماية نصف سكان المدينة من الهلاك ، أما ما عدا ذلك فمسألة
إدارية ، وقد نص دستورنا بالذات على وجود مدير للفصل في هذه المسائل .

وقال المدير :

— هذا لاشك فيه ، ولكن المسألة تحتاج إلى أن تعترفوا — رسمياً —
بأن الأمر يتعلق بوباء الطاعون .

فقال ريو :

— إذا لم نعترف بذلك ، فسوف نجازف بقتل نصف سكان المدينة .

وتدخل ريشار — بشيء من الحدة — قائلاً :

— الحقيقة أن الزميل يعتقد أنه الطاعون ، ووصفه لأعراض المرض .
يثبت ذلك .

وأجاب ريو : بأنه لم يصف أعراض المرض ، وإنما وصف ما رآه ،
وما رآه هو الأورام والبقع والحُمى المصحوبة بالهذيان التي تقضى على المريض
في ثمان وأربعين ساعة ، وسأل السيد ويشار عما إذا كان يستطيع أن
يأخذ على عاتقه مسؤولية التأكد بأن الوباء سوف يتوقف دون إجراءات
وقائية شديدة ؟

وتردد ويشار بعض الشيء ، ثم نظر إلى ريو ، وقال :
— قل لي وأيك يا خلاص ، هل أنت متأكد من أنه الطاعون ؟
وأجاب ريو :

— إنك لم تحسن عرض المسألة ، فإنها ليست مسألة ألفاظ ، بل
مسألة وقت .

وقال المدير :

— رأيك إذن أنه يجب تطبيق الإجراءات الوقائية التي تتخذ في
حالة الطاعون حتى لو لم يمكن الأمر بتعلق بالطاعون .

— لو أصررتهم على أن يكون لي رأى ما ، فهذا هو رأيي بالفعل .
وأخذ الأطباء في التشاور ، ثم قال ويشار :

— ينبغي أن نأخذ على عاتقنا مسؤولية التصرف مع افتراض أن
المرض هو الطاعون .

وقد وافق الجميع على هذه الصيغة بحماسة .

وقال ريشار لريو :

— أهذا هو رأيك أنت أيضاً ، أيها الزميل العزيز ؟

فقال ريو :

— لا تهمنى الصيغة فى شىء ، قولوا — إذا شئتم — : إنه لا ينبغي
لنا التصرف على أساس أن نصف سكان المدينة غير مهدد بالموت ، لأنه
فى هذه الحالة سيموت حتما .

وخرج ريو من الاجتماع وسط الامتعاض العام ، وبعد قليل كان
يتجول فى الحى الخارجى الذى تتصاعد منه رائحة الشواء والبول ،
فالتفت نحوه امرأة تصرخ صراخاً يائساً ، وقد التهمت أصول نخذيها .

وفي اليوم التالي للاجتماع قفزت الحمى قفزة أخرى صغيرة ، واضطرت الصحف نفسها إلى التحدث عنها ، ولكن بطريقة خفيفة ، حيث اكتفت ببعض الإشارات ، وفي اليوم الذي تلاه لاحظ ربو أن البلدية قد ألصقت بعض الإعلانات البيضاء في أقل الأماكن ظهوراً بالمدينة ، وكان من الصعب أن يوجد في هذه الإعلانات أى دليل على أن السلطات قد بدأت تواجه الأمر ، فلم تكن الإجراءات صارمة ، ويبدو أنهم قد ضحوا بالكثير في سبيل عدم إزعاج الرأى العام ، والواقع أن الإعلان كان ينص على أنه قد ظهرت في مدينة وهران بعض حالات من حمى خبيثة لم يمكن بعد التأكد من أنها معدية ، وهذه الحالات ليست واضحة المعالم إلى الحد الذى يجعلها مثيرة للقلق ، وبما لا شك فيه أن السكان سوف يظلون محتفظين بثباتهم ، ثم استمر الإعلان يقول . . ومع ذلك فقد اتخذ المدير بعض الإجراءات الوقائية من باب الاحتياط ، ذلك الأمر الذى يسهل على الجميع فهمه ، وإذا فهمت الإجراءات جيداً ، ونفذت كما ينبغى ، كانت كفيلة بأن تقضى على كل ما يهدد بخطر الوباء ، ومعنى ذلك أن المدير لا يشك لحظة واحدة في أنه سيلقى كل معونة خاصة من كل من هم تحت إدارته .

ثم أضاف الإعلان أنه ستتخذ بعض الإجراءات الجماعية ، ومن

يذنها لإبادة الفئران بتعمير غاز سام في المجارى ، وكذلك بمراقبة أنابيب المياه مراقبة دقيقة . وأوصى السكان بمراعاة النظافة التامة ، ودعا من يحملون براغيث إلى التوجه إلى مستوصفات البلدية ، ومن جهة أخرى نبه على الأسر بضرورة التبليغ عن الحالات التي يشخصها الأطباء ، وبالموافقة على عزل مرضاها في قاعات العزل الخاصة في المستشفيات ، وقد أعدت هذه القاعات بحيث تعالج المرضى في أقل وقت يمكن ، مع توفيرها لهم أكبر قسط من فرص الشفاء ، وقد اشتمل الإعلان على عدة مواد إضافية تنص على التطهير الإجبارى لغرف المرضى ، ووسائل النقل التي استعملوها ، وفيما عدا ذلك اكتفى الإعلان بتوصية أقارب المريض بأن يضعوا أنفسهم تحت الرقابة الصحية .

أشاح الدكتور ريو بوجهه لجأة عن الإعلان ، وسار في طريق كليته ، حيث كان جوزيف جران في انتظاره . وما أن رآه حتى رفع ذراعيه مرة أخرى ، وقال ريو :

— نعم ، الأرقام في صعود . هذا ما أعرفه .

فقد قضى المرض خلال الليلة الماضية على نحو عشرة في المدينة ، ثم قال الطبيب لجران : إنه قد يراه هذا المساء ؛ لأنه سيذهب لزيارة كوتار .

وأجاب جران :

— إنك على حق ، ستكون زيارتك مفيدة له ؛ لأننى ألمح عليه بعض التغير .

— وكيف ذلك ؟

— لقد أصبح مهنذاً .
— ألم يكن كذلك من قبل ؟

وتردد جران فى الإجابة ، فلم يكن فى وسعه أن يقول : إنه كان عديم التهذيب ، فمثل هذا التعبير لن يكون صحيحاً ؛ إذ أنه كان رجلاً منظوياً على نفسه ، كدوماً ، غير بعيد الشبه من الخنزير البرى ، كانت كل حياته لا تتعدى غرفته ، ومطعمها متواضعاً ، وبعض المهبات الغامضة . كانت هذه هى كل حياة كوتار ، أما من الناحية الرسمية ، فقد كان ممثلاً لبعض شركات التبئذ ، والمشروبات الروحية ، وكان يقوم من حين لحن بزبارة شخصين أو ثلاثة أشخاص لابد أنهم كانوا عملاءه ، وفى المساء كان يذهب أحياناً إلى السينما المواجهة للنزل ، وقد لاحظ موظف البلدية أن كوتار يفضل أفلام العصابات . وأيا ما كان ، فإن عمل شركات التبئذ هذا كان دائماً مثلاً لحب العزلة والحذر .

ويرى جران الآن أن كل هذا قد تغير ، وراح يقول :
— لست أدرى كيف أعبر عن ذلك ، ولكن يخيّل لى أنه يحاول استمالة الناس إليه ، وأن يجذب الجميع إلى صفه ، فهو كثيراً ما يتحدث لى ، ويعرض على أن أخرج معه ، وفى معظم الحالات لا أجدنى أقوى على الرفض ؛ على أية حال إن أمره يهمنى ، ألم أؤقتله حياته ؟

لم يتلق كوتار زبارة من أحد منذ محاولته الانتحار ، وقد دأب على محاولة اجتذاب ود الناس فى الطرقات وفى المحلات التجارية ، فلم يحدث أن تحدث أحد مع البدالين بكل هذه الرقة ، ولا أبدى مثل هذا الاهتمام بالإنصات إلى بائعة السجائر .

ثم قال جبران مبدئياً بعض الملاحظات :

— إن بائعة السجائر هذه أفعى حقيقية ، وقد حذرت كوتار منها ، ولكنه قال لى : إنتى مخطئة ، وإن لها نواحي طيبة ، وكل ما فى الأمر أنه يجب أن نعرف كيف نكتشف هذه النواحي .

وقد صحب كوتار جبران مرتين أو ثلاث مرات إلى المطاعم والمقاهى الفاخرة بالمدينة ، والتي كان قد بدأ يرتادها بالفعل ، وكان يقول : — إن المرء يكون على راحة فى هذه الأماكن ، ثم إنه يجد نفسه فيها فى صحبة طيبة .

وقد لاحظ جبران الاهتمام الخاص الذى ينفقه خدم هذه المحال على مندوب شركات التبغ ، وعرف أن سبب ذلك يرجع إلى العطاء السخى الذى ينفقه هو عليهم ، وكان من الواضح أن كوتار شديدة الحساسية لهذه الجاملات التى كانوا يرددونها له ، فذات يوم صحبه رئيس الخدم حتى الباب ، وساعده على ارتداء معطفه ، فقال كوتار لجبران : — إنه شخص طيب ، ويمكن أن يدلى بشهادته .

— يدلى بشهادته عن ماذا ؟

وبدا على كوتار التردد ، ثم قال :

— عن . . عن أننى لست رجلاً شريراً .

هذا إلى أنه كانت له بعض النزوات ، ففي ذات يوم عامله البدال بلطف أقل من المعتاد ، فعاد إلى منزله فى حالة نورة لا حد لها ، وأخذ يردد قوله :

— لقد انحاز للآخرين هذا الوغد .

— من هم الآخرون ؟

— جميع الآخرين .

بل لقد شهد جران مشهداً مثيراً من هذا القبيل عند بائعة السجائر ،
فبينما كان الجميع منهمكين في الحديث ، تسكمت المرأة عن حادث اعتقال
كان له دوى في مدينة الجزائر منذ قليل ، وكان الأمر يتعلق بموظف تجارى
صغير قتل عربياً على شاطئ البحر ، وعقبت البائعة بقولها :

— لو أنهم وضعوا هؤلاء المجرمين جميعاً في السجن لاستطاع
الأشراف أن يتنفسوا الصعداء .

ولسكنها اضطرت إلى قطع كلامها أمام اضطراب كوتار المفاجئ ،
فقد قذف بنفسه خارج الحانوت دون أن يفوه بكلمة استئذان ، وظل
جران والبائعة واقفين يحركان أذرعهما من الدهشة .

وبعد ذلك لفت جران نظر ريو إلى تغيرات أخرى طرأت على
أخلاق كوتار . فقد كان من معتنقى الأفكار التحررية المتطرفة ، وكانت
كلمته المفضلة : « الكبار يأكلون الصغار دائماً » ، مما يبرهن على ذلك .
ولسكنه منذ بعض الوقت لم يعد يشتري إلا جريدة وهران ذات الآراء
المتزنة ، وقد لا يكون المرء مخطئاً إذا ادعى أنه كان يعتمد قراءتها في
الأماكن العامة ، بل لقد حدث ذات مرة ، بعد بضعة أيام من تماثله للشقاء
أن طلب من جران — وقد كان في طريقه إلى مكتب البريد —
أن يصدر له إذن بريد بمائة فرنك تعود أن يرسلها كل شهر إلى أخت له
تسكن في مكان ناء ، ولسكن لم يكده جران يبتعد قليلاً حتى قال له كوتار :
— أرسل لها مائتي فرنك ، ستكون هذه مفاجأة لطيفة لها ، فهي

تعتقد أننى لا أفكر فيها مطلقاً ، ولكن الحقيقة أنى أحبها كثيراً .
وأخيراً اتفق أن حدثت بينه وبين جران محادثة غريبة ، واضطر
هذا الأخير إلى أن يجيب على أسئلته المرتابة بأن لديه عملاً يشغله
كل مساء .

فقال كوتار :

— حسن ، هل تؤلف كتاباً ؟

— إذا شئت ، ولكنه أمر أكثر تعقيداً من ذلك .

فصاح كوتار قائلاً :

— آه ، كم أتمنى أن أحذو حذوك .

وبدت الدهشة على جران ، فقال كوتار متلعثماً : إنه إذا كان المرء
فناناً فإنه يجد في هذا علاجاً لكثير من المشاكل .

وسأله جران :

— لماذا ؟

— لأن الفنان له من الحقوق أكثر مما لغيره ، كل الناس يعرفون
ذلك ، فهم يتسامحون معه كثيراً .

وقال ريو لجران في صبيحة يوم الإعلانات :

— لابد أن قصة الفنان قد أدارت له رأسه كما فعلت بكثيرين
غيره ، هذا كل ما في الأمر ، أو قد يكون خائفاً من الحى .

وأجاب جران :

— لا أظن ذلك يا دكتور ، ولو طلبت إلى رأيي . . .

وفي هذه الأثناء مرت عربة لإبادة الفئران تحت النافذة ، وهى تحدث ضجة شديدة فى سيرها السريع ، وصمت ريو حتى ذهبت الضجة ، وصار من الممكن سماع ما يقول ، فطلب — وهو شارد الذهن — من موظف البلدية أن يدلى إليه برأيه ، ونظر إليه الأخير نظرة كلها جمد ، ثم قال :

— إنه رجل يخنى أمراً شديداً الوطأة على ضميره .

ورفع الطبيب كتفيه باستخفاف ، فقد كانت هناك مسائل أخرى أكثر أهمية — على حد تعبير ضابط الشرطة — وفى فترة ما بعد الظهر اجتمع ريو بكاستل ، ولم تكن الأمصال قد وصلت ، فسأله ريو :

— ولكن هل ستكون هذه الأمصال ذات جدوى ؟ إن

الميكروب غريب .

وأجاب كاستل :

— أوه ! إننى أخالفك فى هذا الرأى ؛ فهذه الحيوانات تبدو غريبة ،

ولكنها كلها ذات عنصر واحد فى جوهر الأمر .

— هذا محض افتراض ، ولكننا فى الواقع لا نعرف عنها شيئاً .

— إنه بكل تأكيد محض افتراض ، ولكن الناس جميعاً يفترضونه .

وظل الطبيب يشعر طيلة ذلك اليوم بأن الدور الخفيف الذى ينتابه كلما فكر فى الطاعون يزداد حدة ، وأخيراً أدرك أنه خائف ، فدخل مرتين لإحدى المقاهى التى تعج بالناس ، فقد كان يشعر — مثل كوتار —

بالحاجة إلى الاقتراب من الناس ، والشعور بدفئتهم البشرى ، وكان ريو
يمجد أن هذا نوع من الغباء ، ولكنه كان يساعده على ألا ينسى أنه وعد
المندوب بالزيارة .

وفي المساء وجد الطبيب كوتار أمام مائدة طعامه ، ولاحظ عند
دخوله وجود قصة بوليسية على المائدة ، ولكن المساء كان يتقدم ، وقد
غدا من المسير متابعة القراءة وسط الظلام المتكاثف ، فلا بد أنه
كان قد بدأ منذ لحظة يستسلم لتأملانه في الضوء الخافت ، وسأله ريو
عن حاله ، فأجاب بلسان يتلعثم — وهو يجلس — بأن حاله على ما يرام،
ويمكن أن يستمر كذلك لو تأكد من أن أحداً لم يعد يهتم به .

ورد عليه ريو : بأن المرء لا يمكنه أن يعيش دائماً بمفرده ،
فقال كوتار :

— ليس هذا ما أعنى ، إنى أتحدث عن أولئك الذين يفكرون
فيك ليسيتوا إليك .

ولم يجب ريو بشيء ، فتابع كوتار كلامه قائلاً :

— تأكد جيداً أن حالتى ليست من هذا النوع ، فقد كنت أقرأ
هذه القصة . . لأنها تدور حول شخص بأش قبضوا عليه ذات صباح
دون سابق إنذار ، كان هناك من يهتم بأمره دون أن يدري ، كانوا
يتكلمون عنه فى المكاتب ، ويسجلون اسمه على الجوازات ، أظن أن
هذا عدل ؟ أظن أن من حقهم أن يتصرفوا هذا التصرف مع إنسان ؟

فقال ريو :

— الأمر يتوقف على أشياء كثيرة ؛ فلو نظرنا له من إحدى
نواحيه ، لوجدنا أنه لا يملك أحد هذا الحق إطلاقا ، ولكن كل هذه
أمور ثانوية ، ولا ينبغي أن تسرف — هكذا — في حبس نفسك ،
بل يجب عليك أن تخرج .

فبدأ الامتناع على كوتار ، وقال : إنه لا يفعل إلا هذا ، ومن
الممكن أن يشهد له الحي بأجره ، بل إن المعارف لا تنقصه حتى خارج
الحي ، ثم تسام :

— أتعرف السيد ريجو المهندس ؟ إنه من أصدقائي .

وخيم الظلام على الغرفة أكثر من ذي قبل ، وازدحم شارع الضاحية ، ثم رنت صيحة ارتياح وتحية لحظة إضاءة المصابيح ، وتوجه ريو إلى الشرفة ، وتبعه كوتار . وكما يحدث كل مساء في مدينتنا ، هبت من الأحياء المحيطة نسمة خفيفة تحمل أصواتا هامسة ، ورائحة اللحم المشوى ، وذلك الطنين المرح الشذى ، طنين الحرية الذى يعم الشارع — بالتدريج — بعد أن يغص بالشباب الصاخب المرح .

وكان الليل ، وصيحات السفن البعيدة من مدى البصر ، والطنين الذى ينبعث من البحر ومن الجماهير المتلاطمة ، كانت هذه الساعة — التى يعرفها ريو حق المعرفة ، وكان يجبها فيها مضى — تبدو له الآن خائفة بسبب كل ما كان يعرفه .

وقال لكوتار :

— هل يمكن أن نضىء النور ؟

وعندما أضىء النور أخذ الرجل القصير ينظر إليه بأهدابه الملهتة ، وقال :

— قل لى يا دكتور : لو اتتا بنى المرض ، هل تقبلنى فى قسمك بالمستشفى ؟

— ولم لا ؟

وهنا سأله كوتار عما إذا كان قد حدث من قبل أن قبض على أحد في عيادة أو في مستشفى ، وأجاب ريو بأن ذلك قد حدث ، ولكن كل شيء يتموقف على حالة المريض ، فقال كوتار :

— إنى أثق فيك .

ثم سأله عما إذا كان يقبل أن يوصله إلى المدينة بسيارته .

ولما صاروا في قلب المدينة ، كانت الشوارع أقل ازدحاما ، والأفراد أقل انتشاراً ، وكان بعض الأطفال مازالوا يلعبون أمام أبواب بيوتهم ، وأوقف الطبيب السيارة في المكان الذى طلبه كوتار أمام جمع من هؤلاء الأطفال الذين كانوا يلعبون « الحجلة » ، ويتصايحون ، ولكن كان من بينهم طفل ذو شعر أسود ملزج ومفرق مستقيم ، ووجه قذر ، أخذ يسلط نحو ريو بعض النظرات من عينيه الفاتحتين المخيفتين ، وأشاح الطبيب بنظره عنه ، وعندما نزل كوتار من السيارة صافح الطبيب وهو واقف على الإفريز ، وكان يتكلم بصوت أجش محتبس ، وقد نظر خلفه مرتين أو ثلاث ، وقال :

— إن الناس يتكلمون عن وجود وباء ، هل هذا صحيح

يا دكتور ؟

فقال ريو :

— الناس يتكلمون دائماً ، هذا أمر طبعى .

— عندك حق ، ولكن إذا مات منا عشرة فستكون نهاية العالم ،

وليس هذا هو ما ينبغى لنا .

وكان محرك السيارة يواصل أزيزه ، وقد وضع ريو يده على ضابط السرعة ، ثم نظر من جديد إلى الطفل الذى لم يكن قد كف عن تفحصه بنظراته الهادئة ، ثم حدث فجأة دون مقدمات أن ابتسم له الطفل ابتسامة عريضة .

وقال ريو لسكوتار — وهو يبتسم للطفل — :

— ماذا إذن ينبئ لنا ؟

وتشبت سكوتار بباب السيارة ، وصاح بصوت ملىء بالدموع والهلح قائلًا قبل أن ينصرف :

— زلزال ، زلزال حقيقى .

ولم يحدث زلزال ، ومر اليوم التالى على ريو ، وهو يذرع أركان المدينة الأربعة ، ويتفاوض مع أسر المرضى ، بل يناقش المرضى أنفسهم ، ولم يشعر يوماً بثقل مهنته كما شعر بها هذا اليوم ، كان المرضى — حتى الآن — يسهلون له مهمته ، كانوا يركنون إليه ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يجدهم فيها الطبيب مترددين . منطوين على مرضهم بنوع من الدهشة المصحوبة بالرغبة . ولم يكن الطبيب قد اعتاد بعد هذا النوع من الكفاح . وفى نحو الساعة العاشرة مساءً أوقف سيارته أمام باب المعجوز المريض بالربو ، والذى كان آخر من يزوره ، وهناك يستطيع ريو أن ينتزع نفسه من مقعده إلا بمشقة كبيرة ، وقد تباطأ فى الدخول متشاعلاً برؤية الشارع المظلم ، والنجوم التى تظهر وتختفى على صفحة السماء المظلمة ، وكان المريض الهرم جالساً فى سريره ، ويبدو عليه

أنه يتنفس بأسهل من ذى قبل ، وقد شغل نفسه بعد حبات البازلاء
التي راح ينقلها من قدر إلى آخر ، واستقبل الطبيب هاشا ، ثم سأله :

— هل هى الكوليرا يا دكتور ؟

— من قال لك هذا ؟

— الجريدة ، والراديو أيضاً أذاع هذا النبأ .

— لا ، ليست الكوليرا !

فقال العجوز باضطراب متزايد :

— مهما يكن الأمر فإن آلامهم هائلة ، هؤلاء المرضى !

وأجاب الطبيب :

— لا تصدق ما يقال .

ولما انتهى ريو من فحص المريض جلس وسط قاعة الطعام البادية
الفقر . نعم . لقد كان خائفاً ؛ فهو يعلم أنه يوجد فى هذا الحى نفسه
نحو عشرة من المرضى الذين ينتظرون زيارته فى صباح اليوم التالى ، وقد
انحنوا على ما بهم من عقد وأورام ؛ وقد أتى شق الأورام ببعض النتائج
الطبية فى حالتين ، أو ثلاث حالات فقط ، ولكن لم يكن هناك حل آخر
فى معظم الحالات غير المستشفى ، وكان يعرف ماذا يعنى المستشفى بالنسبة
للفقراء ، فقد قالت له زوجة أحد الرضى : « لا أريد أن يكون موضعاً
لتجارهم » . نعم ، لن يكون موضعاً لتجارهم ، ولكنه سيموت ، هذا
هو كل ما هنالك ، ذلك أن الإجراءات التى اتخذت لم تكن كافية ، وقد
كان ذلك أمراً واضحاً كل الوضوح ، أما عن القاعات التى قالوا عنها :

لأنها دجهزت تجهيزاً خاصاً ، فقد كان يعرف كل شىء عنها : إنها تنحصر في جناحين أخرج منهما المرضى السابقون بسرعة ، وسدت نوافذهما ، وأحيطا بنطاق وقائي ، وإذا لم يتوقف الوباء من تلقاء نفسه ، فإنه ان يكون لهذه الإجراءات التي تخيلتها الإدارة أى أثر في قهره .

وقد ظلت البلاغات الرسمية متفائلة حتى المساء ، وفي صباح اليوم التالي أعلنت وكالة د رانسدوك ، : أن الإجراءات التي اتخذتها المديرية قد تلقاها الناس بحسن فهم ، وأن ثلاثين حالة جديدة من حالات المرض قد ظهرت ، وتحدث كاستل إلى ريو في التليفون سائلا :

— كم سريراً يوجد بجناحي المستشفى ؟

— ثمانون .

— وهناك في المدينة أكثر من ثلاثين مريضاً بطبيعة الحال ؟

— هناك أولئك الذين يتسلطهم الخوف ، أما الباقون — وهم إلا أكثر عدداً — فلم يمهلهم المرض .

— وعمليات الدفن ؟ أليست موضوعة تحت الرقابة ؟

— كلا ، وقد كلمت ريشار في التليفون ، وأفهمته أنه لا بد من اتخاذ إجراءات كاملة ، بدلا من الجمل الفارغة ، وأنه يجب أن تقيم سداً منيعاً ضد المرض ، وإلا فلا فائدة من فعل أى شىء .

— وبعد ؟

— أجبني بأنه لا يملك السلطة ، وفي رأي أن العدد سيستمر في الصعود .

وفعلًا لم تمر ثلاثة أيام حتى امتلأ الجناحان ، وكان ريشار يشيع أنه سيخلي إحدى المدارس ، وتحول إلى مستشفى مساعد ، وظل ريو ينتظر وصول المصل ، ويشق العقد والأورام ، وعاد كاستل إلى كتبه القديمة ، وظل يوالى زياراته الطويلة للكتابة .

وأنهى كاستل محادثته قائلا :

— لقد ماتت الفئران بالطاعون — أو بشئ ما يشبهه كثير الشبه — وقد كانت السبب في انتشار عشرات الألوف من البراغيث التي ستنتشر العدوى بطريقة حسابية واضحة إذا لم توقف في الوقت المناسب .
وهنا لاذ ريو بالصمت .

وفي هذه الفترة كان يبدو الوقت وكأنه قد استقر ، وامتصت الشمس مياه البرك الصغيرة التي تركها وابل آخر الفصل ، وكان كل ما في هذا الموسم يدعو إلى البهجة ، من السماء الزرقاء الجميلة التي تفيض بالضياء الصفراء ، وأزيز الطائرات ، والدفع . ومع ذلك فقد قفزت الحى في ظرف أربعة أيام أربع قفزات مثيرة للدهشة : ستة أموات ثم أربعة وعشرون ميتاً ، ثم ثمانية وعشرون ، ثم اثنان وثلاثون . وفي اليوم الرابع أعلن عن افتتاح المستشفى المساعد في إحدى مدارس الحضانة ، وبدأ مواطنونا في الشوارع أكثر انهياراً وأشد صمتاً ، وقد كانوا — حتى هذه اللحظة — يخفون قلقهم تحت ستار من الدعايات .

وقرر ريو أن يتحدث إلى المدير بالتليفون ، فقال له :

— إن الإجراءات ليست كافية .

— الأرقام تحت يدى ، وهى حقاً مثيرة للقلق .

— إنها أكثر من مشيرة للقلق ، إنها واضحة .

— سأطلب أوامر من الحكومة العامة .

ورضع ديو الساعة ، وكان ذلك في حضرة كاستل الذى عقب بقوله :

— أوامر ! إن الأمر يحتاج لكثير من الخيال .

— والأمصال ؟

— سوف تصل في خلال هذا الأسبوع .

وطلبت المديرية — عن طريق إيشار — من ديو أن يعد تقريراً يرسل إلى عاصمة المستعمرة لاستعمال الأوامر ، وقد سجل فيه ديو وصفاً لكلينيكياً للبرص معزاً بالأرقام ، وفي اليوم التالى بلغ عدد الوفيات أربعين حالة ، وأخذ المدير على عاتقه — كما قال — مسئولية اتخاذ الإجراءات المقررة ابتداء من اليوم التالى ، وصدرت الأوامر بأن يبلغ المرضى عن أنفسهم ، وأن يعزلوا ، أما منازل المرضى فتغلق ، وتطهر . ويفرض الحجر الصحى على أقاربهم للوقاية ، وتقرر أن تتولى إدارة المدينة مسائل الدفن بالشروط التى تراها ، وبعد يوم واحد وصلت الأمصال بالطائرة ، وكانت هذه الأمصال تكفى للبحالات التى كانت تمحى العلاج ، ولكنها لم تكن تكفى فى حالة انتشار المرض .

وكان الرد الذى تلقاه ديو على برقيته : أن الكميات المخزونة قد نفدت ، وقد بدى فى إنتاج كميات أخرى .

في هذا الوقت هم الربيع — القادم من جميع الضواحي المحيطة — كل أسواق المدينة ، وكانت آلاف الورد تذبل في سلال الباعة على طول الأرصفة ، فينتشر رائحتها السكرى في أرجاء المدينة ؛ كانت المدينة تبدو — في ظاهر الأمر — وكأن شيئاً لم يتغير فيها ؛ كانت عربات الترام تنحصر بالركاب في أول النهار كالمعتاد ، أما خلال النهار فكانت خاوية بادية القذارة ، وظل تارو يراقب العجوز القصير ، كما ظل هذا العجوز يصبق على القعاط ، واستمر جران يعود إلى بيته كل مساء ، فينسكب على عمله الغامض ، كما ظل كوتار يلف ويدور في المدينة ، والسيد أوتون — قاضى التحقيق — يواظب على إدارة شئون بيته . أما العجوز المريض بالربو فقد ظل هو الآخر ينقل البازل من قدر إلى آخر ، كما كان الصحنى رامبير يشاهد من حين لآخر في هدوئه واهتمامه المعتادين .

وفي المساء كانت الجموع نفسها تملأ الشوارع ، والصفوف تطول أمام دور السينما ، وبدأ أن الوباء أخذ في التراجع ، فقد مرت بضعة أيام لم تقع فيها سوى نحو عشر وفيات ، ثم فجأة ارتفع الرقم كالسهم ، وفي اليوم الذى عاد فيه عدد الوفيات إلى ثلاثين من جديد ، كان ريو ينظر إلى البرقية الرسمية التى قدمها له المدير قائلاً :

« إنهم خائفون » أما البرقية نفسها فكان نصها :

« أعلن عن وجود وباء الطاعون ، وأغلق المدينة » .

يمكننا أن نقول : إن الطاعون أصبح شغلنا الشاغل جميعاً منذ تلك اللحظة ؛ فالذى حدث حتى الآن — رغم الدهشة والقلق اللذين نتجاً عن هذه الأحداث الشاذة — أن كل واحد من مواطنينا قد استمر في مشاغله الخاصة ، منهمكا فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلا دون أن يغادر مكانه ، وكان هذا بلا شك هو ما ينبغي أن يكون، ولكن ما أن أغلقت الأبواب حتى لاحظ الناس — بما فيهم الراوى — أنهم قد أصبحوا جميعاً في الهم سواء ، وأن عليهم أن يتدبروا أمرهم ، وهكذا أصبح الشعور الغالب على شعب بأسره — منذ الأسابيع الأولى — هو شعور الفراق بين شخصين متحابين فضلا عن شعور الخوف ، ذلك العذاب الأساسى الذى قاسى منه الشعب أثناء هذا المنفى الطويل الأمد .

والواقع أن أخطر نتيجة ترتبت على إغلاق أبواب المدينة كانت ذلك الفراق المفاجئ الذى فرض على أناس لم يكونوا قد أخذوا له أهيمته ، فافترقت أمهات عن أطفالهن ، وزوجات عن أزواجهن ، وعشاق كانوا قد ظنوا لدى فراقهم منذ أيام أنه فراق مؤقت ، وراحوا يتبادلون العناق على أرصفة المحطة ، وكل منهم يوجه التوصيات إلى صاحبه ، وكلهم ثقة فى أن شملهم سيجتمع بعد بضعة أيام ، أو بضعة أسابيع على الأكثر . لقد غرق هؤلاء العشاق فى تلك الثقة الإنسانية الغافلة التى لم

تكن مشاغلهم العادية تلهيهم عنها ، حتى وجدوا أنفسهم وقد ضرب بينهم
الفراق بسور منيع حرمهم حتى من إمكان التراسل ؛ وقد كان ذلك لأن
إخلاق المدينة قد حدث قبل أن يعلن قرار المديرية ببضع ساعات ،
وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن أن تكون هذه الحالات الشخصية محل
تقدير ، ويمكننا أن نقول : إن أول أثر تلقاء المواطنين من هذا المرض
الذي اجتاحت المدينة اجتياحاً عنيفاً ينحصر في أنه اضطرهم إلى تناسي
عواطفهم الشخصية ، وأن يتصرفوا كما لو كانوا خلوا من العواطف ،
وعندما وضع قرار المديرية موضع التنفيذ في الساعات الأولى من ذلك
اليوم ، انهار على المديرية وابل من الطلبات التليفونية والكتابية موجهة
إلى الموظفين ، يعرض فيها أصحابها حالات ومواقف تستحق الاهتمام ،
ولكنها أيضاً مستحيلة التنفيذ ؛ ذلك أنه كان لابد من مرور أيام
عديدة حتى يدرك الناس أنهم في موقف لا سابقة له ، وأن كليات والخروج
عن القاعدة ، و د المجاملة ، و د الاستثناء ، لم تعد ذات معنى .

أقد حرمنا حتى من تلك المتعة البسيطة التي نجدها في الكتابة ؛ فلم تعد
المدينة ترتبط ببقية أجزاء البلد بوسائل المواصلات العادية ، هذا إلى
أنه كان قد صدر قرار جديد يحرم جميع أنواع المراسلات حتى لا تكون
الخطابات وسيلة لنشر العدوى ، وقد حدث في بادئ الأمر أن تمكن
بعض أصحاب الخطوة من الاتفاق مع دوريات الحراسة المراقبة على
أبواب المدينة على حمل رسائلهم إلى خارجها ، حدث هذا في الأيام الأولى من
إعلان الوباء عندما كان الحراس لا يزالون يعتبرون الرضوخ لشعور
الشفقة أمراً طبيعياً ، ولكن ما أن مضى بعض الوقت ، حتى اقتنع

هؤلاء الحراس أنفسهم بخطورة الموقف ، فأحجموا عن تحمل تبعات
لا يستطيعون أن يتنبأوا بمداها .

أما الاتصالات التليفونية بالمدن الأخرى التي كان قد صرح بها في
أول الأمر ، فقد أحدثت تزاخماً شديداً في المكاتب العامة على الخطوط
دفَعَ القائمين بالأمر إلى إيقافها لبضعة أيام ، ثم إلى حصرها حصراً شديداً
فيما سموه بحالات الضرورة القصوى : كحالات الوفاة، والولادة، والزواج،
ولم تبق لنا من وسيلة سوى البرقيات . وهكذا اضطر الناس الذين
ترابطهم بعضهم ببعض صلات العقل والقلب والدم أن يبحثوا عن دلائل
هذه الصلات القديمة بين حروف برفقية من بضع كلمات ، ولما كان من شأن
الصيغ التي نستعملها في البرقيات أنها محدودة وسريعا ما تستنفد ، فقد
أصبحت ضروب الحياة الطويلة المشتركة ، ولهيبة العواطف الحارقة تضغط
بسرعة في قوالب جاهزة يتبادلها الناس بانتظام مثل : دلي بخير . فكري
في نفسك . خناني ، .

وبالرغم من ذلك فقد أصر بعضنا على الكتابة ، وأعملوا فكرهم
بلا هوادة من أجل الاتصال بالخارج بوسائل كان يتضح في النهاية أنها
وهيئة ، ومع ذلك فقد نجحت بعض هذه الوسائل التي تخيلناها دون أن
تدري شيئا عن نجاحها ؛ لأننا لم تتلق عنها رداً ، وظللنا أساييع بطولها
نضطر إلى نسخ الخطابات نفسها ، وإعادة المعلومات نفسها ، وإصدار
التدعاءات نفسها إلى حد أنه لم يمر بعض الوقت حتى أصبحت تلك الكلمات
التي كانت تخرج من قلوبنا مخضبة بالدم خاوية من كل معنى ؛ فقد كنا نعيد
كتابتها بطريقة آلية محاولين أن نجعل من هذه الجمل الميتة علامات

لصعوبة حياتنا ، وفي النهاية وجدنا أن نداء البرق التقليدي أفضل من هذه الاسطوانة القديمة الملحة ، ومن ذلك الحديث الصلد مع الجدران .

ولم تمر إلا أيام حتى تأكد الناس أنه لن يخرج من المدينة أحد ، فخطر للبعض أن يسأل عما إذا كان يمكن التصريح بعودة أولئك الذين خرجوا من المدينة قبل الوباء . وبعد بضعة أيام من التفكير ، أجابت المديرية بالإيجاب ، ولكنها أوضحت أنه لن يصرح بأى حال لمن يعودون إلى المدينة بالخروج منها مرة ثانية ، وأنه إذا كان لهم حرية العودة إلى المدينة فلن يكون لهم الحق في مبارحتها مرة ثانية ، وهنا قام عدد من الأسر — وإن كان عدداً ضئيلاً — باتخاذ قرار متسرع لاروية فيه ، وفضلت رغباتها في رؤية أقاربها على تركهم في منجى من الخطر ، ودعت هؤلاء الأقارب إلى الاستفادة من تلك الفرصة ، ولكن سرعان ما أدرك سجينو الطاعون مدى الخطر الذى يعرضون له ذوى قرباهم ، فتحملوا آلام الفراق صاغرين . ولكن حدث عندما وصل المرض إلى أعلى مراحل خطورته أن تغلبت المشاعر الإنسانية في إحدى الحالات على الخوف من الموت ، وما يصحبه من آلام ، ولم تكن تلك — كما قد يتبادر إلى الذهن — حالة عاشقين دفعهما الحب أحدهما نحو الآخر عبر الآلام والأخطار ، ولكنها كانت حالة الطبيب المعجوز كاستل وزوجته اللذين كانا قد تزوجا منذ سنين عديدة ، وذلك أن مدام كاستل كانت قد توجهت إلى مدينة مجاورة قبل الوباء بأيام قلائل ، والواقع أن هذين الزوجين لم يكونا من الأزواج الذين يضرب بهم المثل في السعادة ، بل وفي وسع الراوى أن يؤكد — استناداً على ما توحى به جميع الظواهر — أن

هذين الزوجين لم يكونا — حتى هذه اللحظة — متأكدين من رضائهما عن زواجهما ، غير أن الفراق المفاجيء العنيف الطويل الأمد برهن لهما على أنهما لا يطيعان العيش أحدهما بعيداً عن الآخر ، وإزاء هذه الحقيقة — التي انكشفت لهما فجأة بكل وضوح وجلاء — أصبح الطاعون في نظرهما أمراً غير ذى بال .

كانت هذه حالة استثنائية ، أما في غيرها من الحالات ، فقد كان مما لاشك فيه أن الفراق لن ينتهى إلا بنهاية الوباء ، وهكذا رأينا المشاعر التي كانت تملأ حياتنا ، والتي كنا مع ذلك نعتقد أننا نعرفها جيداً (فقد ذكرنا أن عواطف سكان وهران تتسم بالبساطة) ، نقول : رأينا هذه المشاعر تلبس لباساً جديداً ، فاكتشف الكثير من الأزواج والعشاق — الذين كانوا يضعون في صوابهم كل ثقتهم — أنهم غيرون ، ومن الناس من كانوا ينظرون إلى حبهم بعين الريبة ، فاكتشفوا أنه ثابت كالطود ، وهناك أبناء كانوا يعيشون إلى جوار أمهاتهم دون أن يمنحوهن نظرة واحدة من نظرانهم ، فأصبحوا ينوون بالطلاق والأسف كلما لاحظ الحنانهم تجمعية واحدة من تجماعيد وجوههم ، وهكذا رأينا أن هذا الفراق المفاجيء القاسى — الذى انقطع عن الماضى ، ولم يكن له مستقبل يمكن التسكّن به — قد تركنا حائرين عاجزين عن مقاومة الذكرى ... تلك الذكرى القريبة البعيدة في آن واحد ، والتي أصبحت الآن كل ما يملأ أيامنا ، فكنا في حقيقة الأمر تتألم مرتين : مرة من آلامنا نحن ، ومرة أخرى للآلام التي نتوهمها للأعزاء الغائبين ، سواء أكانوا أبناء ، أم زوجات ، أم عشيقات .

والحقيقة أنه لو كان مواطنونا في ظروف أخرى لوجدوا لأنفسهم مخرجاً في حياة أقل أنطواء ، وأكثر نشاطاً ، ولكن الطاعون تركهم بلا عمل ، واضطربهم لقضاء وقتهم في التجوال حول المدينة الحزينة ، بينما راح استسلامهم للحنين الذكريات يزداد يوماً بعد يوم ؛ ذلك أنهم كانوا في جولاتهم — التي لا غاية لها — يعمرون دائماً بنفس الطرقات ، وهي في مدينة صغيرة كهذه لا يمكن أن تكون إلا تلك الطرقات ذاتها التي كانوا يذرعونها مع أعزائهم الغائبين .

وهكذا كان النفي أول شيء جاء به الطاعون لمواطنينا ، ويعتقد الراوى أنه يستطيع هنا أن يعبر — باسم الجميع — عما عاناه في ذلك الحين ؛ إذ أن الكثيرين من مواطنينا قد عانوه معنا في نفس الوقت ، لأنه لم يكن إلا الشعور بالنفي ، ذلك الشعور بالفراغ الذي كنا نحمله دائماً في نفوسنا ، ذلك التأثر المحدد ، تلك الرغبة الجامحة في الرجوع إلى الورداء ، أو — على العكس من ذلك — في حث خطى الزمن ، تلك السهام المحرقة ، سهام الذكرى ، وإذا كان يتأتى لنا في بعض الأحيان أن نندساق وراء الأوهام ، ونعسل أنفسنا بانتظار دقة جرس عودة الغائب ، أو وقع خطى مألوفة لنا على السلم ، وإذا كان يتأتى لنا في هذه الأحيان أن ننسى أن القطارات متوقفة عن المسير ، وإذا كان يتأتى لنا أن نرتب أمورنا على أن نتظر في بيتنا في الساعة التي يعود فيها المسافر الذي وصل بالقطار السريع إلى حيننا في الأحوال العادية ، فإن هذا العبث لم يكن ليندوم بطبيعة الحال ؛ فلم يكن هناك يد من حاول اللحظة التي نلبس فيها جيداً أن القطارات لا تأتي ، وحينئذ كنا ندرك تمام الإدراك أن فراقنا قد قدر له

الدوام ، وأنه يتحتم علينا أن نحاول اعتياد هذا الأمر مع مرور الوقت ،
وحينئذ كنا نعود إلى حالة السجناء التي قدرت علينا ، فلم يكن لنا مناص
من أن نعيش في ماضيها ، ولو تأني لأحدنا أن يحاول العيش في المستقبل
لعدل عن ذلك إذا استطاع ؛ إذ أنه يشعر حينئذ بآلام الجراح التي يرى
بها الخيال — في نهاية المطاف — أولئك الذين يثقون فيه .

وسرعان ما حرّم المواطنون على أنفسهم — بصفة خاصة ، وحتى
في مجالسهم العامة — تلك العادة التي كانوا قد اكتسبوها وهي تحديد
مدة الفراق ، لماذا ؟ ذلك لأنه إذا كان أكثر الناس تشاؤماً قد حددوها
بسته أشهر ، وتجرعوا سلفاً كل ما في هذه الأشهر القادمة من مرارة ،
وعملوا كل جهدهم في رفع قوتهم المعنوية إلى مستوى هذه التجربة ، وبذلوا
قصاراهم لكي يحفظوا بقايا قواهم من أن يدركوا الوهن قبل نهاية فترة
العذاب الممتدة على مدى واسع من الأيام المتتالية ، فقد كان يحدث أن
يوحى إليهم صديق عابر ، أو إعلان في جريدة ، أو مجرد ظن طارئ ،
أو حيلة مفاجئة بأنه ليس هناك ما يؤكد أن المرض لن يستمر
أكثر من ستة أشهر ، بل قد يمتد إلى سنة ، أو ربما إلى أكثر
من سنة .

وحينئذ كانت تنهار شجاعتهم ، وتخمد إرادتهم ، ويعيل صبرهم
— بشكل مفاجئ — إلى حد يصور لهم أنه لا يخرج لهم من هذه الهوة ؛
ولهذا فرضوا على أنفسهم ألا يفكروا أبداً في وقت الخلاص ،
ألا يلتفتوا أبداً إلى المستقبل ، أي أن يغمضوا دائماً من أبصارهم ،

واسكن هذا الحذر ، وهذه الطريقة للتعايل على الألم ، طريقة إغلاق الأبواب هرباً من المعركة ، كانت تلقى شر الجزاء بطبيعة الحال ؛ ففي نفس الوقت الذى كانوا يتجنبون فيه الوقوع فى هذا الانهيار بأى ثمن ، كانوا يحرمون أنفسهم حقاً من تلك اللحظات السعيدة التى كانوا يستطيعون فيها أن ينسوا الطاعون فى غمرة الصورة الخيالية التى يرسمونها للقائم فى المستقبل .

وهكذا أصبحوا معلقين وسط المسافة بين هذه الهوات وتلك القمم ، أصبحوا يتسلاطمون أكثر مما يعيشون ، ولا ملجأ لهم إلا أيام لا وجهة لها ، وذكريات قاحلة ، وظلال هائمة . لم تكن لتقوى على البقاء لو لم تنشب جذورها فى أرض آلامهم .

وهكذا كانوا يشعرون بما يشعر به جميع المسجونين وجميع المنفيين من عذاب ، عذاب من لهم ذاكرة لا فائدة منها ، بل إن هذا الماضى نفسه — الذى ما فتئوا يذكرونه — لم يكن لمذاقه من طعم سوى المرارة ، وكم ودوا لو استطاعوا أن يضيفوا إليه كل ما يأسفون لعدم حدوثه بينهم وبين من ينتظرون عندما كان الممكن أن يحدث ، كما أنهم كانوا يربطون الغائب بجميع الظروف التى تمر بهم فى حياة السجن التى كانوا يحبونها . حتى بما كان منها يقسم بسعادة نسبية ، ولم تكن حالتهم حينئذ بالتي يمكنهم أن يرضوا عنها ، فقد كانوا متبرمين بحاضرهم ، أعداء لماضيهم ، محرومين من مستقبلهم .

وهكذا كننا نشبه أولئك الذين وضعتهم العدالة أو الأحقاد البشرية وراء القضبان ، ولم يكن هناك مهرب من هذا الفراغ غير المحتمل إلا فى

إعادة سير القطارات في خيالنا ، وملء أوقاتنا برنين متتابع لأجراس أبوابنا ، تلك الأجراس التي كانت تصر على الصمت ، ولكن إذا كان الناس يشعرون بالمتنى ، فإن منغهم كان فى بلدهم فى أغلب الأحيان ، ورغم أن الراوى لم يعرف إلا هذا النوع من المتنى ، فإنه لا يصح له أن ينسى أولئك الذين اتسع نطاق آلام الفراق بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا على سفر وفاجأهم الطاعون فى المدينة واحتجزهم فيها ، فحرموا فى آن واحد من يحبون ، ومن بلدهم الذى استحال عليهم أن يعودوا إليه ، وذلك كما حدث للصحفى رامبير وغيره ، وهكذا كان هؤلاء فى وسط ذلك المتنى العام أكثر من غيرهم إيفالاً فى المتنى ؛ لأنه إذا كان الوقت يجعلهم كغيرهم نبأ للقلق الذى هو من خصائصه ، فإنهم فوق ذلك مرتبطون بفكرة المكان ، وكانوا يصطدمون — دون توقف — بذلك الجدار الذى يفصل بين الممر المزبوء الذى فرض عليهم ، وبين وطنهم الذى ضاع منهم ، فأغلب الظن أنهم هم الذين كانوا يرون هائمين على وجوههم فى كل ساعات النهار فى المدينة المغربة ، يدعون — فى صمت — ذكرى الأمسيات التى عرفوها وحدهم ، وينادون أصبحت بلادهم المنعشة ، لقد كانوا حينئذ يغذون نار ألمهم بتأويل علامات غير محسوسة ، وإرهاصات محيرة : كمرور الطير فى سماء المدينة ، أو ندى الغروب ، أو تلك الأشعة الغريبة التى تنساها الشمس أحياناً فى الشوارع المقفرة . أما هذا العالم الخارجى الذى فى مقدوره دائماً أن ينقذ الناس من كل شئ ، فإنهم يغمضون أعينهم دونه ، مصرين على مداعبة أوهام أكثر من حقيقة ، وعلى أن يظلوا يتابعون — بكل قوتهم — صور أرض يتكون جوها من نوع معين من الضوء ، وتلين

أو ثلاثة ، وشجرة محبة إليهم ، وبعض وجوه نسائية معينة ، ومثل هذا الجو لم يكونوا ليرضوا عنه بديلاً .

وإذا كان لنا أن نخص العشاق بحديثنا — وهم أكثر الناس إثارة لاهتمامنا كما أن الراوى أقدر على الحديث عنهم أكثر من غيرهم — فإنهم كانوا نهياً لأنواع أخرى من العذاب ، ومن بينها تأنيب الضمير ، فقد سمح لهم هذا المرقف الجديد بأن ينظروا إلى عاهلتهم بنوع من الموضوعية المحمومة ، وقد كان من النادر في هذه المناسبات ألا يظهر لهم ضعفهم الشخصى بوضوح ، وأولى المناسبات التى ظهر لهم فيها هذا الضعف هى الصعوبة التى كانوا يجدونها فى أن يستعيدوا فى خيالهم حركات الغائب وتصرفاته ، فيلومون أنفسهم على جهلهم بالطريقة التى ينظم بها هذا المحبوب وقته ، ويتهمون أنفسهم بالاستهتار ، لأنهم قصروا فى معرفة تلك الطريقة ، وزعموا — نقاشاً — أنها ليست المنسب الذى يجد فيه الحب سعادته ، وحينئذ كانوا لا يلبثون أن يستعيدوا فى أذهانهم قصة حبهم بكل سهولة ، ويتفحصوا نقائصهم ، وبما لا شك فيه أننا كنا كلنا — فى الظروف العادية — نعرف ، عن شعور أو عن غير شعور ، أنه لا يوجد حب لا يمكن له أن يتفوق على نفسه ، ومع ذلك فقد كنا نقبل مطمئنين أن يظل حبنا حباً صغيراً ، ولكن الذكرى أكثر إلحاحاً من الواقع ، فأصبحنا نذكر — بصورة منطقية — أن تلك المصيبة التى نزلت علينا من الخارج ، والتى رزئت بها مدينة بأسرها ، لم تقتصر على إشعارنا بأنها لم تحمل إلينا إلا آلاماً غير عادلة ، فتشير فى نفوسنا السخط عليها ، بل لقد دفعتنا أيضاً إلى أن نتألم من أنفسنا ، ومن ثم

اضطرتنا إلى قبول آلامنا ، وكانت هذه إحدى طرق المرض لكي يحول عنه أنظارنا ، ويجعل الأمور تختلط في أذهاننا .

وهكذا اضطر كل منا إلى أن يعيش ليومه ، وفي وحدة تامة تجاه السماء . وكان من شأن هذا الاستسلام العام الذي لم يكن منه بد أن يؤثر على أخلاق الناس مع طول الوقت ، وكانت أول مظاهر هذا التأثير اتجاه الأخلاق نحو التقافة ، ففرض بعض مواطنينا مثلاً على أنفسهم نوعاً آخر من العبودية ، سخرهم في خدمة الشمس والمطر ، فكان يبدو لمن يراهم أنهم يتلقون تأثيرات الطقس لأول مرة ، وبطريقة مباشرة ، فكانت وجوههم تبدو مستنيرة لدى أول شعاع ذهبي يقع عليهم ، بينما كانت تكفهم وجوههم — وكذلك أفكارهم — في أيام المطر .

لقد كانوا منذ بضعة أسابيع لا يعرفون هذا النوع من الضعف ، ولا تلك العبودية الهوجاء ؛ لأنهم لم يكونوا وحيدين في مواجهة العالم ، ولأن الكائن الذي كان يعيش معهم كان يحول — بطريقة ما — بينهم وبين الكون ، ولكن الأمور انعكست بالنسبة لهم ابتداء من تلك اللحظة ، فتفرقوا لدراسة نزوات السماء ، ومعنى ذلك أنهم كانوا يأملون ويأملون دون سبب .

وهكذا بلغ شعورهم بالوحدة أقصى حدوده ، فلم يكن لأحد أن يرجو العون من جاره ، وعاش كل منا وحيداً مع مشاغله الخاصة ، ولو حاول أحدها مرة أن يسر بما في نفسه ، أو أن يقول شيئاً عن شعوره ، لما تلقى إلا جواباً جارحاً ، فكان سرهان ما يدرك أنه هو ومخاطبه

لا يتكلمان في موضوع واحد ؛ أما هو فيعبر عما اختمر في أعماق الليالي الطوال من آلام ، فكانت الصورة التي أراد أن يطلع محدثه عليها قد فضجت ، وتم فضجها في نار الانتظار والحب ، وأما الآخر فكان على العكس من ذلك يتصور أنه أمام عاطفة من العواطف المتواضع عليها ، وألم من تلك الآلام التي تباع في الأسواق ، واكتئاب من ذلك الذي يصنع بالجملة ، ولذلك كان الجواب دائماً زائفاً ، وبما يحسن العدول عنه ، سواء أكان ودياً أم عدائياً . وأما أولئك الذين لا يطيقون الصمت فكانوا حين يرون أن الآخرين لا يعرفون لغة القلب الحقيقية ، يضطرون إلى أن يستعملوا أيضاً لغة السوق ، ويتكلموا بالطريقة التي جرى عليها العرف عن العلاقات البسيطة ، والأحداث الثقافية ، وبالاختصار عن أحداث الحياة اليومية الريفية ، وهنا أيضاً كان لابد لأكثر الآلام صدقا أن تترجم عن نفسها ، في تلك القوالب المصنوعة ، قوالب المحادثات المبتذلة . كان هذا هو الثمن الذي يدفعه سجينو الطاعون ؛ لكي يكسبوا عطف وإيثارهم ، أو لصغاء من يستمعون إليهم .

ولكن ما هو أهم من كل ذلك أن سجناء الطاعون هؤلاء كانوا يعتبرون من المجدودين في الفترة الأولى من سجنهم ، مهما كانت شدة الآلام التي يعانونها من قلقهم ، ومهما كان من ثقل الحمل الذي تروح به قلوبهم رغم فراغها ، ففي نفس اللحظة التي بدأ فيها السكان يفقدون رباطة جأشهم كان فكرهم يتجه بكليته نحو الشخص الذي ينتظرونه ، وفي وسط الحزن العام ساعدت أثرة الحب على حمايتهم . وإذا كان الطاعون

قد شغل فكركم ، فما ذلك إلا لأنه كان يخشى أن يعرضهم لفراق
يكون دائماً .

وهكذا كان من شأن ذلك أن يعدم — إبان اشتداد الوباء —
بنوع من انشغال البال ذى تأثير طيب ، لعله كان يؤول بأنه نوع من
رباطة الجأش ؛ فاليأس قد أنقذهم من الهلع ، وكان لنكبتهم آثارها
الطيبة ، ولذلك كان إذا حدث لأحدهم ، مثلاً ، أن اجتاحه المرض ،
لم يكن ليجد لديه من الوقت ما يعينه على التفكير فيه ، فكان إذا انتهى
من هذه النجوى الداخلية الطويلة مع أحد الأطباء رأى نفسه وقد ألقى
به — دون انتظار — إلى سكون الأرض الكشيف .

وبينما كان مواطنونا يحاولون أن يدبروا أمرهم مع هذا المنفى المفاجيء ، كان الطاعون يضع حراساً على الأبواب ، ويحول اتجاه السفن التي كانت تتجه نحو وهران ، ومنذ إغلاق المدينة لم تدخلها عربة واحدة ، وقد خيل للناس — منذ ذلك اليوم — أن السيارات قد أخذت تدور حول نفسها . أما الميناء ، فقد كان منظره هو الآخر غريباً لمن ينظر إليه من أعلى الطرقات ؛ فالزحام المعتاد والذي كان يخلق منه ميناء من أكبر موانئ الشاطئ قد انطفأ بفتة ، وإن كانت بعض السفن المحجوزة للحجر الصحي ما زالت تشاهد فيه ، ولكن بعض الروافع الممجورة ، وهربات القطارات المقلوبة على جانبيها كانت ترى على الأرض صفة إلى جانب أكوام من الدنان أو الأكياس ، كانت تشهد بأن التجارة هي الأخرى قد قتلها الطاعون .

ورغم هذه المشاهد التي لم يعتدها الناس من قبل ، فقد كانت من الصعب على مواطنينا أن يفهموا ما حدث لهم حق الفهم على ما يبدو ، فقد كانوا رغم هذه المشاهد التي عمت — كآلم الفراق والخوف — يستمرون في جعل مشاغلهم الشخصية في المكان الأول من اهتمامهم ؛ وذلك أنه لم يأت لأحد منهم بعد أن يقدر المرض حق قدره ، فما برحت غالبية الناس شديدة الحساسية لكل ما يهرقل عاداتهم ، أو يمس مصالحهم

بوجه خاص . كان ذلك هو الذى يثيرهم ، ويضيقون به ذرعا ، وكان أول رد فعل يصدر عنهم مثلاً ينحصر فى توجيه الانهام إلى إدارة المدينة ، وكان جواب المدير على الانتقادات التى ظهر صداها فى الصحف — من مثل : « ألا يمكن جعل الإجراءات المتخذة أكثر مرونة ؟ » — جواباً غير متوقع ، ففى تلك اللحظة لم تكن الصحف ، ولا وكالة رانسدوك قد تلقت بلاغا رسمياً عن إحصائيات المرض ، فأخذ المدير يبلغها يوماً بيوم إلى الوكالة راجياً إياها أن تنشرها مرة فى الأسبوع .

وهذا أيضاً لم يكن تأثير الإعلان على الناس فورياً ، فقد حصر الإعلان الصادر فى الأسبوع الثالث للمرض عدد الوفيات فى ثلاثمائة واثنتين ، ولكنه فى الواقع لم يتحدث إلى خيال الناس ، فمن جهة ربما لم يكونوا جميعاً قد ماتوا بالطاعون ، ومن جهة أخرى لم يكن أحد فى المدينة يدرى شيئاً عن عدد الذين يموتون كل أسبوع فى الأوقات العادية ، ذلك أن سكان المدينة كانوا يبلغون مائتى ألف نسمة ، ولم يكن الناس يعرفون ما إذا كانت نسبة الوفيات هذه نسبة عادية أم لا ، والواقع أن هذا النوع من الإيضاحات لا يحظى فى العادة بما يستحق من عناية رغم أهميته المؤكدة ، فكان الجمهور ينقصه المعلومات التى تمكنه من عقد المقارنات . ولكن مع مرور الوقت ، واستمرار ازدياد عدد الوفيات ، أدرك الناس الحقيقة ؛ فقد أعلن فى الأسبوع الخامس عن وفاة ثلاثمائة وواحد وعشرين شخصاً ، أصبحوا فى الأسبوع السادس ثلاثمائة وخمسة وأربعين شخصاً ، وكان أقل ما يقال فى هذه الزبادات أنها كانت عذلية فى معناها ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث لا تجعل مواطنينا يغيرون رأيهم

في الموقف ، وهو أمر خطير مقلق بما لا يدع مجالاً للشك ، ولكنه مؤقت أولاً وقبل كل شيء .

وهكذا استمر القوم يحوبون الطرقات ، ويجلسون على موائد المقاهي ، إنهم لم يكونوا في مجموعهم من الجبناء ، بل كانوا يتبادلون الدعابات أكثر مما يتبادلون الشكايات ، ويبدون كما لو كانوا يقبلون بصدر رحب تلك المضايقات المؤقتة ، وهكذا ظلت المظاهر كما هي دون اقتضاح ، ولكن حدث في نهاية الشهر ، على وجه التقريب — وخلال أسبوع الصلوات الذي ستحدث عنه فيما بعد — أن وقعت تغييرات أشد خطراً من تلك ، فقلبت مظهر المدينة رأساً على عقب ، وكان أول هذه التغييرات أن المدير قد اتخذ لإجراءات خاصة بالمرور والتموين ، فحدد التموين بالمدينة ، وتقرر أن يكون بيع البنزين بالبطاقات ، بل وأخضع استهلاك الكهرباء نفسه لضروب الاقتصاد والتشف ، ولم تعد تصل إلى وهران سوى المنتجات التي لا غنى عنها ، وكانت هذه تصل إليها عن طريق البر والجو ، وهكذا أخذت حركة المرور تضعف بالتدريج حتى صارت في حكم المندومة ، واضطرت بعض المحال الفاخرة إلى إغلاق أبوابها بين عشية وضحاها ، واضطرت محال أخرى إلى أن تضع على واجهتها لافتات تنفي وجود البضائع فيها ، بينما اصطفت أمام أبوابها صفوف المشتريين .

وهكذا صار منظر وهران غريباً ، فقد ازداد فيها عدد المشاة ، وأصبحت شوارعها تنقص بالمشاة حتى في الساعات التي يخف فيها العمل ، وذلك بعد أن اضطرم إغلاق المحلات ، وبعض المكاتب إلى التعطل ،

ولكنهم حتى في هذه اللحظة لم يكونوا في حالة بطالة ، ولكن في حالة عطلة . وهكذا أصبحت وهران في الساعة الثالثة بعد الظهر ، وفي جو صفت سماؤه ، وازدانت بزرة جميلة ، تبدو كما لو كانت في عيد فأوقف فيها المرور ، وأغلقت المحلات لكي يسمح بمرور موكب عام ، وكما لو كان السكان قد ملئوا الشوارع ليشاركوا في الأفراح العامة ، وكل كان ذلك المنظر خداعاً .

ومن الطبيعي أن تستفيد دور السينما من هذه العطلة العامة ، وأن تحقق ربحاً طائلاً . ولكن ما لبث تداول الأفلام أن توقف ، ولم يمر أسبوعان حتى اضطرت دور العرض إلى تبادل برامجها ، ثم انتهت الدور — بعد وقت قليل — إلى عرض فيلم واحد بصفة مستمرة ، ومع ذلك لم ينقص إيرادها .

أما المقاهي فقد ظلت تلبّي طلبات روادها بفضل ما كان لديها من مواد مخزونة ، وهذا طبيعي في مدينة تحتل تجارة النبيذ والمشروبات المكان الأول فيها ، والحقيقة أن الناس كانوا يسرفون في الشراب ، ولما كان أحد المقاهي قد أعلن أن النبيذ الجيد يقتل الميكروب ، فقد زداد الناس اقتناعاً بأن الكحول يحمي من الأمراض المعدية ، فكيفت ترى الشوارع حوالى الساعة الثانية من كل صباح ، وقد عجبت بعدد غير قليل من السكارى الذين طردتهم المقاهي ، وأخذوا يذرعون أرض المدينة وهم يتبادلون أشد الآراء تفاؤلاً .

ولكننا لو نظرنا الأمر من زاوية معينة لوجدنا أن كل هذه

التغيرات كانت غير عادية ، وأنها تمت بسرعة لا تجعل من السهل اعتبارها هادئة ودائمة ، ومن ثم فقد ظللنا نضع مواطننا الشخصية في المسكان الأول من اعتبارنا . وقد حدث بعد إغلاق أبواب المدينة يومين أن قابل الدكتور ريو — وهو خارج من المستشفى — كوتار ، ورفع هذا الأخير نحوه وجهاً يطفح بالرضا ، وهناك ريو على ذلك ، فقال هذا الرجل القصير :

— نعم ، إن الحال على ما يرام ، ولكن قل لي يا دكتور : ما هذا الطاعون المشعوم ! لقد بدأ يتخذ شكلاً خطيراً ، وأجابه الطبيب بالإيجاب ، فعلق أخونا على جوابه بشيء من الابتهاج قائلاً :

— ليس هناك ما يدعو الآن إلى التوقف ، لابد أن كل شيء سوف يتقلب رأساً على عقب .

وسارا لحظة سوية ، وحكى كوتار كيف أن بدالا مسكيناً في حيّه كان قد اختزن بمض المواد الغذائية ليبيعهما بسعر مرتفع ، وكيف اكتشفت العلب المحفوظة التي كان قد أخفاها تحت سريره عندما حضر القوم لأخذها إلى المستشفى حيث مات ، ثم عقب بقوله : « إن الطاعون ليست وراثة فائدة » .

وهكذا كانت جمعية كوتار مليئة بقصص الوباء ، الحقيقي منها والكاذب ، وكان بما ذكره : أنه حدث ذات صباح في وسط المدينة أن رأى الناس رجلاً تبدو عليه علامات الطاعون يندفع وسط هذيان المرض إلى خارج منزله ، ويلقى بنفسه على أول امرأة يصادفها ، ويضمها بقوة ، وهو يصيح :

لأنى مصاب بالطاعون، ثم علق كونا ر — بلهجة مبتهجة لا تتمشى مع ما يؤكد — :

— حسن ! من المؤكد أننا سنصبح جميعاً من المجانين .

وكذلك جاء جوزيف جران فى عصر اليوم نفسه ، وانتهى بأن أفضى إلى الدكتور ريو بيمض أسرار الشخصىة ، وكان قد لمح صورة لمدام ريو على المكتب ، ثم نظر إلى الطبيب نظرة متسائلة ، فأجاب ريو بأن زوجته تعالج خارج المدينة :

فقال جران :

— من ناحية ما ، يعتبر هذا من حسن الحظ .

وأجاب الدكتور بأن ذلك فعلاً من حسن الحظ ، ولكنبقى أن نأمل فى أن يتم شفاؤها :

وقال جران :

— آه ، لنى أفهم ذلك جيداً .

والليرة الأولى — منذ عرفه ريو — أخذ يتكلم بغزارة ، ورغم أنه كان كالمعتاد يبحث عن كلماته ، فقد كان ينبجح دائماً فى العثور عليها كما لو كان قد فكر طويلاً من قبل فيما يقوله الآن .

لقد تزوج فى سن مبكرة جداً من فتاة فقيرة صغيرة جداً من جيرانه ، وكان قد توقف عن إتمام دراسته ، وحصل على عمل لىكى يتمكن من الزواج . ولم يخرج جان ولا هو نفسه من حيثما ، كان يذهب ليراهما فى بيتها ، فيسخر أهلها قليلاً من هذا الخاطب الصامت المرتبك . وكان أبوها

عاملاً في السكة الحديد ، وكان في وقت راحته يرى دائماً منعزلاً قرب النافذة ، مستغرقاً في التفكير ، ناظراً إلى حركة الشارع وقد وضع راحتيه الكبيرتين على نظديه . أما الأم ، فكانت مشغولة دائماً بأعمال المنزل ، وكانت چان تساعدھا . وچان هذه ضئيلة الجسم حتى أن جران لم يرها مرة تعبر الشارع إلا اعتراض القلق . لقد كانت العرھات تبدو له حينئذ ذات حجم هائل . وذات يوم — أمام أحد محلات عيد الميلاد — كانت چان تنظر إلى الواجهة الزجاجية ، وقد استحوذ عليها الإعجاب ، ثم ارتمت ناحية جران وهي تقول : ما أجمل هذا ! وكان هو قد ضغط على معصمھا ، وهكذا تقرر زواجهما .

أما بقية القصة ، فكانت بسيطة حسبما يقول جران ، والواقع أنها كذلك بالنسبة للناس جميعاً ، فالناس يتزوجون ويستمرّون يحب بعضهم بعضاً — شيئاً ما — وينهمكون في عملهم . لأنهم ينهمكون في عملهم إلى حد أن ينسوا الحب ، وكانت چان أيضاً تعمل ، لأن رئيس المكتب لم يف بوعده ، وهذا لابد من شيء من الخيال لكي نفهم ما أراد جران أن يقوله ، فقد سار وراء عاداته ، وزاد صمتاً على صمت ، وقد ساعده التعب على ذلك ، فلم يحاول أن يجعل زوجته الشابة تستمر في الاعتقاد أنها محبوبه ، ذلك أن انكباب الرجل على عمله ، والفقر ، والمستقبل الذي يغلق أبوابه ببطء ، وقضاء الأمسيات حول المائدة في صمت ، كل ذلك من شأنه أن يخلق جواً لا مجال فيه للمحاطفة الملتبّية ، ومن المحتمل أن تكون چان قد قامت من ذلك وأكبتها بقيت ، وقد يحدث أن يتعذّب المرء طويلاً دون أن يدري . ومرت الأعوام ، وبعد ذلك ذهب ، ولم

تذهب وحدها بطبيعة الحال : « لقد أحبتك فيما مضى ، أما الآن فقد
تعبت . . . لست سعيدة لأنى أذهب ، ولكن ليس المرء فى حاجة لأن
يكون سعيداً لكي يبدأ من جديد ، هذا هو بحمل ما كتبته له .

وقد تعذب جوزيف جران بدوره . نعم ، كان فى مقدوره أن يبدأ من جديد
- كما لاحظريو - ولكن الذى حدث هو أنه لم يعد يعتقد فى إمكان ذلك .

وكل ما فى الأمر أنه ظل يفكر فيها ، كان يود أن يكتب لها خطاباً
ليبرر موقفه ، ولكن « كان هذا أمراً صعباً ، على حد تعبيره ، إذ يقول :
« إنى أفكر فى ذلك منذ وقت طويل ، فقد كنا - ونحن متحابان - يفهم
بعضنا بعضاً دون حاجة إلى كلام ، ولكن الإنسان لا يظل على حبه دائماً ،
وقد جاءت لحظة معينة كان على فيها أن أعثر على الكلمات التى كان يمكن أن
تبقىها ، ولكنى لم أستطع ، . ومخط جران أنفه فى منشفة ذات مربعات ، ثم
جفف شاربه ، وريو لا ينفك عن النظر إليه . ثم قال العجوز :

— أرجو المذرة يا دكتور ، ولكن كيف أعبر عن ذلك ؟

إنى أضع فيك ثقى ، ومعك أستطيع أن أتكلم ، وحينئذ يطفى
على التأثر .

وكان واضحاً أن جران يقف على بعد ألف فرسخ من الطاعون .
وفى المساء أ برق ريو إلى زوجته بأن المدينة مغلقة ، وأنه بخير ، وأنه يجب
عليها أن تستمر فى العناية بنفسها ، وأنه يفكر فيها . وبعد ثلاثة أسابيع
من إغلاق أبواب المدينة وجد ريو شاباً ينتظره عند خروجه من المستشفى ،
وقد بادره هذا الشاب بقوله :

— إنى أفترض أنك تعرفنى .

وخيل إلى ريو أنه يعرفه حقاً ، ولكنه ظل متردداً ، فقال الآخر :

— لقد جئتك قبل هذه الحوادث أطلب منك معلومات عن ظروف

حياة العرب ، إن لسمى ريمون رامبير .

وقال ريو :

— هذا صحيح ؛ وما أنت ذا الآن تجد أمامك موضوعاً لتحقيق

صغرى جميل .

وكان الشاب يبدو متوتر الأعصاب ، فقال : إنه لم يأت لهذا الغرض ،

بل ليطلب العون من الدكتور ريو ، وأضاف :

— أرجو لمعذرة ، فأنا لا أعرف أحداً فى هذه المدينة ، ومن سوء

الحظ أن مندوب جربدتى فيها رجل معتوه .

وعرض عليه ريو أن يسير سويماً إلى أحد المستوصفات فى وسط

المدينة ؛ لأن لديه أوامر يريد أن يصدرها ، وهبطا أزقة حى الزنوج .

وكان المساء قد اقترب ، ولكن المدينة — التى كانت دائماً صاخبة فى مثل

هذه الساعة — كانت تبدو وحيدة بشكل يلفت النظر . وكانت الأصوات

القليلة المنبعثة من أحد الأبواب العسكرية فى أرجاء هذه السماء الذهبية

تشهد بأن العسكريين يتظاهرون بممارسة مهنتهم ؛ وفى تلك الأثناء كان

رامبير يتكلم والاضطراب لا يفارقه طيلة سيره مع ريو فى هذه الشوارع

الوعرة ، تحيط به جدران المنازل المغربية ، الرقاء ، والصدفية ، والبفسجية ؛

ذلك أنه كان قد ترك زوجته فى باريس ، وفى الحقيقة أنها ليست زوجته ،

ولكن كلا الأمرين سواء ، لقد أ برق إليها منذ إغلاق المدينة ، ولكنه لما كان قد ظن أن الأمر ما هو إلا حادث مؤقت ، فقد فكر في بادية الأمر في مجرد الكتابة إليها ، ولكن زملاءه في وهران أفهموه أنهم لا يستطيعون عمل شيء من أجله ، وأن مكتب البريد قد رد خطابه ، وقد ضحكك منه إحدى موظفات المديرية في شيء من السخرية ، وكان كل ما وصل إليه ، بعد وقوفه ساعتين في الصف ، أنهم قبلوا منه برفقة قال فيها :

د كل شيء على مايرام . إلى اللقاء القريب ، .

ولكنه لم يكده يستيقظ في الصباح حتى طرأت في رأسه فجأة فكرة ، أنه لا يعرف كم من الوقت ستستمر هذه الحال ، ولذا قرر أن يرحل . ولما كان يحمل بعض التوصيات — فهنته تمنحه الكثير من التسهيلات — فقد تمكن من الوصول إلى مدير مكتب المدير ، وقال له : إنه لاهلاقة له بوهران ، وليس مما يعنيه أن يبقى فيها ، وأنه كان قد وجد هنا بطريق المصادفة ، ومن العدل أن يسمحوا له بالرحيل ، ولو اضطر إلى أن يحجز في الحجر الصحي بعد أن يصبح خارج المدينة . فقال له مدير المكتب : إنه يفهمه جيداً ، ولكنهم لا يستطيعون أن يستثنوه ، وأنه سوف ينظر في الأمر ، ولكن الموقف جد خطير على وجه العموم ، ولا يمكن اتخاذ أى قرار ، وقال رامبير :

— ولكنني غريب عن هذه المدينة .

— هذا لاشك فيه ، ولكن كل ما نستطيعه هو أن نأمل ألا تطول

مدة الوباء .

ولكى ينهى المدير حديثه معه ، حاول أن يواسيه بأن لفت نظره إلى أنه يستطيع أن يجد في وهران مادة تحقيق صحفي طريف ، وأنه مامن حادث إلا وله ناحيته الطيبة ، وهن رامبير كتنفيه باستخفاف .

وهنا كانا قد وصلا إلى وسط المدينة ، وواصل رامبير كلامه قائلاً :

— هذه سخافة يادكتور ، أنت تفهم ذلك جيداً . فأنا لم أولد لى أقوم بالتحقيقات الصحفية ، ولست ربما كنت قد ولدت لى أعيش مع امرأة ، فهل لم يكن هذا فى الحساب ؟

وقال ريو : إن هذا على كل حال كلام معقول . ولم تكن شوارع وسط المدينة مزدحمة كما كانت من قبل ، كان هناك بعض المارة يحشون الخطى نحو مساكنهم النائية ، ولم يكن أحد يبتسم ، وقد ظن ريو أن ذلك لم يكن إلا نتيجة لإعلان « رانسدوك » الذى كان موعده هذا اليوم ، وقال فى نفسه : « بعد مرور ثمان وأربعين ساعة سوف يبدأ مواطنونا فى الأمل من جديد ، أما اليوم ، فالأرقام لا تزال طازجة فى ذاكرتهم .

وبدأ رامبير يقول دون مناسبة :

— المسألة أننا — هى وأنا — قد تقابلنا منذ فترة غير بعيدة ، ونحن جدد متفاهمين .

ولم يقل ريو شيئاً ، وأردف رامبير يقول :

— يبدو أنى أضايك ، ولكنى لم أرد أن أسألك إذا كنت تستطيع أن تعطينى شهادة تؤكد أنى لست مصاباً بهذا المرض المشؤم ، أعتقد أن هذا قد يفيدنى .

وأوما ريو برأسه موافقاً . وفي هذه اللحظة كان غلام صغير قد ألقى
بنفسه بين ساقيه ، فأوقفه بلطف على قدميه . ثم استأنفا السير حتى وصلا
إلى ميدان الأسلحة . وكانت أغصان الأشجار وسعف النخيل تتدلى
بلا حراك — في لونها الأشهب من تراكم الغبار — حول تمثال للجمهورية
علته الأتربة والأقذار . وتوقفا عند قاعدة التمثال ، وهنا ضرب ريو
الأرض بقدميه الواحدة تلو الأخرى ؛ لينزل عنهما الأتربة البيضاء العالقة
بهما ، ثم نظر إلى رامبير الذي كانت قبعته مائلة إلى الخلف ، وياقة قميصه
مفكوكة الأزرار تحت رباط عنقه ، ولحيته غير حليقة ، إن كل هيئته
تدل على الغضب والغليظ ، وقال :

— تأكد أنتي أفهمك جيداً ، ولكن طريقتك في التفكير ليست
سليمة ، فأنا لا أستطيع أن أكتب لك هذه الشهادة ؛ لأنى — فى
الواقع — لا أدري إذا كنت مصاباً بهذا المرض أم لا ، وحتى لو لم
تكن مصاباً به ، فأنا لا أستطيع أن أجزم بأنك ان تلتقط العدوى
فى اللحظة التى تنحصر بين خروجك من مكنتى ودخولك المديرية . .
وحتى لو . .

وقال رامبير :

— حتى لو ماذا ؟

— حتى لو أعطيتك هذه الشهادة ، فلن تجدك شيئاً .

— لماذا ؟

— لأنه يوجد فى المدينة آلاف من الأشخاص الذين فى مثل حالتك ،

ومع ذلك لا يمكن تركهم يخرجون .

— ولكن إذا لم يكونوا هم الآخرون مصابين بالطاعون ؟
— ليس هذا سلباً كافياً . نعم ، إنى أعرف أنها قصة سخيفة ،
ولكنها تتعلق بنا جميعاً ، ويجب قبولها على علاتها .
— ولكنى لست من هذه المدينة .
— منذ الآن سوف تصبح — بكل أسف — من هذه المدينة
كجميع من فيها .

وازداد انفعال أخينا ، وقال :
— إنها مسألة إنسانية ، أقسم لك على ذلك ، قد تكون لا تعرف
معنى الفراق بالنسبة لشخصين متفاهمين .

ولم يجب ريو على الفور ، ثم قال : إنه يعتقد أنه يعرف معنى ذلك ،
وأنه يود من كل قلبه أن يعود رامبير إلى امرأته ، وأن يجتمع شمل كل
الحبين ، ولكن هناك عوائق وقوانين ، وهناك الطاعون ، وأنه ليس فى
مقدوره إلا أن يعمل ما ينبغى عمله .

وقال رامبير :

— كلا ، لا يمكنك أن تفهم ذلك ؛ فأنت لا تتكلم إلا بلغة العقل ،
إنك تعيش فى عالم المجردات .

ورفع الدكتور عينيه إلى تمثال الجمهورية ، ثم قال : إنه لا يدرك
إذا كان يتكلم لغة العقل ، ولكنه يتكلم لغة الواقع المؤكد ، وكل من
اللغتين تختلف عن الأخرى ، وأعاد الصحفى عقد رباط عنقه ، ثم قال :
— هل معنى ذلك أنه يجب على أن أتصرف بطريقة أخرى ؟

ثم أردف قائلا — بشيء من التحدى — :
— ولكنى سأغادر هذه المدينة .

وأجاب الطبيب مرة أخرى بأنه يفهمه جيداً ، ولكنه لا شأن له بذلك ، وهنا قال رامبير وقد انفجر بغتة :

— بل لك شأن به ، لقد أثبت إليك ، لأنهم قالوا لى إنك ساهمت
بنصيب كبير فى الإجراءات التى اتخذت ، وظننت أنه فى مقدورك أن
تحل — بالنسبة لحالة واحدة — ما ساهمت فى ربطه ، ولكن الأمر
لا يهمك ؛ فأنت لا تفكر فى أحد ، ولم تعمل أى حساب لأولئك الذين
عذبهم الفراق .

وأقر ريو أن هذا صحيح من إحدى نواحيه ، وأنه لم يشأ أن
يدخل ذلك فى اعتباره ، وقال رامبير :

— آه ، أرى أنك تريد أن تتحدث عن المصلحة العامة ، ولكن
الصالح العام يتكون من سعادة كل شخص على انفراد .

وقال الدكتور ، وكأنه أفاق من بعض الشرود :

— على رسلك ، فألى جانب هذا توجد أشياء أخرى ، ولا ينبغي
للبرء أن يسرف فى إصدار الأحكام ، وأنت غير محق فى غضبك ، وإذا
استطعت أن تنجح فى حل هذه المشكلة ، كان ذلك مما يسعدنى ، وكل
ما فى الأمر أن هناك أشياء يحرم على فعلها بحكم مهنتى .
وهز الآخر رأسه متمللاً ، وقال :

— نعم ليس لي حق في أن أغضب ، وهذا يكفي لأنني أضعت عليك الكثير من الوقت .

وطلب منه ريو أن يطلعه على نتائج محاولاته أولاً فأولاً ، وألا يحمل له أية موجدة : إذ لا بد أن تكون هناك نقطة يستطيعان أن يلتقيا فيها ، وهنا بدأ القلق لجأة على رامبير ، وقال بعد فترة صمت :

— أعتقد ذلك . نعم ! أعتقد ذلك على الرغم مني ، ومن كل ما قلت لي .

ثم بدا عليه التردد وهو يقول :

— ولكنني لا أستطيع أن أفرك على رأبك .

وأنزل طرف قبعته على جبينه ، وانصرف بخطى سريعة .

ورآه ريو يدخل الفندق الذي يسكنه جان تارو .

وبعد لحظة هز الطبيب رأسه . . نعم ، لعل الصحفي على حق في تعجله في العودة إلى السعادة ، ولكن هل كان على حق في اتهامه ، ولا سيما حين قال له : « أنت تعيش في عالم المجردات » ؟ هل تعتبر حفا من قبيل المجردات تلك الليالي التي أمضاها في مستشفى حيث تضاعف شره الطاعون ، ورفع عدد الضحايا إلى خمسمائة في الأسبوع ؟ نعم ، لقد كان هناك نصيب من المجردات ، والبعد عن الواقع في تلك النكبة . ولكن إذا كانت المجردات قد أقبلت على قتلك ، فلن يكون لك مناص من أن تحسب لها حساباً . وكان ريو يعلم جيداً أن ذلك لم يكن أيسر ما في الموضوع ، لم تكن حتى الأمور اليسيرة — مثلاً — إدارة هذا المستشفى الإضافي

الذى كلفوه بإدارته (ويوجد الآن ثلاثة مستشفيات إضافية) . فقد أمر بإعداد غرفة استقبال في قاعة تطل على قاعة الكشف ، وكان في أرض هذه الغرفة تجهيز امتلاء بالماء فتسكونت فيه بحيرة صغيرة، أعد في وسطها جزيرة صغيرة من الآجر . وكان المريض ينقل إلى الجزيرة ، ويجرد من ملابسه بسرعة ، وتلقى ملابسه في الماء ، وهنا يغسل وينشف ويغطي بقميص المستشفى الخشن ثم يعرض على ريو . وكان بعد ذلك ينقل إلى إحدى القاعات . وقد اضطروا إلى استخدام الفناء المسقوف في إحدى المدارس، وهو الآن يحوى خمسمائة سرير تكاد كلها تكون مشغولة . وبعد استقبال الصباح — الذى يشرف عليه ريو بنفسه ، وبعد القيام بتطعيم المرضى وشق الأورام — كان يتحتم عليه أن يراجع الإحصائيات ، ثم يعود إلى استشارات ما بعد الظهر . أما في المساء ، فكان يقوم بزياراته ، ثم يعود إلى منزله في وقت متأخر من الليل ، وقد لاحظت أمه في الليلة السابقة ، وهى تقدم له برقية من زوجته ، أن يديه ترتعدان ، فقال لها :

— نعم ، ولكن — بشيء من قوة الإرادة — سوف أتمكن من ضبط أعصابى أكثر من ذلك .

كان ريو قوى البنية شديد المقاومة ، ولم يكن في الواقع قد أدرك التعب بعد ، واكثفه ضاق ذرعاً بهذه الزيارات التى كان يقوم بها ، فتشخيص الحى الوبائية معناه حجز المريض بسرعة ، وهنا تبدأ المجردات والصعوبات الحقيقة ؛ لأن أسرة المريض تعلم أنها لن تراه إلا معافى أو ميتاً . وفى ذات مرة قالت السيدة لوريه — أمام الخادمة التى كانت تعمل في فندق تارو — : «الشفقة يادكتور ، ما معنى ذلك؟ لاشك في أنه يشعر بالشفقة،

ولكن هذا لم يكن ليفيد أحداً ؛ ذلك أنه يجب عليه أن يخطر تليفونيا عن وجود الحالة ، فيسمع بعد قليل رنين عربة الإسعاف . وفي أول الأمر كان الجيران يفتحون نوافذهم وينظرون . أما بعد ذلك ، فكانوا يحكمون إغلاقاتها ، وحينئذ تبدأ المقاومة والدموع ومحاولة الإقناع ، وباختصار تبدأ المجردات . وكانت تقع في هذه البيوت — التي أنهكتها حرارة الحى والقلق — بعض المشاهد الجنونية ، وكان المريض ينتهى رغم ذلك بأن ينقل ، وبعد ذلك يستطيع ريو أن ينصرف .

وفي أول الأمر كان يكتفى بالإخطار التليفونى ، ثم يسرع بالذهاب لعيادة مرضى آخرين دون أن ينتظر سيارة الإسعاف . ولكن كان يحدث أن يغلق أهل المريض الأبواب ، ويفضلوا الحياة على انفراد مع الطاعون على فراق أصبحوا يعرفون الآن جيداً نهايته . وعندئذ كان يقوم الصراخ والأوامر وتدخل الشرطة ، وفيما بعد كان يؤدى الأمر إلى استخدام القوات المسلحة ، ثم فى نهاية الأمر يؤخذ المريض عنوة ؛ ولذلك كان يضطر ريو فى الأسابيع الأولى إلى الميكوث حتى حضور سيارة الإسعاف ، وبعد ذلك أصبح من الضرورى أن يصحب كل طبيب مفتش متطوع ، ومن ثم يتمكن ريو من أن يسرع من مريض إلى آخر ، ولكن فى البداية كانت كل الأمسيات تنقضى على نحو ذلك المساء الذى دخل فيه عند السيدة لوربه فى جناحها الصغير المزدان بالمراوح والزهور الصناعية ، فقد استقبلته الام وهى تقول بابتسامة لم تحسن تسكفها :

— أنعشم ألا تكون تلك الحى التى يتحدث عنها الجميع .

أما هو فقد رفع الغطاء والقميص ، وراح يتأمل البقع الحمراء على البطن والفخذين ، والتهاب العقد ، وكانت الأم تنظر بين ساقى

ابنتها وهي تصرخ دون أن تتمكن من السيطرة على نفسها . نعم في كل مساء كانت هناك أمهات يصرخن هكذا ، وعليهن سيماء الذهول أمام بطون ظهرت أمامهن بكل ما تحمل من أعراض مميّنة . في كل مساء كانت هناك أذرع تتعلق بذراعى ريو ، وكلام كثير لا فائدة منه ، ووعود ، ودموع غزيرة تذرف ، وفي كل مساء كان يتسبب رنين جرس سيارة الإسعاف في أزمات لا طائل من ورائها ، ولكنها لا تكف عن الاشتعال ، وفي نهاية هذه السلسلة الطويلة من الأمسيات المتشابهة ، لم يكن لريو أن يتوقع غير سلسلة طويلة من المشاهد المتشابهة تتجدد بلا نهاية ، نعم فقد كان الطاعون — كالمجردات — رتيب النغم ، وربما لم يكن هناك سوى شيء واحد يتغير ، وهو ريو نفسه . لقد أحس بذلك هذا المساء ، وهو عند قاعدة تمثال الجمهورية غير شاعر شيء سوى عدم الاكتراث العسير الذي بدأ يملأه ، وقد راح ينظر باستمرار إلى باب الفندق الذي اختفى فيه رامبير .

وفي نهاية تلك الأسابيع المزعجة ، بعد كل هذه الأماسي — التي كانت تفرغ فيها المدينة سكانها لكي يلفوا ويدوروا في الشوارع — فهم ريو أنه ليس له أن يدافع عن نفسه في اتهامه بعدم الشفقة ، فالمرء يتعب من الشفقة عندما تصبح غير ذات جدوى .

وعندما شعر الدكتور بقلبه يغلق من دونه أبوابه شيئاً فشيئاً، وجد في ذلك الشفاء الوحيد من ثقل تلك الأيام المضنية ، فقد أدرك أن مهمته أسهل من ذي قبل ، ولذلك شعر بالارتياح ، وكانت أمه عندما تستقبله في الثانية صباحاً تفرع لتلك النظرة الخاوية التي يلقاها عليها ، ومعنى ذلك

أنه قد ساء لها تلك الراحة الوحيدة التي كان من الممكن أن يحصل عليها ؛
ذلك أننا لكي تقاوم المجردات يجب علينا أن نتشبه بها بعض الشيء .
ولكن أتى رامبير أن يحس ذلك ؟ فالمجرد لم يكن بالنسبة له إلا كل
ما يقف حجر عثرة في سبيل سعادته . وفي الحقيقة كان ريو يعلم أن
الصحنى على حق — إذا نظرنا للأمر على نحو ما — ولكنه كان يعرف
أيضاً أن المعاني المجردة قد تبدو أحياناً في صورة أقوى من السعادة ،
وحيث — حيث فقط — يجب أن يعمل له حساب ، وهذا ما كان
لا بد أن يحدث لرامبير . وقد عرف ريو ذلك بالتفصيل عندما قص
عليه رامبير ما في نفسه فيما بعد ؛ وهكذا تمكن الدكتور من أن يتابع
— بطريقة جديدة — هذا النوع من الكيفاح الواجم بين سعادة كل
شخص ومجردات الطاعون ، هذا الكيفاح الذي انحصرت فيه حياة المدينة
بأمرها خلال تلك الفترة الطويلة .

ولكن ما قد يراه البعض معنى مجرداً قد يراه البعض الآخر أمراً حقيقياً ؛ فقد كانت نهاية الشهر الأول للوباء نهاية مظلمة بسبب ازدياد حدة الوباء زيادة ملحوظة ، وبسبب المواقظ العنيفة التي دأب على إلقائها الآب بانلو اليسوعى الذى كان قد أخذ بيد ميشيل العجوز في بداية مرضه . وكان الآب بانلو ذائع الصيت بسبب اشتراكه في مجلة الجمعية الجغرافية بوهران ؛ إذ أنه كان حجة في فلك طلاسسم النقوش ، ولكن سلسلة المحاضرات التي ألقاها عن « الفردية الحديثة ، جلبت له جمهوراً أكبر مما كان يجلب له موضوع تخصصه ، وقد دافع بانلو في هذه المحاضرات بحرارة عن المسيحية من وجهة نظر منطقية من شأنها أن تنأى عن الإباحية الحديثة بقدر ما تنأى عن معميات القرون الماضية ، وفي هذه المناسبة لم يأل جهداً في إطلاع مستمعيه على الحقائق المرة ، ومن هنا كانت شهرته .

وعندما قارب هذا الشهر نهايته قررت السلطات الدينية في المدينة مقاومة الطاعون بوسائلها الخاصة ، وذلك بتخصيص أسبوع للصلوات الجماعية ، وقد اختتمت هذه المهرجانات الدينية العامة في يوم أحد بقداس مهيب تحت رعاية القديس سان روش الذى مات بالطاعون . وبهذه المناسبة طلب من الآب بانلو أن يلقي كلمة ، وكان هذا الأخير قد اضطر مرغماً — طيلة الأيام الخمسة عشر السابقة — إلى ترك دراساته عن القديس

أوغسطين والكنيسة الإفريقية التي جعلت له مكاناً مرموقاً في نظامها . ولما كان پانلو ذا طبيعة مندفعة حامية ، فقد قبل تلك الرسالة التي كلف بها بكثبر من العزم والتصميم . وقد ظل الناس يتحدثون عن هذه الخطبة الوعظية وقتاً طويلاً قبل موعدھا . والواقع أنها تسجل ، على طريقتهما ، تاريخاً خاصاً في هذه الفترة من قصة الوباء .

وقد كان لإقبال الناس على أسبوع الصلاة هذا كبيراً ولم يكن هذا لأن سكان وهران كانوا يتميزون في أوقاتهم العادية بالتقوى والورع . فإن حمامات البحر كانت تنافس القداس في صبيحة الأحد منافسة قوية ، ولم يكن هذا أيضاً لأن الناس قد رجعوا فجأة إلى دينهم ، ولكنه كان يرجع من جهة إلى إغلاق المدينة ، وحظر دخول الميناء مما منع حمامات البحر ، ومن جهة أخرى إلى أن الناس كانوا في حالة ذهنية خاصة شعروا فيها جيداً بأن شيئاً هاماً قد تغير تغيراً لا شك فيه ، وإن لم يكونوا قد قبلوا تلك الأحداث المذهلة التي حلت بهم قبولاً حسناً ومن أعماق نفوسهم . ومع ذلك فقد ظل الكثيرون يأملون في أن يتوقف الوباء وأن ينجوا منه هم وذوهم . ومن ثم فإنهم لم يكونوا قد شعروا بعد أنهم مدينون بشيء . لم يكن الطاعون بالنسبة لهم سوى زائر ثقيل لابد أن يرحل يوماً من الأيام كما جاء . نعم ، إنهم كانوا خائفين ولكنهم لم يكونوا يائسين ؛ ولم تكن قد حلت بعد اللحظة التي سيبدو لهم فيها الطاعون كما لو كان هيكل حياتهم نفسها ، فينسيبهم طريقة حياتهم التي ساروا عليها حتى الآن . وقصارى القول أنهم كانوا في حالة انتظار . أما بالنسبة للدين كما بالنسبة لكثير من المشاكل

الأخرى ، فإن الطاعون كان قد كيف عقولهم تكييفاً غريباً ، فباعده بينهم وبين عدم الاكتراث بقدر ما باعد بينهم وبين التحمس ، تكييفاً يمكن تحديده تحديداً لا بأس به بكلمة « الموضوعية » ، وكان في رسع أغلبية الذين تنبأوا أسبوع الصلوات أن يتبنوا الدعوى التي عرضها أحد المتدينين أمام الدكتور ريو ، والتي تنبئ على الفكرة القائلة : « مهما يكن من شيء ، فإنه لا يمكن أن ينتج عن ذلك أى ضرر » . وإن تارو نفسه الذي كان قد دون في مفكرته أن من عادة الصينيين في مثل هذه الحالة أن يدقوا الطبول أمام عفرينة الطاعون ، عاد فلاحظ أنه من المستحيل أن نعرف ، في الحقيقة ، أيهما أجدى وأنفع . دقائق الطبول أم الإجراءات الوقائية . وأضاف أنه يجب ، لكي نقطع في الموضوع برأى ، أن تكون لدينا معلومات عما إذا كانت عفرينة الطاعون موجودة حقاً أم لا ، وإن جملنا بهذه النقطة يضرب على كل آرائنا في هذا الموضوع بالعقم .

ومهما يكن من شيء فقد غصت كاتدرائية مدينتنا بالمؤمنين طوال هذا الأسبوع . ففي الأيام الأولى كان الكثيرون من السكان يفضلون البقاء في حدائق النخيل والرمال التي تمتد أمام المدخل ليستمعوا إلى تلك الأمواج الدافقة من الإبهالات والأدعية التي كانت تصل إلى الشوارع . ثم اقتفوا أثر الآخرين شيئاً فشيئاً ، وقرروا الدخول ، وأخذوا يخلطلون أصواتهم في خجل بأصوات الحاضرين لنريد الأدعية . وفي يوم الأحد احتل جمهور كبير قاعة الكنيسة ، وامتد حتى الميدان الخارجي والدرجات الأخيرة من السلم ، وكانت السماء قد اكفهرت منذ الليلة الماضية ، وهطل المطر مدراراً ، فثبث الذين بقوا في الخارج مظلاتهم ، وانتشرت رائحة

البنخور ، محتلطة برائحة الأثواب المبتلة في الكاتدرائية التي اعتلى الأب
پاتلو منبرها .

كان متوسط الطول ولكنه كان بدينا ، وعندما استند على حافة
المنبر ، وقبض بيديه الكبيرتين على خشبها لم يكن يرى منه سوى هيكل
أسود سميك تعلوه بقعتان هما خداه المحمران تحت نظارته المصنوعة
من الصلب . كان صوته جهوريا يشتعل بالحماس ، ويصل إلى مدى بعيد .
وعندما انهل على مستمعيه بتلك الجملة الوحيدة العنيفة المتقطعة الذبرات
« إخوتي ، ها أنتم أولاء ترزحون في التعماسة ، أخوتي إنكم
تستحقونها — سرت في الحضور همهمه امتد سريانها حتى
الباب الكبير .

أما ما تلا ذلك من الخطبة ، فلم يكن من الناحية المنطقية يتصل بهذا
المقدمة المؤثرة ، ولكن نهاية الخطاب هي وحدها التي أفهمت مواطنينا
أن الأب پاتلو لجأ إلى وجه لبق من أوجه الخطابة ، فأوضح موضوع
وعظه بأجمعه في كلمة واحدة ، كما لو كان يصوب لإحدى الضربات ، وبعد
تلك الجملة مباشرة استشهد پاتلو بنص التوراة الخاص بالطاعون في
مصر فقال : « كانت أول مرة ظهر فيها هذا الوباء في التاريخ لمحاربة
أعداء الله ، فقد وقف فرعون في وجه الإرادة الخالدة ، فاضطره
الطاعون إلى أن يجثو على ركبتيه ، ومنذ بداية كل تاريخ كان الوباء
يضطر المختالين والمتعالمين إلى أن يركعوا على ركبهم ، فكروا في ذلك
جيда ، وخرروا ساجدين . »

وكان المطر يزداد انهماراً في الخارج عندما نطق القس بهذه الجملة
 وسط السكون المطلق ، فكان وقعها أشد وأقوى وسط دقائق المطر
 على لوحات القسيفساء . لقد كان لها رنين جعل بعض المستمعين ينزلقون
 — بعد قليل من التردد — من مقاعدهم إلى كراسي الركوع ، وظن
 الآخرون أن من واجبه أن يمحذوا حذوهم ، وبدون أن تحدث أية
 ضجة — سوى صوت بعض المقاعد وهي تتخبط — وجد جميع
 الحضور أنفسهم وقد جثوا على ركبهم ، وهذ رفع يائلو هامته ،
 وأخذ نفساً عميقاً ، ثم استأنف خطابه بلمحة تزداد نبراتهما
 وضوحاً ، فقال : « إذا كان الطاعون يوجه إليكم أنظاره اليوم ، فما ذلك
 إلا لأن وقت التفكير قد حان ، والصلحون لا يمشون ذلك ، أما الشريرون
 فلهم أن يرتعدوا فرقا ، فالعالم الآن بمثابة خزانة هائلة للغلال ، واسوف
 يضرب الطاعون القمح البشرى حتى يفصل منه القش عن الحب ، وسيكون
 القش أكثر من الحب ، وعدد الذين يدعهم إليه أكثر من عدد الناجين .
 إن الله لم يرد هذا الشر بالناس ؛ فإن هذا العالم طالما أوضع في الشر
 معتمداً على رحمة الله ، كان الناس يسمحون لأنفسهم بارتكاب
 كل شيء ، ثم يكتفون بالتندم وطلب المغفرة ، وكان الجميع
 يشعرون بالقدرة على التندم وطلب الغفران ، وكانوا لا يتكلمون عنه
 إلا إذا جاء أوانه ، أما قبل هذا الأوان ، فقد كان من اليسير عليهم أن
 ينساقوا وراء شهواتهم ، تاركين لرحمة الله تدبير ما بعد ذلك ، ولكن لم
 يكن من الممكن أن تستمر هذه الحال ، فالله الذي أحل على الناس في هذه
 المدينة بوجه هو الشفقة بعينها قد مل الانتظار ، وصدم في أمه الخالد ،

وأشاح عنهم بوجهه ، وها نحن أولاء ، بعد أن حرمتنا من النور الإلهي ،
نتخبط — ولوقت طويل — في دياجير الطاعون .

وهنا أخذ أحد الحاضرين يصهل من الهلع كحصان نفد صبره ، وبعد
لحظة صمت قصيرة استأنف الأب كلامه بصوت أكثر انخفاضاً ، فقال :
« نقرأ في الأسطورة الذهبية ، أنه حدث في زمن الملك هيرت في لمارديا
أن اجتاحت إيطاليا طاعون عنيف إلى حد جعل الأحياء لا يكادون
يكفون لدفن الموتى ، وقد استقر هذا الطاعون بصفة خاصة في روما
وباني ، وقد رأى الناس رأى العين ملسكا خيراً يصدر الأوامر للملاك
الشري — الذي كان ممسكا بصولجان صيد — ويأمره بأن يدق على المنازل ،
وكان عدد الموتى الذين خرجوا من كل منزل يعادل عدد الدقات التي
أصابتها .

وكان بانلو في هذا الوقت يمد ذراعيه في اتجاه الباب الكبير كما لو كان
يريد أن يرى الناس شيئاً من خلف الستار الممتز من وقع المطر ، ثم قال
بصوت قوى : « إخوتي ، إنه نفس الصيد القاتل الذي يحدث الآن
في شوارعنا ، انظروا إلى ملك الطاعون هذا ، إنه جميل جمال الشيطان
وله بريق كبريق الشر نفسه ، وقد وقف فوق أسطح منازلكم ، وأمسك
بيده اليمنى العصا الحمراء ، ورفعها حتى مستوى الرأس ، في حين أن يده
اليسرى تشير إلى أحد منازلكم ، وقد تكون أصبعه في هذه اللحظة تشير
إلى بابكم ، وعصاه تدق على خشب الباب ، في هذه اللحظة أيضاً يدخل
الطاعون بيتكم ، ويجلس في غرفتكم منتظراً أوبتكم . إنه هناك ،

ينتظر في صبر وأناة وهو واثق من نفسه وثوق هذا العالم من نظامه ،
وهذه اليد التي يمدّها إليكم ، اعلوا جيداً أنه لا توجد في الأرض ولا في
العلوم البشرية النافذة قوة تستطيع أن تجعلكم بمنجاة منها ، وهكذا
سوف يضربكم الطاعون كما يضرب القمح على جرن الآل الملطخ بالدماء ،
ثم يلقى بكم مع القش ، .

ثم تابع الأب — بمزيد من الإيضاح والتفصيل — وصف تلك
الصورة المؤثرة للوباء ، فصور قطعة الخشب الهائلة التي تلف وتدور فوق
المدينة تخطط بخط عشواء ، ثم ترتفع ثانية وقد لطختها الدماء ، وتستمر
تبعثر الدم والآل البشرى من أجل د بذر ينتهى بمحصاد الحقيقة ، .

وفي نهاية جملته الطويلة توقف — الأب يأنلو — وقد تدلى شعره
فوق جبينه ، وسرت في جسمه رعدة تعلتها يدها إلى المنضدة التي أمامه ،
ثم استأنف بصوت أكثر احتباساً ولكنه بلمحة الاتهام ، فقال : « نعم ،
لقد حانت ساعة التفسير ، لقد ظننتم أنه يكفي أن تزوروا الله يوم الأحد ،
ثم بعد ذلك تصبحون أحرار التصرف في كل أيامكم ، لقد ظننتم أنه يكفي
منكم ببعض نيات من ركبكم ثمناً لإثم عدم المبالاة ، ولكن الله
لا يتهاون ، فهذه الاتصالات المتباعدة لا يمكن أن تشبع حنانه النهم .
لقد كان يريد أن يراكم وقتاً أطول ، تلك هي طريقته في حبكم وتلك — في
حقيقة الأمر — هي الطريقة الوحيدة للحب ، ومن ثم فقد مل انتظار
أوبتكم ، وترك الوباء يزوركم كما زار كل المدن الآثمة منذ كان للناس
تاريخ ، وها أنتم الآن قد عرفتم معنى الخطيئة كما عرفها قابيل وأبناؤه ،

وكما عرفها من كانوا قبل الطوفان ، وكما عرفها قوم لوط ، وكما عرفها فرعون
وأيوب ، وكل من وجبت عليهم اللعنة .

وسيجد السك ما حدث هؤلاء جميعاً ، ستنظرون إلى المخلوقات
والأشياء نظرة جديدة ابتداء من ذلك اليوم الذى أغلقت فيه هذه
المدينة أبوابها عليكم وعلى الرباء ، لأنكم تعرفون الآن — وفى نهاية
الامر — أنه يجب الرجوع إلى ما هو جوهرى .

وفى تلك اللحظة هبت ريح رطبة على صحن الكنيسة ، وأخذت
نيران الشموع تتهايل وتحدث أزيزاً ، ووصلت رائحة الشمع القوية .
وأصوات السعال والعطش إلى الأب بانلو الذى عاد إلى عرضه بلباقة
استحوذت على إعجاب الناس ، فقال بصوت هادى : « أعرف أن الكثيرين
منكم ينسأون بحق إلى أين أريد أن أصل بكم ؟ أريد أن أصل بكم إلى
الحقيقة ، وأعلمكم أن تبتمجوا رغم كل ما قلتم ، فقد مضى الوقت الذى
كانت فيه النصائح والعون الأخوى هما الوسيلة لدفعكم إلى الخير . أما اليوم ،
فالحقيقة أمر يصدر إليكم ، وطريق الخلاص هو العصا الحمراء التى ترشدكم
إليها وتدفعكم إليها . وهنا ، أيها الإخوة ، تتجلى رحمة الله التى وضعت
فى كل شيء الخير والشر ، الغضب والشفقة ، الطاعون والخلاص ، فهذا
الرباء نفسه الذى يدعى قلوبكم الآن هو الذى سيسموا بكم ، ويريككم
الطريق .

« منذ زمن طويل كان مسيحيو الحبشة يرون فى الطاعون وسيلة فعالة
مرسلة من الله للوصول إلى الخلود ، فكان من لم يصب منهم يلف نفسه
بأغطية المصابين لئلا ينتهى بالموت على وجه التحقيق ، ولا شك فى أنه

لا يوصى أحد بهذا الغلو في سبيل الخلاص ، فهو يدل على اندفاع مؤسف
يقرب إلى حد كبير من الغرور . فلا ينبغي أن نكون أكثر تعجلاً من
الله ، وكل ما يشتم منه استعجال النظام الثابت الذي وضعه سبحانه منذ
الأزل ليظل إلى الأبد لا يؤدي إلا إلى الكفر . ولكن هذا المثل يقدم
لنا درساً نافعاً ، فهو يجسم أمام عقولنا المستفيرة نور الخلد الهنيء الذي
يكن في كل ألم ، فهذا النور هو الذي يضئ الطريق الغاسقة التي تقود إلى
الخلاص ، وهو الذي يظهر إرادة السماء واضحة جليلة ، تلك الإرادة التي
تحول الشر إلى خير في غير ما ضعف أو وهن ، وهو أيضاً الذي يقودنا
اليوم خلال طريق الموت والقلق وصيحات الطلع نحو السكون الضروري
ونحو جوهر كل حياة . هذا أيها الإخوة هو العزاء الأكبر الذي أردت
أن أوجه إليكم حتى لا يكون حديث العقاب هو كل ما تحملون معكم من
هنا ، وحتى يتأتى لكم أيضاً بعض الحديث المطمئن .

وهنا أحس الناس أن حديث پانلو قد انتهى ، وكان المطر في الخارج
قد كف عن الهطول ، وأخذت السماء التي اختلط فيها المطر بالشمس
ترسل إلى المكان نوراً أكثر شباهاً بقوة ، وتصاعد من الشارع ضجيج
الأصوات ، وانزلاق العربات ، وكل ما تحويه لغة مدينة تستيقظ .
وأخذ المستمعون يجمعون أشياءهم في رفق محدثين شيئاً من الضوضاء
المكتومة ، ولكن الأب پانلو استأنف كلامه ، وقال : إنه ينهى خطابه
بعد أن بين المصدر الإلهي للطاعون ، وما له من صفة العقاب ، وأنه
إن يلجأ في ختام كلامه إلى بلاغة قد لا تكون في موضعها ؛ إذ أنها تتعلق
بأمر محزن ، وقد بدا له أن الأمر أصبح واضحاً للجميع ، ولكنه

أراد — فقط — أن يذكرهم بأن المؤرخ متى ماريه قد اشتكى
— بمناسبة طاعون مارسيليا الكبير — من أنه قد انغمس في الجحيم ،
وعاش هكذا دون معونة ولا أمل . حسن ! لقد كان متى ماريه أعمى !
أما الأب پانلو ، فعلى العكس من ذلك ، لم يشعر بمعونة السماء ، ولا بالأمل
المسيحي اللذين منحهما الله للجميع كما شعر بهما اليوم ، وراح يرجو
المواطنين — فوق كل رجاء ، ورغم بشاعة هذه الأيام ، وما امتلأت به
من صيحات المحتضرين — أن يوجهوا إلى السماء الكلمة المسيحية
الوحيدة ، كلمة الحب ، أما ما تبقى فالله وحده كفيل به .

هل كان لهذا الوعظ تأثير على مواطنينا ؟ من الصعب تحديد ذلك ،
أما السيد أوتون — قاضى التحقيق — فقد قال للدكتور ريو : إن
الحجج التى قدمها الأب بانلو فى خطابه لا يمكن تفنيدها ، ولكن غيره
من الناس لم يكن لهم رأى واضح هذه الدرجة من الوضوح ؛ فكل
ما فى الأمر أن الخطبة قد قربت إلى قلوب البعض تلك الفكرة التى
كانت لا تزال غامضة ، وهى أنهم مقضى عليهم بسجن لا يمكن
تصور مداه من أجل جريمة غير معروفة ؛ وإذا كان البعض قد استمروا
فى حياتهم البسيطة ، وتكيفوا بحياة المعتزل ، فقد ظل البعض الآخر
— على العكس من ذلك — لا يفكر إلا فى الهرب من هذا السجن .

فقد كان الناس قد قبلوا — فى أول الأمر — أن تنقطع صلتهم
بالخارج كما يقبلون أية مضايقة مؤقتة لا تعرقل إلا بعضاً من عاداتهم ،
ولكنهم — فجأة — تنبهوا إلى هذا النوع من الحجر تحت سماء بدأ
صيفها يلفحهم بحره ، وحينئذ تولد عندهم شعور غامض بأن هذا السجن
الضيق يهدد حياتهم بأجمعها ، فكانوا إذا ما حل المساء انغمسوا فى بعض
الأعمال اليائسة تحت تأثير النشاط الذى كان يبعثه فيهم نسيم الليل البارد .
وقد حدث أول ما حدث أن أخذت المدينة ابتداء من هذا الأحد
— ولا ندرى إذا كان ذلك مجرد المصادفة أم لا — يعمها كلها تقريباً

نوع من الخوف بلغ من العمق حداً يجعلنا نظن أن مواطنينا قد بدءوا حقاً يتنبهون إلى خطورة وضعهم ، وقد أدى هذا الشعور إلى شيء من التغير في جو مدينتنا ، ولكن أكان التغير في الجو أم في القلوب ؟ هذه هى المسألة .

وبعد الوعظ بأيام قلائل ، بينما كان ريو يعلق على هذا الحدث مع جران ، وهما فى طريقهما ليلاً نحو بعض الأحياء الخارجية ، اصطدم ريو بشخص يترنخ أمامهما دون أن يحاول التقدم ، وتصادف فى هذه اللحظة أن ازداد ضوء مصابيح الشوارع التى كانت تضاء فى وقت يزداد كل يوم تأخراً ، ونجأة أرسل المصباح الأعلى الموضوع خلفها شعاعاً ، فغمر الرجل بالضوء . لقد كان الرجل يضحك فى صمت تام وهو مغمض العينين ، وكان العرق يتصبب على وجهه الأبيض الشاحب فى قطرات كبيرة ، وقد تقلص وجهه بسبب هذه الموجة من الضحك الصامت ، وواصل ريو وجران سيرهما ، فقال هذا الأخير :

— إنه مجنون .

وكان ريو قد أمسك بذراع جران ليحمله على السير ، فشعر برعدة عصبية تسرى فى أوصال هذا الموظف ، فقال له :

— بعد قليل إن يكون بين ظهرائنا سوى مجانين .

وشعر ريو بحفاف حلقة الذى ساعد عليه التعب ، فقال :

— هيا لنشرب شيئاً .

ودخلا مقهى صغيراً يضيئه مصباح واحد وضع فوق العداد ، فوجدوا الناس يتحدثون بصوت منخفض ، دون سبب ظاهر ، وسط

هذا الهواء الكثيف المائل للحمرة ، واشد ما دهش الطبيب حينما رأى جران يطلب مشروبا روحيا ويشربه دفعة واحدة ، ويقول : إنه مشروب قوى ، ثم يرغب بعد ذلك فى الخروج ، وفى الخارج بدا لريو كما لو كان الليل مليئا بالآنين . وقد قرع مسمعه نوع من الصغير منبعث من مكان ما من السماء الخالكة فوق المصاييح ، فذكره ذلك بالوباء الخفى الذى كان يهز الهواء الساحق هذا لا يعرف الكلال .

وهنا قال جران :

— من حسن الحظ ، من حسن الحظ :

وسأله ريو عما يقصد بذلك ، فقال :

— من حسن الحظ أن لدى عمل .

وقال ريو :

— نعم ، هذه ميزة .

ولكى يكف عن الإصغاء إلى هذا الصغير ، سأل جران عما إذا كان راضيا عن عمله .

— نعم ، أعتقد أنى أسير فى الطريق الصحيح .

— ألا يزال أمامك وقت طويل لإتمامه ؟

وبدا على جران الاهتمام ، وسرت حرارة الشراب فى صوته ، وهو يقول :

— لا أدرى ، ولكن ليست هذه هى المسألة يا دكتور ، كلا ليست هذه هى المسألة .

وخيل إلى ريو- في الظلمة الحالكة أن جران يهر ذراعيه ، ويبدو عليه أنه كان يعد شيئاً في ذهنه ، وقد انطلق به لجأة وبغزارة .

— إن ما أريده يا دكتور هو أنه عندما يصل المخطوط إلى الناشر يجب واقعاً بعد قراءته ، ويقول لمعاونيه : « أيها السادة أرفعوا قبعانكم »

ودهش ريو لهذا الاعتراف المفاجيء ، وخيل إليه أن رفيقه قد قام بحركة نزع القبعة ، فرفع يده إلى رأسه ، ومد ذراعه في وضع أفقي ، وهنا بدا الصنفير الغريب ، وكأنه قد بدأ من جديد بمزيد من القوة ، واستمر جران يقول :

— نعم ، ينبغي أن يبلغ درجة الكمال .

وبالرغم من أن الدكتور ريو كان يجمل وسائل أهل الأدب وعاداتهم ، فقد خيل إليه أن الأمور لا تمر بهذه البساطة ، وأن الناشرين في مكانهم مثلاً ، يعملون حاسري الروس ، ولكن لما لم يكن من الممكن الجزم بذلك ، فقد فضل ريو أن يظل صامتاً ، وراح على الرغم منه يرهف سمعه لسمعات الطاعون الغامضة ، واقتربا من الحى الذى يسكنه جران ، ولما كان هذا الحى مرتفعاً بعض الشيء فقد كانت تهب عليه نسائم خفيفة أنعشتها ، وفي الوقت نفسه خلعت المدينة من ضوضائها . واستمر جران مع ذلك يتكلم دون أن يفهم ريو كل ما كان يقوله له هذا الرجل الطيب ، كل ما فهمه أن المؤلف المذكور أصبح يتكون من صفحات كثيرة ، ولكن كاتبه كان لا يزال يبذل جهداً مضنياً ليصل به إلى درجة الكمال . « إنى أقضى ليالى وأسابيع طوالاً أبحث

عن كلمة . . . وأحياناً عن مجرد أداة وصل . وهنا توقف جران ،
وأمسك الطبيب من أحد أزرار معطفه ، وأخذت الكلمات تخرج متعثرة
من فمه الأدرد وهو يقول :

— أرجو أن تفهم هذا جيداً يا دكتور ، فقد يكون من السهل
المفاضلة بين د لكن ، و د و ، ولكن من الصعب أن تفاضل بين د و ،
و د ثم ، ويزداد الأمر صعوبة إذا كانت المفاضلة بين د ثم ، و د بعد
ذلك ، . ولكن ما هو أشد من كل هذا تعقيداً — بلا شك — هو
معرفة ما إذا كان يجب استعمال د و ، أم لا يجوز .

وقال ريو :

— نعم أفهم ذلك .

وواصل سيره . أما جران ، فكان يادى الاضطراب ، ثم رجع إلى
طبيعته من جديد ، وتتم قائلًا :

— أرجو المَعذرة ، فلست أدري ماذا دهاني هذا المساء !

وربك ريو بلطف على كتفه ، وقال : إنه يود مساعدته . وإن قصته
تهمه كثيراً ، فعاد الاطمئنان إلى قلبه ، ولما وصل إلى باب منزله تردد
قليلاً ، ثم عرض على الطبيب أن يصعد معه لحظة ، وقبل ريو تلك
الدعوة .

وفى غرفة المائدة دعاه جران إلى الجلوس أمام منضدة مغطاة بأوراق
ملبسة بالشطب ، ومكتوبة بخط دقيق تحتاج قراءة إلى مجهر ، وقال للطبيب
الذى وجهه إليه نظرة متسائلة :

— نعم هذا هو ، ولكن هل لك فى شىء من الشراب ؟ إن لدى القليل من النبيذ .

ورفض ريو ، وظل ينظر إلى الأوراق .

فقال جران :

— لا تنظر إليها ، إنها أول جملة أكتبها ، إنها ترهقنى كثيراً ، كثيراً جداً .

وكان هو أيضاً لا يكف عن تأمل كل هذه الأوراق ، ويبدو أن يده لم تستطع مقاومة إغراء إحدى هذه الصفحات ، فرفعها أمام مصباح المكتب الذى لا غطاء له ، وكانت الورقة ترتعد فى يده ، ولاحظ ريو أن جبين هذا الموظف قد تندى بالعرق ، وقال له :

— إجلس ، واقراها لى !

فنظر إليه جران مبتسماً بشىء من الاعتراف بالجميل ، وقال :

— نعم ، أعتقد أنى أود ذلك .

وتهمل قليلاً وهو يواصل النظر إلى الورقة ، ثم جلس .

وفى نفس هذا الوقت كان ريو يسمع نوعاً من الطنين الغامض الذى يشبه أن يكون رداً على صفير الوباء فى المدينة .

وفى تلك اللحظة بالذات تمثلت أمامه بوضوح صورة المدينة التى تمتد تحت قدميه ، وصورة العالم المغلق الذى تكونه ، وصورة الصيحات المروعة التى تكبته فى ظلام الليل ، وارتفع صوت جران مكتوماً وهو يقرأ :

« فى صباح جميل من أيام شهر مايو ، كانت هناك فارسة جميلة تمتطى فرساً

حمرام ، وتجوب بها شعاب غابة بولونيا المزهرة ، وهنا عاد الصمت ،
وعاد معه طنين المدينة المعذبة ، وأعاد جران وضع الورقة على المنضدة ،
واستمر يتأملها ، وبعد لحظة رفع عينيه وقال :

— ما رأيك ؟

وأجاب ريو بأن هذه البداية قد أثارت عنده الاستطلاع لمعرفة البقية ،
ولكن جران قال : إن وجهة النظر هذه ليست هي الوجهة الجيدة ، ثم
ضرب الأوراق براحه يده ، واستمر يقول :

— ليس هذا إلا تعبيراً تقريدياً ، وعندما أصل إلى التعبير التام عن
اللوحة التي كونتها في مخيلتي ، وعندما تصبح جملي صورة طبق الأصل
من هذا السير الخيب : واحد — اثنان — ثلاثة — واحد — اثنان —
ثلاثة — ، حينئذ يسهل إتمام الباقي لا سيما وأن الخداع سيكون شديداً
منذ البداية إلى حد أنه يمكن أن يقال : « ارفعوا قبعا نكم » .

ولكن إذا كان المؤلف يصر على الوصول إلى هذه الدرجة ، فإنه
لا يزال أمام الحباب الكثير من العجين الذي يتطلب النضج ؛ ذلك أنه
لن يقبل أبداً أن يهد بهذه الجملة كما هي إلى المطبعة ؛ لأنها إذا كانت
توحى إليه بشيء من الارتياح في بعض الأحيان ، فإنه يدرك — بالرغم من
ذلك — أنها لا تنطبق تماماً على الحقيقة الواقعة ، من طابع السهولة اللسبية
الذي تقسم به مما يجعلها تشبه الجمل المحفوظة شبهها بعيداً ، ولكنه شبه على
أية حال ، هذا — على الأقل — مضمون ما كان يقول جران ، عندما
سمع الاثنان أشخاصاً يعدون تحت النافذة ، ونهض ريو واقفاً .

وقال جران :

— سوف ترى ما سأفعل بها ، والتفت ناحية النافذة ، وأضاف
« متى ينتهى كل هذا ، .

ولكن تلك الخطوات المندفعة استأنفت وقعها من جديد ، وكان
ريو قد نزل فعلا إلى الشارع ، عندما مر أمامه رجلان ، وكان من الواضح
أنهما يتجهان نحو أبواب المدينة . ذلك أن بعض مواطنينا كانوا في
الواقع قد فقدوا حقوقهم تحت تأثير الحر والطاعون ، فأخذوا يلجئون
إلى العنف ، ويحاولون أن يحتالوا على يقظة نطاقات الحراسة ليهربوا
من المدينة .

كذلك حاول آخرون — مثل رامبير — أن يهربوا من هذا الجو المذعور، ولكن بمزيد من التصميم والبراعة ، وإن لم يكن بمزيد من التوفيق ، وكان رامبير قد استمر — في بادئ الأمر — يوالى مساعيه الرسمية ، وقد كان يظن — على حد قوله — أن التصميم لابد وأن ينتهى دائماً بالانتصار على كل شيء ، وأن التحايل من خصائص مهنته على نحو ما . وهو لذلك ، كان قد زار عدداً كبيراً من الموظفين والأشخاص الذين لا يشك عادة في خبرتهم ، ولكن هذه الخبرة لم تجدهم شيئاً في هذه المسألة . كانوا في أغلب الأحيان من الأشخاص الذين يستحذون على آراء محدودة وحسنة الترتيب عن كل ما يخص أعمال البنك ، أو التصدير ، أو الموالح ، بل وتجارة النسيج أيضاً . وكانت لديهم معلومات لا جدال فيها عن المشا كل القضاية أو التأمينات ، كل هذا إلى جانب الدبلومات الكبيرة ، والإرادة الأكيدة ، بل وبما يلفت النظر أنهم كانوا جميعاً يتميزون بحسن النية ، ولكن معلوماتهم بالنسبة لمسألة الطاعون كانت في حكم المعدومة .

ومع ذلك فقد دافع رامبير عن قضيته أمام كل منهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان الأساس الذى تقوم عليه حجته دائماً أنه غريب عن مدينتنا ، ولذلك ينبغي أن تدرس حالته بعناية خاصة ، وكان الذين

يتحدث إليهم هذا الصحفي يقبلون — على وجه العموم — وجهة النظر هذه عن طيب خاطر . ولكنهم كانوا عادة يدينون له أن هذه أيضاً حالة عدد من الناس ، ومن ثم فلم تكن حاله من الخصوصية بالدرجة التي يتصورها ، وكان رامبير يرد عليهم بأن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً بالنسبة لحجته ، وكانوا يجيبونه بأن ذلك يغير من الأمر بعض الشيء بالنسبة للمسحوبات الإدارية التي تقف في وجهه كل إجراء استثنائي من شأنه أن يخلق ما يسمونه — بكثير من الامتناع — « سابقة » . وتعتبر هذه الطبقة من أصحاب الآراء طبقة أنصار الشكليات ، تبعاً للتصنيف الذي ذكره رامبير للدكتور ديو ، وهناك — إلى جانب هؤلاء — أولئك الذين يحسنون الحديث ، ويؤكدون لصاحب الطلب أن كل هذا الذي يجري لا يمكن أن يدوم ، وإذا طلب إليهم إصدار القرارات راحوا يواسون رامبير بأن ضيقته لن تطول ، وهناك أيضاً ذرو الأهمية الذين يرجون زائرهم أن يترك لهم مذكرة يلخص فيها حالة ، ويخبرونه أنهم سيفحصونها ، والتافهون الذين يعرضون عليه بطاقات بالسكن ، أو عناوين بعض الفنادق الاقتصادية ، والمنهجيون الذين يطلبون منه ملء استمارة لا يلبثون أن يلقوا بها مع غيرها ، والمشغولون الذين يكتفون برفع أذعنتهم ، والمزعجون الذين يشيخون بوجوههم ، وأخيراً هناك التقليديون — وهم الأكثر عدداً — وكانوا يوجهون رامبير إلى مكتب آخر ، أو يدلونه على مسمى آخر .

وهكذا أنك الصحفي نفسه في الزيارات ، ولكنه كون لنفسه فكرة واضحة صحيحة عن البلدية والمديرية وما يدور فيها ، وذلك بفضل

الوقت الذى أضاعه فى الانتظار على الأرائك الخشبية الموضوعة أمام لافتات كبيرة تدعو المواطنين إلى الاكتتاب فى أسهم الخزانة المعفاة من الضرائب ، أو التطوع فى جيش المستعمرات ، وبفضل ما ضيعه من وقت فى زيارة مكاتب لا ترى فيها إلا حافظات الأوراق ، ورفوف السجلات . أما الفائدة التى عادت على رامبير — كما قال لريو بشىء من المرارة — فهى : أن كل هذا حجب عنه حقيقة الموقف ، فشغله عن متابعة التقدم الذى كان يحرزه الطاعون ، الواقع أننا إذا تفاضينا عن مرور الأيام تبعاً بمزيد من السرعة ، فإنه يمكننا أن نقول — تجاه الوضع الذين توجد فيه المدينة بأسرها — : إن كل يوم يمر يقرب كل شخص فيها من نهاية محنة بشرط ألا يموت قبل ذلك ، وقد اعترف ريو بأن هذا حق ، ولكنها حقيقة مفرطة فى العموم .

وفى لحظة ما شعر رامبير بشىء من الأمل ، فقد تلقى من المديرية نشرة معلومات طلب إليه ملؤها بدقة ، وكانت هذه النشرة تستفسر عن شخصيته ، وحالته العائلية ، ومصادر دخله القديمة والحالية ، وما يسمونه بالحالة الاجتماعية ، ونخيل إلى رامبير أن الأمر يتعلق بتحقيق يهدف إلى بحث حالة الأشخاص الذين يراد إعادتهم إلى محل إقامتهم الأصلية ، وكان لبعض المعلومات الغامضة التى تلتقطها فى بعض المكاتب أثره فى تأييد هذه الفكرة ، ولكنه استطاع — بشىء من المساعى الدقيقة — أن يصل إلى المكتتب الذى صدرت منه النشرة ، وهناك قالوا له : إن هذه المعلومات تجمع د لحالة ما إذا

وسأل رامبير :

فقالوا له بالتحديد : إنها من أجل حالة ما إذا أصيب بالطاعون ومات ، وذلك لكي يتمكنوا من إخطار أسرته من جهة ، ومن جهة أخرى لكي يعرفوا إذا كانت نفقات المستشفى ستدرج على ميزانية المدينة ، أو أن أقاربه سيكلفون بقضاؤها ، كان هذا يدل بطبيعة الحال على أنه لم يكن بعيداً عن تلك التي تنتظره كل البعد ، ما دام المجتمع يشتغل بأمورهما ، ولكن لم يكن في هذا أى عزاء له . فقد كان هناك ما هو أكثر من ذلك لفتنا للنظر — ومن ثم فقد التفت إليه رامبير — ونعني به الطريقة التي يستطيع بها مكتب ما أن يستمر في أداء خدماته ، حتى عندما تفصل الكارثة إلى أقصى مداها ، وأن يستمر في إصدار توجيهات خاصة بـ زمن آخر غير زمن الكارثة ، وكثيراً ما يكون هذا دون علم السلطات العليا ، وذلك لسبب واحد ، وهو أنه أنشئ من أجل هذه الخدمات .

وكانت الفترة التي تلت ذلك بالنسبة لرامبير أسهل الفترات ، وأشقها في نفس الوقت . كانت فترة خمود بعد أن زار كل المسكاتب ، وقام بكل المساعي ، وظهر له أن كل هذه المنافذ كانت مسدودة في الوقت الراهن ، فجعل ينتقل من مقهى إلى آخر ، فكان يجلس في الصباح في شرفة أحدها . وأمامه قدح من البيرة ، ثم يأخذ في قراءة الجريدة على أمل أن يجد فيها أية علامة على قرب نهاية المرض ، وبعد ذلك كان يتفرس وجوه المارة في الطريق ، ويشيح بامتعاض عن تعبير الحزن الذي يراه مرتسماً عليها ، وكان يضطر لقراءة لافتات المحلات المواجهة له ، والإعلانات التي تروج

للفاتحات الشبيهة التي لم تعد تقدم ، فإذا ما أعاد قراءتها للبرة المائة نهض يطوف — بلا هدف — في شوارع المدينة الصفراء .

وهكذا كان ينتقل من نزوة يقوم بها بمفرده إلى المقهى ومن المقهى إلى المطاهم حتى يأتي المساء . ولحمة ريو ذات مساء على باب أحد المقاهي حيث كان يبدو متردداً بين الدخول وعدمه ، وأخيراً اختار الدخول ، وذهب ليجلس في أقصى القاعة ، وكانت هذه هي الساعة التي يؤجلون فيها إضاءة الأنوار في المقاهي إلى أقصى درجة ممكنة بأمر من السلطات العليا ، وكان الغروب الذي أخذ يعم القاعة قد جعلها في لون الماء المغبر ، وجعلت حمرة الشفق تنعكس على الزجاج ، ورخام المناضد يلعب لمعاً ضعيفاً وسط الظلمة التي بدأت تنتشر ، وفي وسط القاعة الخاوية كان رامبير يشبه الشبح الضال ، وظن ريو أن هذه هي الساعة التي يجب فيها أن يخلو إلى نفسه ، ولكنها كانت أيضاً الساعة التي يشعر فيها كل سجناء هذه المدينة بوجوب تركهم لأنفسهم ، وأنه ينبغي عمل شيء من أجل التجميل بالخلاص ، وعاد ريو أدراجه .

ويعود رامبير كذلك أن يقضى وقتاً طويلاً في محطة السكة الحديد ، وكان الدخول إلى الرصيف مموعاً ، ولكن قاعات الانتظار التي يمكن الوصول إليها من الخارج ظلت مفتوحة . وكان المتسولون أحياناً يقضون فيها أيام القيظ ؛ لأنها كانت ظليلة ورطبة ، فكان رامبير يأتي إليها ، ويأخذ في قراءة الجداول القديمة ، واللافتات التي تحظر البصق ، واللوائح التي تنظم أعمال شرطة القطارات ، ثم يجلس في أحد الأركان ، وكانت القاعة معتمة ، وقد وضعت بها مدفأة من الزهر ظلت باردة منذ شهر ،

وأحيطت بثمانى صور لبعض أدوات الرى القديمة ، وعلى الحائط علفت بعض الإعلانات التى تدعو للحياة السعيدة الحرة فى (باندول ، أوكان) وهنا أحس رامبير بشناعة تلك الحرية التى يجدها المرء عندما يكون معدماً . وكانت الصور الباريسية أشد الصور حزناً فى نفسه ، أو هذا على الأقل ما كان يقوله لريو ، فكان هناك منظر يمثل بعض الحجارة القديمة والمياه ، ولوحة تمثل القصر الملوكى ، وثالثة تمثل محطة الشمال ، ورابعة تمثل أحياء البانتيون المقفرة ، وغيرها تمثل أما كن أخرى من المدينة التى لم يكن يعرف أنه يجبها إلى هذا الحد ، وقد أخذت هذه الصور كلها تلاحقه وتحول بينه وبين القيام بأى عمل محدد ، وظن ريو أنه لا يفعل إلا أن يخلط هذه الصور بصور حبه ، وعندما أسر إليه رامبير — ذات يوم — بأنه يجب أن يصحو فى الرابعة صباحاً ، ويفكر فى مدينته ، لم يجد الطبيب صعوبة فى أن يؤول ذلك — حسب تجاربه الخاصة — بأنه عندئذ يجب تخيل المرأة التى تركها ، فهذه هى الساعة التى كان يمكنه فيها أن يملكها ؛ إذ أنه حتى الساعة الرابعة صباحاً لا يفعل الناس عموماً شيئاً ، بل ينامون فى تلك الساعة ، وهذا يدعو إلى الطمأنينة ؛ إذ أن أعز أمانى القلب القلق تنحصر فى أن يمتلك الشخص الذى يحبه إلى الأبد ، أو — إذا حلت ساعة الفراق — أن يتمكن من أن يغمره معه فى سبات عميق لا يقطعه حلم ، ولا ينتهى إلا ساعه اللقاء .

ولم يمر وقت طويل على خطبة الوعظ حتى كان القيظ قد بدأ ،
وأشرف شهريونية على الحلول، وحدث في اليوم التالي ليوم المطر الغزير -
الذى جاء متأخراً عن أوانه وصار العلامة المميزة ليوم الأحد ، يوم
الخطبة - أن انطلق الصيف من عقاله في السماء وفوق المنازل ؛ فهبت رياح
شديدة حارقة طيلة يوم كامل ، جفت على إثرها الجدران ، وتوسطت
الشمس كبد السماء ، وأخذت موجات الحرارة والضوء تجرف المدينة
طيلة النهار ، وأصبح المرء لا يجد خارج الشوارع ذات البواكي ، وخارج
المساكن مكاناً واحداً إلا وكان هدفاً للوهج الذي يعشى الأبصار ،
كانت الشمس تطارد مواطنينا في كل ركن في الشارع ، حتى إذا توقفوا
وجهت إليهم ضربتها ، ولما كان ارتفاع هذا القيظ المبتدى قد انفق
مع ارتفاع عدد الضحايا الذي وصل إلى حوالى السبعائة في الأسبوع ،
فقد أصاب المدينة شبه انهيار ، وقل الزحام في الأحياء الخارجية ،
وخلال الشوارع المسطحة ، والمنازل ذات الشرفات الواسعة . أما في هذا
الحى الذى كان الناس يعيشون فيه دائماً على أبواب منازلهم ، فقد أغلقت
جميع الأبواب ، وارتجت مصاريع النوافذ ، دون أن يدري أحد ما إذا
كان ذلك للحماية من القيظ ، أم من الطاعون ، ومع ذلك فقد كانت الأثاثات
تتسرب من بعض المنازل ، وكان إذا حدث ذلك من قبل ، رأينا بعض

الفضوليين وقد وقفوا في الشارع يرهفون سمعهم ، ولكن يبدو — بعد هذه الإنذارات الطويلة — أن قلوب الناس جميعاً قد تحجرت ، فقد أخذ الجميع يسرون ويعيشون بجانب الأنين ، وكأنه قد أصبح لغة الناس الطبيعية .

وكانت المشادات التي تقع على الأبواب تضطر رجال الأمن إلى التدخل ، وإلى استعمال السلاح ، بما كان يخلق نوعاً من الاضطراب المسكتوم ، وكان يحدث في هذه المعارك أن يسقط بعض الجرحى ، ولكن الناس لم يكونوا يتكلمون إلا عن موتى ، ولا غرو ، فن الطبيعي أن يحدث ذلك في مدينة تضخم فيها كل شيء بفعل الحرارة والخوف ، وأياً ما كان ، فإن التدمير استمر في الازدياد ، حتى أن السلطات قد خشيت أن يتفاقم الأمر ، وبحث جدياً فيما يجب اتخاذ من إجراءات في حالة إذا ما اندفع هؤلاء السكان الرازحين تحت الوباء في طريق الثورة ، ونشرت الصحف قرارات تجدد حظر الخروج ، وتهدد كل من يخالف ذلك بعقوبة السجن ، وراحت الدريبات تجوب المدينة ، وكثيراً ما كنا نرى الحراس وقد امتطوا صهوات جيادهم في الشوارع المقفرة الملتهبة ، وأخذوا يمشون وسط صفوف من النوافذ المغلقة معلنين عن مقدمهم بوقع سنايك الخيل على بلاط الطريق ، فإذا ما اختفى الدورية ، عاد الصمت اليأس الثقيل يخيم على المدينة ، وكان يسمع على بعد صوت الطلقات النارية التي تطلقها كتائب خاصة صدرت إليها أوامر حديثة بقتل السكّاب والقطط خشية أن تكون وسيلة لنقل البراغيث ، وساعدت تلك الانفجارات الجافة على نشر جو يشبه جو الغارات الجوية في المدينة .

ووسط القميط والسكون كان كل شيء يبدو لقلوب مواطنينا المذمورين
 أكثر أهمية مما هو ، ولأول مرة أصبح الناس شديدي الحساسية بالنسبة
 للألوان التي تعترى السماء ، والروائح التي تنبعث من الأرض ، والتي تميز
 الفصول المختلفة ، وفهم كل منا والهلح يكاد يقتله أن القميط يساعد الوباء ،
 كما لاحظ الجميع — في نفس الوقت — أن الصيف ألح في البقاء ، ولم يعد
 يتزحزح ، أما صيحات العصفير في السماء مساء فوق المدينة فقد ضعفت ؛
 ذلك أنها لم تعد تناسب وغروب شهر يونية الذي يدفع الأفق في بلدنا إلى
 الورا ، ولم تعد الزهور تصل الأسواق في شكل براعم ، بل صارت متفتحة ،
 ولم تكن تمضي فترة البيع الصباحية حتى ترى وريقاتها تغطي الأرضة
 المغبرة ، فكان من الواضح أن الربيع قد كل بعد ما بذل من ذات نفسه
 في صورة آلاف الزهور المتألقة في كل مكان حول المدينة ، وهو الآن
 قد أخذ في الكرى ، وراح يتحطم ببطء تحت ضغط الطاعون والقميط
 المزدوج . ولقد كانت سماء الصيف هذه ، وتلك الشوارع التي شحبلونها
 بفعل الأتربة والضجر ، تحمل في نظر مواطنينا نفس المعنى الذي يحمله
 الموتى المائة الذين يثقلون كاهل المدينة كل يوم ، ولم يعد في وسع الشمس
 الدافقة ، ولا تلك الساعات التي تفوح بالنعاس وطعم العطلة أن تغري
 الناس — كما كانت تفعل من قبل — بإقامة المهرجانات للماء والموائد
 الفاخرة ، بل كانت — على العكس من ذلك — ذات وقع قاس في
 المدينة المغلقة الصامتة ؛ فقد فقدت ذلك البريق النحاسي الذي يميز الفصول
 السعيدة ؛ ذلك أن سماء الطاعون تطفئ كل لون ، وتدفع كل بهجة
 إلى الحرب .

وكانت هذه من أكبر الثورات التي أحدثها المرض ، فقد كانت عادة مواطنينا جميعاً من قبل أن يستقبلوا الصيف بالبهجة والمرح . كانت المدينة تفتح أبوابها حينئذ نحو البحر ، ويأخذ شبابها يتدفق على الشواطئ ، أما هذا الصيف ، فكان الأمر على العكس من ذلك . كان البحر القريب محظوراً ، ولم يعد للأجسام حق في مباهاجته . ما العمل في مثل هذه الظروف ؟ إن تارو هو أيضاً الذي يعطينا أصدق صورة لمدينتنا في هذا الوقت ؛ فقد كان يقتنع — بطبيعة الحال — ما يحزره الطاعون من تقدم ، وقد لاحظ — بحق — أن المذيع قد سجل إحدى نقط التحول في سير المرض حين لم يعد يعلن عن مئات الوفيات كل أسبوع ، ولكن عن اثنين وتسعين ، أو مائة وسبعة ، أو مائة وعشرين في اليوم ، فقال : « إن الصحف والسلطات (تناور) الطاعون بمهارة ، فهم يظنون أنهم ينتزعون منه بعض نقط الانتصار التي سجلها ، لأن رقم مائة وثلاثين أقل ضخامة من تسعمائة وعشرة . وقد صور كذلك مشاهد الوباء المؤثرة أو الطنانة . من ذلك : أن امرأة تقيم في حى مقفر مغلق النوافذ فتحت نافذتها فوق رأسه فجأة وهو سائر ، وصرخت صرختين مدويتين قبل أن تعيد إغلاق النافذة على ظلام غرفتها الكشيف . ومنها ما لاحظته أيضاً من أن حبات حلوى الذمغاع قد اختفت ذات مرة من الصيدليات ، لأن الكثيرين كانوا يمتصونها ليحصنوا أنفسهم ضد العدوى .

واستمر تارو على هذا النحو في مراقبة أشخاصه المحبطين ، ومنه نعرف أن المعجوز الضئيل الجسم صديق القبط يعيش هو الآخر في المأساة ؛ فذات صباح دوت طلقات نارية ، وقد أدى ذلك — كما كتب

تارو — إلى موت أغلبية القبط ، وإلى إرهاب القبط الأخرى ، فهجرت الشارع ، وفي نفس اليوم خرج العجوز الضئيل إلى الشرفة في ساعته المحددة ، وبدأ عليه الدهشة ، فأنحنى على حافة شرفته ، وراح يحرب الشارع ببصره من نهايته حتى نهايته ، ثم صمم على الانتظار ، وكانت يده تضرب سور الشرفة ضربات خفيفة ، وطال انتظاره ، ثم قطع بعض الورق إلى قطع صغيرة ، وبعد ذلك دخل وخرج من جديد ، ولما طال عليه الوقت ، سارع بالدخول ، وأغلق خلفه أبواب الشرفة في غضب .

وفي الأيام التالية تكررت نفس المشاهد ، ولكن كانت ملامح العجوز تتم عن حزن واضطراب نفسى آخذ في التزايد . وبعد أسبوع انتظر تارو — دون جدوى — ظهور الرجل من جديد كما كان يحدث في كل يوم ، ولكن النواقد ظلت معلقة على حزن لا يستعصى على الفهم ، ومن ثم كانت هذه هى النتيجة التى سجلها تارو في مذكراته : « يحظر البصق على القبط في وجود الطاعون ، » .

ومن جهة أخرى عندما كان تارو يعود إلى منزله مساء كل يوم وهو واثق من أنه سيملتق بحارس الفندق الليلي بوجهه الواجم وقد جعل يذرع المسكان ذهاباً ورجيئة ، وكان ذلك الحارس لا يفتأ يذكر لكل قادم أنه نذباً بما حدث ، كما كان تارو يعترف له بأنه سمعه حقاً يتنبأ بوقوع مصيبة ما ، ولكنه يذكره بأن تمسكيره كان يتجه إلى وقوع زلزال ، فيجيب الحارس العجوز عليه بقوله : « أه ؟ لو كانت المسألة مسألة زلزال ، إذن لحدثت هزة واحدة كبيرة ، وانتهى الأمر ، ولراحوا بعد ذلك يحصون من ماتوا ومن ظلوا على قيد الحياة ، وبذلك تنتهى السكارثة ، أما هذا

المرض اللعين ا لحى أولئك الذين لم يصابوا به ، لا ينجون من نتائجه
ومخاوفه .

أما مدير الفندق فلم يكن همه أقل من ذلك ، ففي أول الأمر كان
المسافرون الذين منعوا من مغادرة المدينة يرون البقاء في فندقه ، ولكن
لما طال أمد الوباء ، أخذ الكثيرون يفضلون — بالتدريج — أن يقيموا
لدى أصدقائهم ، وظلت غرف الفندق منذ ذلك الحين خاوية لنفس
الأسباب التى ساعدت على شغلها فى بادىء الأمر، إذ أنه لم يعد يرد إلى
المدينة مسافرون جدد ، وظل تارو أحد رواد الفندق النادرين .

وكان المدير لا يدع فرصة تمر دون أن يذكره بأنه لولا رغبته فى
أن يكون رقيقاً مع آخر عملائه ، لأهلق الفندق منذ وقت طويل، وكثيراً
ما كان يطلب إلى تارو أن يقدر المدة التى يحتمل أن يعيشها الوباء فى
المدينة ، وكان تارو يجيبه بقوله :

— « يقولون : إن البرد يضايق هذا النوع من الأمراض . » فيجن
جنون المدير ، ويقول :

— ولكن لا يوجد عندنا برد بالمعنى الصحيح يا سيدى ، هذا
إلى أنه لا يزال بيننا وبين هذه الفترة أمد طويل ، يا سيدى .

وكان المدير يعلم علم اليقين أن المسافرين سيظلون — حتى بعد انتهاء
الوباء — يتجنبون المدينة لمدة طويلة ، فقد كان من شأن هذا البطاعون
أن يؤدى إلى خراب السياحة ، أما المطعم ، فقد عاد السيد أوتون
— الرجل البومة — إلى الظهور فيه بعد أن احتجب مدة طويلة ، ولكن

لم يعد يتبعه سوى كلبيه المدربين ، ودلت بعض التحريات على أن زوجته كانت قد قامت بتمريض أمها التي ماتت وتم دفنها ، وأنها الآن تقضى أيام الحجر الصحى .

وقال المدير لتارو ذات يوم :

— إني لا أحب هذا ، فهذه السيدة مشتبه فى أمرها ، سواء أكانت تقضى أياماً فى الحجر الصحى أم لا ، وبالتالى يعتبرون هم أيضاً مشتبهاً فى أمرهم ، وأجابه تارو بقوله :

إذا نظرنا إلى المسألة من هذه الناحية ، كان الناس جميعاً مشتبهاً فى أمرهم ، ولكن المدير كان صارماً ، وكانت آراؤه حول هذه المسألة جد حاسمة ، فكان يعقب قائلاً :

— كلا يا سيدى ، لا أنا ولا أنت مشتبه فى أمرنا ، أما هم ، فهذه حالتهم .

ولكن لم يكن السيد أوتون قد غير عاداته لأسباب تافهة كهذه ، وقد أصبح الطاعون الآن هو المسئول عن ذلك ؛ فكان يدخل المطعم بنفس طريقته السابقة ، ويجلس قبل أولاده ، ويوجه لإليهم ملاحظاته الخاصة بواجبات اللياقة بلهجة عدائية ، ولم تتغير سوى هيئة الصبي الصغير ، فكان يرتدى ملابس الحداد كما كانت ترتديها أخته ، وأصابه شيء من الانطواء على نفسه ، فأصبح كما لو كان ظلاً صغيراً لآبيه ، وكان الحارس الليلي لا يميل إلى السيد أوتون ، فقال يوماً لتارو :

— أما هذا فسيهلك مرتدياً ملابسه كاملة ، ولذلك لن يحتاج لتفصيل ، بل سيرحل مباشرة .

ومما ورد ذكره في المذكرات خطبة پانلو الوهضية ، وقد علق عليها بقوله :

« إني أفهم تلك الحمية المحبوبة ؛ فإن العادة كانت قد جرت على اللجوء إلى البلاغة في بداية الأوبئة ونهايتها ، أما فيما يتعلق ببدايتها ، فلم تنته تلك العادة بعد ، كما أنها قد عادت من جديد بالنسبة لنهايتها ، والناس لا يعتادون على الحقيقة ، أى على الصمت ، إلا وقت المصيبة ، فلنتظر » .

وأخيراً كتب تارو في مذكراته أن حديثاً طويلاً قام بينه وبين الدكتور ريو ، ويكتفى بتقرير أنه كان ذا نتائج طيبة ، ولم ينس أن يلاحظ — بهذه المناسبة — أن عيني مدام ريو الأم من اللون البنى الفاتح ، وانتهى من ذلك إلى هذا الرأى الغريب ، وهو أن نظرة تحتوى على كل هذا القدر من الطيبة لا بد أن تكون أقوى من الطاعون ، ثم خصص فقرات - كبيرة نوعاً ما - للحديث عن مريض الربو العجوز الذى كان يعالجه ريو .

ذلك أنه كان قد ذهب لزيارته مع الطبيب بعد حديثهما ، وكان العجوز قد استقبله بضروب من السخرية وفرك اليدين ، وقد كان إذ ذاك على فراشه معتمداً بظهره على وسادته ، وأمامه قدرا البازل . وما أن رأى تارو حتى قال : أه ! هذا واحد آخر ، لقد انقلبت الآية ، وصار عدد الأطباء أكبر من عدد المرضى ، ذلك لأن الأمور تتدهور بسرعة . الواقع أن القس على حق ، إنهم يستحقون ذلك ، . وفى اليوم التالى عاد تارو إلى زيارته دون إنذار .

ويسجل تارو في مذكراته أن العجوز المريض بالربو — وقد كان من
تهار الخردوات — قرر وهو في الخمسين من عمره أنه عمل ما فيه الكفاية ،
ثم لزم فراشه ، ولم يغادره منذ ذلك الحين ، ومع ذلك فقد كان الوقوف
أكثر فائدة للربو من الرقاد ، وقد ساعده دخل صغير يمسكه على بلوغ
سن الخامسة والسبعين ، وإن كان يبدو أكثر شباباً من ذلك ، وهو
لا يطيق أن يرى الساعات ، ولا توجد ساعة واحدة في منزله ، وكان
يقول :

د الساعة غالية الثمن ، ولا فائدة منها .

وكان يعرف الوقت ، ولا سيما ساعة تناول الطعام — وهي الساعة
الوحيدة التي تهتم — بمساعدة قديره اللذين يكون أحدهما مليئاً بالبازلاء
هندما يستيقظ من نومه ، وكان يملأ الآخر بما في الأول حبة حبة بحركة
رتيبة متناسقة ، وبذلك وصل إلى بغيته ، وحدد له القدر أوقات يومه ،
وكان يقول : «كلمات ملأت القدر خمسة عشرة مرة ، كان على أن تناول
الطعام مرة واحدة ، إن الأمر غاية في البساطة .

وإذا صح ما تقوله عنه زوجته ، فإن بشائر هذه الموهبة قد ظهرت
عليه منذ شبابه المبكر ، فالواقع أنه لم يهتم بشيء قط ، لا بالعمل
ولا بالأصدقاء ، ولا بالمقهى ، ولا بالموسيقى ، ولا بالنساء ، ولا بالنزهة ،
ولم يخرج قط من مدينته إلا مرة واحدة اضطر فيها أن يذهب إلى مدينة
الجزائر لأمر عائلية ، ولكنه توقف في أول محطة بعد وهران ، ولم
يستطع أن يتابع المغامرة إلى أبعد من ذلك ، وعاد أدراجه إلى بيته
بأول قطار .

ولما بدت على تارو الدهشة من حياة الرهبنة هذه التي يحياها ، شرح له — على وجه التقريب — أن الدين يعتبر أن النصف الأول من حياة الإنسان ضرب من الصعود ، وأن النصف الآخر ضرب من النزول ، وأن أيامه في أثناء النزول لا نكون ملكاً له ، إذ من الممكن أن تنتزع منه في أية لحظة ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يفعل بها شيئاً ، بل ومن الأفضل ألا يفعل بها شيئاً ، هذا إلى أنه لم يكن يخشى التناقض ، ومعارضة وجود الله لا تخيفه ، لأنه لم يلبث أن قال لتارو : « لا شك في أن الله لا وجود له ، إذ أنه لو كان موجوداً لما كانت هناك حاجة لوجود القسس ، ولكن تارو لم يكذب يسمع بعض الأفكار التي تلت ذلك حتى فهم أن هذه الفلسفة متصلة اتصالاً وثيقاً بكثرة ما تقوم به كنيسة حيه من جمع التبرعات .

وقد ختم تارو الصورة التي رسمها لهذا العجوز بأمنية تبدو عميقة سمها منه عدة مرات ، وهي أنه كان يأمل أن يموت هرماً جداً .

وتساءل تارو : « أهو قديس ؟ » وأجاب على ذلك بقوله : « نعم إذا كانت القداسة مجموعة من العادات » .

وفي نفس الوقت قام تارو بوصف دقيق — نوعاً ما — ليوم من أيام المدينة الموبوءة ، وهكذا أعطانا فكرة صحيحة عن مشاغل مواطنينا ، وحياتهم خلال هذا الصيف ، وقد قدم لذلك بقوله : « لا يضحك أحد سوى السكارى ، وهؤلاء كانوا يسرفون في الضحك » . وبعد ذلك بدأ وصفه فقال :

« في الصباح المبكر كانت نسبات خفيفة تجوب المدينة التي لم تزل مقفلة ، وفي هذه الساعة التي تتوسط وفيات الليل واحتضارات النهار كان يبدو أن الطاعون يتوقف عن النشاط لحظة يلتقط فيها أنفاسه ، وكانت كل الحوانيت مغلقة ، وإن كان قد كتب على بعضها : « مغلق بسبب الطاعون » . ومعنى هذا أنها ليست على وشك أن تفتح أبوابها مع غيرها من الحوانيت ، وفي هذه الساعة أيضاً لا يكون بائعو الصحف قد أفاقوا تماماً من نعاسهم ، لذلك لا تراهم ينادون على الأخبار ، بل يجلسون في أركان الشوارع وقد أسندوا ظهورهم إلى حوائطها ، وراحوا يعرضون بضائعهم بجوار المصاييح في حركات تشبه حركات من يمشون وهم نيام ، ولسكنهم لا يلبثون أن يستيقظوا على مرور أولى عربات الترام ، فينتشرون في جميع أرجاء المدينة ، ويمدون أذرعتهم بأوراق تنفجر منها كلبة «الطاعون» . هل سيستمر الطاعون إلى الحريف ؟ إن الأستاذ د. ب. يجيب بالنفي . مائة وأربعة وعشرون ميلاً ، هذه هي حصيلة اليوم الرابع والتسعين للطاعون ، .

« ورغم أزمة الورق التي تزداد حدة كل يوم ، والتي اضطرت بعض المجلات إلى الإقلال من عدد صفحاتها ، ظهرت جريدة جديدة ، « جريدة الوباء » ، التي أخذت على عاتقها « إخبار المواطنين بكل حياد وأمانة عن حد المرض وجزره ، وتزويدهم بأوراق الآراء عن مستقبل الوباء ، وتكريس أنهار صفحاتها لمساندة كل من يجد في نفسه استعداداً لمكافحة الوباء من بين السكان ، سواء أكان معروفاً أم مجهولاً ، وحماية الروح المعنوية للسكان ، وأن تنقل إليهم توجيهات المسؤولين ، وباختصار قد

أخذت على عاتقها أن تجمع كل العرائم والهمم لمكافحة السكارة التي أصابتنا مكافحة فعالة . . والحقيقة أن هذه الجريدة لم تلبث أن قصرت نشاطها على الإعلان عن منتجات جديدة أكيدة المفعول لمنع المرض .

« وفي نحو الساعة السادسة صباحاً تبدأ كل هذه الصحف توزع أعدادها بين الصفوف التي تقف أمام أبواب المحلات قبل موعد افتتاحها بأكثر من ساعة ، ثم في عربات الترام الفاصلة بالركاب المقبلين من الأحياء الخارجية ، لقد أصبح الترام هو الوسيلة الوحيدة للنقل ، وإن كانت عرباته لا تتقدم إلا بصعوبة ، وقد تسكدس الركاب فوق سلسها حتى يكاد يتصدع .

ومن الغريب حقاً — بالرغم من ذلك — أن كل الركاب يعمدون ، بقدر الإمكان ، إلى أن يديروا ظهورهم لبعضهم لبعض من أجل تجنب العدوى . ولا يكاد الترام يصل إلى إحدى المحطات ، ويفرغ فيها شحنته من الرجال والنساء ، حتى يسارع كل منهم في الابتعاد عن غيره ليكون بمفرده ، وكثيراً ما تقوم المشادات بسبب احتلال الأمزجة حتى أصبح هذا الداء مزمناً .

« وبعد مرور عربات الترام تصحو المدينة تدريجياً ، وتفتح المقاهي أبوابها على عدادات حملت بالإعلانات التي من قبيل : « لا يوجد بن » ، « أحضروا معكم السكر » الخ . . ثم تفتح أبواب الحوانيت ، وتبدأ الشوارع في الازدحام . وفي نفس الوقت يزداد الضوضاء ، ويبدأ القيث يلمب سماء شهر يوليو بسياطه ، وكانت هذه هي الساعة التي يخرج

فيها من لا عمل لهم إلى الشوارع الكبيرة . ويبدو أن أغلب الناس قد
حصروا همهم في محاولة رد الطاعون على أعقابهم بمرض ما لديهم من
تurf ؛ ففي نحو الساعة الحادية عشرة من كل يوم تغص شوارع المدينة
الرئيسية بالشبان والشابات الذين تبدو عليهم الرغبة الجامحة في الاستمتاع ،
تلك الرغبة التي تنمو وترعرع على لبان المصائب الكبرى ؛ فإذا ازداد
الوباء امتداداً ، زاد معه مفهوم الأخلاق اتساعاً ، حتى لا يبعد أن نرى
مهرجانات د ميلانو ، الصاخبة تقوم على حافة القبور .

د وفي ساعة الظهيرة تمتليء المطاعم في غمضة عين ، وسرعان ما نرى
أولئك الذين لم يجدوا لهم مكاناً بداخلها يقفون على أبوابها في مجموعات
صغيرة ، وتبدأ الشمس تفقد لونها بفعل القيث المتزايد ، ويظل
طابو الطعام ينتظرون دورهم تحت مظلات المحال على حافة الشارع
الذي يكاد يتفجر من الحر ، وإذا كانت المطاعم تغص بالناس ؛ فذلك
لأنها تبسط لكثيرين منهم مشكلة التمرين ، وإن كانت تترك القلق من
العدوى كما هو ، ولذا نرى الرواد يقضون الدقائق العديدة في مسح
أدوات المائدة بعناية ، ومنذ وقت ليس بالطويل كانت بعض المطاعم
تعلق هذا الإعلان : « هنا نعقم أدوات المائدة بالغلي » ولكنها استغنت
بالترديد عن مثل هذه الإعلانات ، لأن العملاء كانوا مضطرين للإقبال
عليها على أى حال ، فالعملاء ينفقون عن طيب خاطر ، ويتساقون
بعصية على شراء النبيذ الجيد ، أو الذي قيل إنه جيد ، وعلى الأطباق
الإضافية المرتفعة الثمن ، ويظهر أن الموقف قد انفجر بالفوضى يوماً
في أحد المطاعم بسبب الذعر الذي ساد عندما أصيب أحد الرواد

بغشيان ، واثنايه الشحوب ، فتمض من مكانه ، ومشى بخطى مضطربة
مسرعا نحو الخروج .

وفي نحو الساعة الثانية تبدأ المدينة تخلو تدريجياً ، وهذه هي اللحظة
التي يلتقي فيها الصمت بالتراب والشمس والطاعون في المدينة ؛ فعلى طول
الطريق بين المنازل الكبيرة تدفق الحرارة تدفقاً دون توقف ،
وهذه كلها ساعات سجن طويلة تنتهي بتلك الأمسيات الملتبمة التي تزحف
على هذه المدينة المزدحمة الصاخبة . وكانت الأمسيات في أثناء الأيام
للقيظ تقفر شيئاً فشيئاً دون أن يدري أحد سبب ذلك .

أما في الوقت الحاضر ، فقد أصبح في وسع أول نسمة تهب أن
تبعث في المدينة شيئاً من الارتفاع ، وإن كانت لا تبعث فيها الأمل ،
وحيثما ينزل الجميع إلى الشوارع ، ويستسلمون للنعاس أو الشجار ، أو يشتهي
بعضهم بعضاً ، وفي ظل سماء يوليو الحراء هذه تدلف المدينة المملأ
بالصخب وأزواج العشاق نحو ليل مبهور الأنفاس ، ومن المناظر التي
تحدث كل مساء أن يرى الناس رجلاً ملهما يرتدى قبعة من الجوخ ،
ورباط عنق كبير العقدة ، وقد راح يعبر الشوارع ويصيح في الناس :
« إن الله كبير ، أقبلوا عليه ، . ولكن عبثاً ، فإن الناس يفضلون
الاندفاع نحو أى شيء لا يعرفونه معرفة جيدة ، أو أى شيء يبدو لهم
أعظم أهمية من الله .

ذلك أن الدين كان قد ظل محتفظاً بمكانته أول الأمر ، عندما كان
الناس يعتقدون أن الطاعون كغيره من الأمراض ، ولكن لما رأوا
أن الأمر يجد خطير أداروا وجوههم نحو المتعة ، وهكذا يرى القلق

الذى يرأس أثناء النهار على الوجوه ، وقد تحول في المساء القائط المغبر
إلى نوع من الهياج الأهوج ، والحرية الحرقاء التي تصيب السكان
جميعا بما يشبه الحمى .

« وأنا أيضا مثلهم . ولكن ماذا ! إن الموت يعتبر لا شيء
بالنسبة لمن هم مثل من الرجال . لأنه حادث يبين أنهم كانوا على
صواب » .

كان تارو هو الذى طلب إلى ريو تلك المقابلة التى يتحدث عنها
فى مذكراته ، وفى المساء المتفق عليه جلس ريو ينتظره ، وقد راح ينظر
إلى أمه التى جلست فى هدوء ووقار على مقعد فى ركن من أركان غرفة
المائدة ؛ فى هذا الركن كانت السيدة تضى أوقاتنا كلها فرغت من أعمالها
المنزلية كانت تنتظر ، وقد وضعت يديها على ركبتيها ، ولكن ريو لم يكن
متأكداً حتى من أنه هو الذى تنتظره ، غير أنه كان يحدث شيء من
التغير فى وجه أمه كلها حضر ، كان كل ما طبعته بحياتها السكادحة على
وجهها من صمت يبدو وقد دبّت فيه الحياة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى
صمتها العميق ، وفى هذا المساء كانت تنظر من النافذة إلى الشارع الذى
أصبح الآن مقفراً ، وكانت الإضاءة الليلية قد خفضت بمقدار الثلثين ،
فكان هذا المصباح أو ذاك يلقى من بعيد بشعاع خافت على ظلال المدينة .
وقالت مدام ريو :

— هل سيستمر تخفيض الإضاءة طيلة مدة الطاعون ؟

— يحتمل ذلك .

— أرجو ألا تستمر هذه الحال حتى الشتاء ، وإلا عمت الكآبة ..

وأجاب ريو :

— نعم .

ثم رأى نظرة أمه تستقر على جبينه ، وكان يعلم أن القلق والإرهاق الذى عاتته فى الأيام الأخيرة قد حفر فى وجهها أخاديد .

وقالت مدام ريو :

— ألم تسر الأمور سيراً حسناً اليوم ؟

— أه ! كالمعتاد .

— كالمعتاد ؟ معنى هذا أن المصل الجديد الذى أرسلته باريس قد يرمى على أنه أضعف مفعولاً من الأول ، وأن الإحصائيات استمرت فى الصمود ، ولم يكن فى الإمكان استخدام الحقن بالمصل الوقائى إلا فى نطاق الأسرى أصيبت فعلاً ؛ إذ كان ينبغى تزويد المدينة بكميات ضخمة منه حتى يمكن تعميم استعماله ، وقد أصبحت الآن غالبية الأورام تستعصى على الانفجار ، كما لو كان موسم تجمدها قد حل ، ولذا صارت تسبب للبرضى عذاباً أليماً ، كما ظهرت فى المدينة منذ الليلة حالتان للبرضى بصورة جديدة ، فقد صار الطاعون رئوياً ، وقد حدث فى نفس اليوم أثناء أحد الاجتماعات أن رأى الأطباء أنفسهم فى حالة ارتياح أمام مدير قد أفلت منه الزمام ، فطلبوا اتخاذ إجراءات جديدة ؛ لئلا يمكن تجنب العدوى التى تنقل من فم إلى فم فى حالة الطاعون الرئوى ، وكان لهم ما أرادوا ، وكالمعتاد ، لم يكن أحد يدرى من الأمر شيئاً .

ونظر ريو إلى أمه ، وذكرته نظرة عينيها البنيتين بسنوات مضت نهل فيها من حنانها ، فسألها :

— هل أنت خائفة يا أماء ؟
— فى مثل سنى يصير الإنسان لا يخاف كثيراً .
— النهار طويل ، وأنا لا أكاد أظهر فى البيت مطلقا .
— لا معنى أن أقضى وقتى فى انتظارك ، مادمت أعرف أنك
ستعود ، وإذا لم تكن هنا ، فإنى أفكر فيما يشغلك من عمل ، هل لديك
أخبار ؟

— نعم كل شىء على ما يرام ، كما جاء فى آخر برقية لها ، ولكننى
أعلم أنها تقول لى ذلك لتطمئنى .

ودن جرس الباب ، فابتسم الطبيب لأمه ، وذهب ليفتحه ، وعلى
عتبة الباب المعتمدة بدا نارو كمدب كبير لف فى رداء رمادى اللون ،
وأجلس ريو الزائر أمام مكتبه بينما ظل هو واقفا خلف مقعده ، ولم
يكن يفصلهما سوى المصباح الوحيد المضاء فى الغرفة ، والموضوع فوق
المكتب .

وقال نارو دون مقدمة :

— أعلم أننى معك أستطيع أن أنكلم بصراحة .

وأوما ريو موافقا فى صمت :

— بعد خمسة عشر يوما ، أو شهر إن تعود ذا فائدة هنا ، فقد
قهرتكم الأحداث .

وقال ريو :

— هذا صحيح .

— إن تنظيم الخدمة الصحية جد ردىء ؛ إذ ينقصكم الوقت والرجال .

وأعترف ريو للمرة الثانية . بأن هذه هى الحقيقة .

— وقد بلغنى أن المديرية تفكر فى نوع من الخدمة المدنية ، لى
تجبر الرجال الأصحاء على المشاركة فى الإنقاذ العام .

— إنك على علم بما يجرى ، واسكن الشعور بالاستياء كبير ، ولذا
لا يزال المدير متردداً .

— لماذا لا يطلبون متطوعين ؟

— لقد فعلوا ، ولكن النتيجة كانت ضئيلة .

— ذلك لأنهم فعلوا ذلك بالطريق الرسمى ، وبغير إيمان بمجدواه .

إن ما ينقصهم هو الخيال ، كما أن تصرفاتهم ليست فى مستوى الأوبئة
إطلاقاً ، والأودية التى يتخيلونها لا تسكاد تكفى لعلاج الزكام ، وإذا
تركناهم يتصرفون فسيلقون حتفهم ، ونحن معهم .

— هذا جد محتمل ، وينبغى أن أقول : إنهم مع ذلك قد فكروا

وأجاب ريو .

فى استخدام المسجونين فيما أسميه بالأعمال التى تتطلب مجهوداً كبيراً .

— إنى أفضل الرجال الأحرار .

— وأنا أيضاً ، ومع ذلك فلماذا ؟

— إن أحكام الإعدام تروعى .

ونظر ريو إلى تارو ، وقال :

— وإذن ؟

— وإذن فلدى خطة لتنظيم تشكيلات صحية من المتطوعين ،

لئذ نوالى بالقيام بذلك ، ولنترك إدارة المدينة فى حالها ، هذا إلى أنها قد

أفقلت منها الزمام ، أما أنا فلي أصدقاء في كل مكان ، وسيكونون نواة هذا العمل ، وسأشترك — أنا أيضا — فيها بطبيعة الحال .

وقال ريو :

— لعلك تظن أن سأقبل بسرور ، إن المرء في حاجة إلى العون ، ولا سيما في هذه المهنة ، وهأنذا أتعهد لك بالحصول على موافقة المديرية على الفكرة ، هذا إلى أن لم يصبح في وسعنا الاختيار ، ولكن ..
وأخذ ريو يفكر ، ثم واصل كلامه قائلا :

— ولكن هذا العمل قد يعرض القائمين به للدوت ، وأنت تعرف هذا جيدا ، ومهما يكن من أمر ، فإنه يجب على أن أسألك : هل فكرت في الأمر جيدا ؟

ونظر إليه تارو بعينيه الشهيابين الهادتين ، ثم قال :

— ما رأيك في خطبة پانلو ، يا دكتور ؟

وقد وجه هذا السؤال بشكل طبيعى ، وكان رد ريو عليه طبيعياً كذلك حين قال :

— إن المادة الطويلة التي عملت خلالها في المستشفيات تجعلنى لا أرحب بفكرة العقاب الجماعى ، ولكنك تعرف أن المسيحيين يقولون ذلك أحيانا دون أن يعتقدوا حقيقة فيما يقولون ، لأنهم أحسن عما يبدو .

— ولكنك بلا ريب تظن — مثل پانلو — أن للطاعون حسنة ، وأنه يفتح عيون الناس ، ويدفعهم للتفكير !

وهز الدكتور رأسه كمن فقد صبره ، ثم قال :

— شأن كل أمراض هذا العالم ، كل ما يصدق على أمراض هذا

العالم جميعاً ، يصدق أيضاً على الطاعون . نعم إن ذلك قد يفيد في أن يساعد بعض الناس على أن يصبحوا عظماء ، ومع ذلك فإننا نرى البؤس والآلام التي يجربها الطاعون ، ونستسلم له ، فلا بد وأن نكون بجانب أو عياناً أو جنباً .

ولم يكن ريو قد رفع صوته إلا قليلاً ، ولكن تارو أتى بحركة من يده كما لو كان يريد تهدئته ، ثم ابتسم .

وقال ريو — وهو يهز كتفيه — :

— نعم ، ولكنك لم يجب على سؤالى . هل فكرت في الأمر ؟ واعتدل تارو في جلسته على المقعد الوثير ، ومد رأسه إلى الضوء ، وقال :

— هل تؤمن بالله يا دكتور ؟

وهنا أيضاً كان توجيه السؤال بشكل طبيعي ، ولكن ريو تردد في هذه المرة بعض الشيء ، ثم قال :

— كلا ، ولكن ماذا تعنى بذلك ؟ إننى فى الظلام ، وأحاول أن أرى الأمور بوضوح ، وقد مضى وقت طويل ، منذ أن أقلعت عن أن أجد في ذلك غرابة .

— أليس هذا هو الذى يفصلك عن بانلو ؟

— لا أعتقد ذلك . إن بانلو رجل دراسة ، ولم ير الموت كثيراً ، وهو لذلك لا يتكلم إلا باسم إحدى الحقائق . . ولكن أقل قسوس الريف شأننا — بمن يشرفون على تابعيهم — لابد أن يفكر بنفس الطريقة

التي أفكر بها ، إذا ما سمع حشيرة محتضرة . لا بد أن يفكر في إيجاد علاج
للآلم قبل أن يرغب في إظهار ما ينطوي عليه من ميزات .

ونفض ريو واقفا ، وأصبح وجهه الآن مغطى بالظل ، ثم قال :
— لنضع هذا جانباً ما دمت لا تريد الإجابة .

وابتسم تارو دون أن يتحرك من مقعده ، وقال :

— هل لي أن أجيب بسؤال ؟

وابتسم الطبيب بدوره ، وقال :

— إنك تحب الأحاجي والألغاز . هيا .

وقال تارو :

— هذا هو : لماذا نبذل أنت كل هذا التفاني مادمت لا تؤمن بالله ؟

إن إجابتك على هذا قد تساعدني أنا على الإجابة .

ودون أن يخرج الطبيب من الظل الذي غمر وجهه قال :

لأنه أجاب فعلا على هذا السؤال ، وأنه لو كان يعتقد في إله قادر لكف

عن علاج الناس تاركاً له هذا العبء ، ولكن ليس هناك من أحد

— ولا حتى يأنلو الذي يعتقد أنه مؤمن — نعم ليس هناك من يؤمن

بإله من هذا القبيل ، مادامنا لا نرى أحداً يترك له تصريح أمره بأكمله .

وفي هذا الصدد — على الأقل — كان ريو يعتقد أنه يسير في طريق

الحقيقة حين يكافح ضد الخلق في الحالة التي هو عليها .

وقال تارو :

— آه ! هذه إذن هي الفكرة التي لديك عن هنتك ؟

وأجاب الطبيب — وقد عاد إلى الضوء من جديد — :

— تقرّيباً .

فصفر تارو بغمه صغيراً هادئاً ، بينما راح الطيب ينظر إليه ، وقال
الطيب :

— نعم ، إنك تقول لنفسك : إنه لابد أن الأمر لا يخلو من
الغرور ، ولكن ، صدقتي ، ليس لدى من الغرور إلا القدر الضروري ،
لست أدري ماذا ينتظرنى ، ولا ماذا سيحدث بعد كل هذا ، أما فى الوقت
الحاضر ، فهناك المرضى الذين يجب علينا علاجهم ، وبعد ذلك سيكون
لديهم — ولدى أنا أيضاً — من الوقت ما يفكرون فيه ، ولكن علاجهم
هو المسألة العاجلة التى لا تحتل التأجيل ، إنى أدافع عنهم بقدر ما أستطيع ،
هذا كل ما هنالك .

— ضد من ؟

وأدار ريو وجهه نحو النافذة ، وأخذ يتخيل البحر فى ذهنه
من خلف الأفق الذى ازداد حلسكة ، ولم يكن يشعر بغير تعبته ، وفى نفس
الوقت كان يقاوم رغبة مفاجئة طائشة عرضت له فى أن يفتح قلبه أكثر
من ذلك لهذا الرجل الغريب الأطوار ، وإن كان يشعر نحوه بنوع من
الأخوة ، ثم استأنف كلامه قائلاً :

— لا أدري شيئاً يا تارو ، أقسم لك أننى لا أدري شيئاً .

فعندما دخلت هذه المهنة ، دخلتها من غير شعور ؛ لأنى كنت فى
حاجة إليها ؛ لأنها عمل كغيرها من الأعمال . عمل من تلك الأعمال التى
يهفوا إليها الشباب ، وقد يكون ذلك أيضاً لأنها مهنة مسهرة المئال جداً على
شخص مثلى من أبناء العمال ، ثم كان لا بد لى — بطبيعة الحال — أن أرى

الناس يموتون ، أعرف أن هناك أناساً يرفضون أن يموتوا ؟ هل سمعت يوماً امرأة تقول : « أبدأ » ، في لحظة احتضارها ؟ أما أنا فنعم ، وقد لاحظت حينئذ أنه لن يمكنني اعتياد ذلك ، كنت شاباً في ذلك الحين ، وظننت أن ما شعرت به من اشتزاز ينصب على نظام العالم نفسه، ولكنني أصبحت أكثر نواضعاً بعد ذلك ، غير أنني لم أستطع أن أعتاد رؤية الناس يموتون ، أما فيما بعد ذلك ، فلست أدرى شيئاً . وبعد ..

وهنا صمت ريو ، وجلس من جديد ؛ كان يشعر بحفاف حلقة ، وقال تارو بلطف :

— وبعد ؟

— وبعد ، ثم عاد إلى التردد وهو ينظر إلى تارو باهتمام ، ذلك شيء يستطيع رجل مثلك أن يفهمه ، أليس كذلك ؟ ولكن لما كان نظام العالم قد أسس على الموت ، فقد يكون الأفضل بالنسبة للإله نفسه ألا يؤمن الناس به ، وأن يناضلوا ضد الموت بكل ما أوتوا من قوة ، دون أن يرفعوا أيديهم إلى هذه السماء التي تعتمصم بالصمت .

وقال تارو مؤيداً :

— نعم ، أستطيع أن أفهم ذلك ، ولكن انتصاراتكم ستكون دائماً مؤقتة ، هذا كل ما في الأمر .

وأظلم وجه ريو ، وقال :

— دائماً ، أعرف ذلك ، ولكن ليس هذا سبباً يبرر لنا أن نكف عن الكفاح .

— نعم ليس هذا سلبا ، ولكنى حينئذ أتخيل ماذا يعنى هذا الطاعون بالنسبة لكم .

وأجاب ريو :

— نعم ، هزيمة على طول الخط .

وحدث تارو فى الدكتور برهة ، ثم نهض يمشى متثاقلا ناحية الباب ، وتبعه ريو ، وعندما لحق به قال له تارو — وهو يتفاغل بالنظر إلى قدميه — :

— من عليك كل هذا يا دكتور ؟

وكان جوابه الفورى :

— البؤس .

وقتح ريو باب مكتبه ، وفى الدهليز أخبر تارو أنه نازل معه لميادة أحد مرضاه فى أحد الأحياء الخارجية ، وعرض عليه تارو أن يرافقه ، فوافق الطبيب . وفى نهاية الدهليز التقيا بمدام ريو ، وقدم لها الطبيب تارو قائلا :

— أحد الأصدقاء .

وأجابت مدام ريو :

— تشرفت جدا بمعرفتك .

وعندما ذهبت أدار تارو وجهه ناحية من جديد ، وعلى عتبة الباب حاول تارو أن يضيء نور السلم ولكن عبثا ، فظل السلم غارقا فى الظلام ، وتساءل الدكتور عما إذا كان ذلك إجراء اقتصاديا جديدا ، ولكن لم يكن أحد يدرى من الأمر شيئا ، فنذ بعض الوقت انقلب

جميع الأوضاع سواء في المنازل أم في المدينة ، وقد يكون ذلك مجرد أن البوابين والمواطنين — على وجه العموم — لم يعودوا يأبهون بشيء ، ولكن الطبيب لم يجد الوقت الكافي لمواصلة التساؤل ؛ لأن صوت تارو رن خلفه قائلاً :

— كلية أخرى يا دكتور ، حتى ولو بدت لك مدعاة للسخرية : إن الحق كله في جانبك .

وهز ريو كتفيه لنفسه في الظلام ، وقال :
— لا أدرى شيئاً في الحقيقة ، ولكن ماذا تعرف أنت عن ذلك ؟
وقال الآخر — دون أى تأثر — :
— أوه ! لم يبق أمامي ما أتعبه إلا القليل .

وتوقف الطبيب عندما انزلت قدم تارو من خلفه على إحدى الدرجات ، واستعاد تارو توازنه معتمداً على كتف ريو .

وسأله هذا الأخير :

— أتعقد أنك تعرف كل شيء عن الحياة ؟

وانطلقت الإجابة في الظلام بحملها نفس الصوت الهادي :

— نعم .

ولما خرجا إلى الشارع أدركا أن الوقت قد تأخر ، وأن الساعة ربما بلغت الحادية عشرة ، كانت المدينة صامتة لا تسمع فيها إلا بعض الهمهمات . ولم يلبثا أن سمعا عربة الإسعاف ترن أجراسها من بعيد ، وصعدا إلى السيارة ، وأدار ريو المحرك وهو يقول :

— يجب أن نحضر فداً إلى المستشفى لكي نتحقق بالمصل الواقى

حتى تنتهى من ذلك ، ولكن قبل أن تدخل فى هذه المسألة ينبغى أن تقول لنفسك : إن لديك فرصة واحدة للنجاة من كل ثلاث فرص .

— كل هذه التقديرات لا معنى لها يا دكتور ، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه ، ومنذ مائة عام اجتاحت وباء الطاعون جميع السكان فى إحدى مدن فارس ، ولم ينبج منه سوى غاسل المواق الذى لم يكن قد توقف قط عن ممارسة مهنته .

وقال ريو — بصوت بدا فجأة أكثر احتياساً — :

— لقد احتفظ بفرصته الثالثة ، هذا كل ما فى الأمر ، ولكن الحقيقة أننا نجمل كل شئ عن هذا الموضوع .

وفى هذه اللحظة كانا قد دخلا الحى الخارجى ، وكانت كشافات السيارة ترسل ضوءها فى الشوارع المظلمة ، وما لبثا أن توقفا ، وأمام السيارة سأل ريو تارو عما إذا كان يريد أن يدخل معه، وأجاب الآخر بالإيجاب . وأضاء شعاع منبهك من السماء وجهيهما ، وفجأة انفجر ريو بضحكة ودية ، ثم قال :

— هيا يا تارو ، ما الذى يدفعك إلى أن تشغل نفسك بهذا ؟

— لا أدرى ، ربما كانت فكرتى الخلقية .

— أية فكرة خلقية ؟

— فهمى الحقيقة الأمور .

ولى تارو وجهه شطر المنزل ، ولم يعد تارو يرى وجهه إلا عندما صاروا عند العجوز المريض بالربو .

وهذا اليوم التالى بدأ تارو العمل ، لجمع أول فرقة ، ثم أتبعها
بفرق أخرى كثيرة .

ولكن ليس من أغراض الراوى أن يعطى هذه التشكيلات الصحية
من الأهمية أكثر مما لها . نعم ، لعل كثيراً من مواطنينا كانوا يستسلمون
لإغراء المبالغة فى أهمية هذا الدور لو أنهم كانوا فى مكانه ، ولكن
راوينا يميل إلى الاعتقاد بأننا عندما نبالغ فى أهمية الأعمال الجميلة ننسى
بأن نوجه إلى الشر تكميلاً قوياً بطريق غير مباشر ؛ ذلك لأننا نفترض
أن ليس لهذه الأعمال تلك القيمة إلا لأنها نادرة الوقوع ، وأن أعمال
البشر تقوم بالأحرى على دوافع الشر وعدم المبالاة . تلك فكرة لا يشارك
الراوى فيها غيره ، فإن الشر الموجود فى العالم يرجع كله تقريباً إلى الجهل
دائماً ، وإن طيبة النفس إذا لم تتوفر لها الاستنارة ، قد تؤدي إلى نفس
الاضرار التى تنتج عن الشر ، والحقيقة أن الناس أميل إلى الخير منهم
إلى الشر ، ولكن ليس هذا هو المطلوب ، ولكنهم يجهلون — إن قليلاً
وإن كثيراً — وهذا هو ما نسميه الفضيلة والرذيلة ، فأبغض الرذائل
ليست إلا رذيلة الجهل الذى يجعل صاحبه يعتقد أنه يعرف كل شيء ،
ويعطى لنفسه حق القتل . إن نفس القاتل عمياء ، وليس هناك طيبة نفس
حقيقية ، ولا حب جميل إلا وكان مصحوباً بكل ما يمكن من استنارة .

ولذلك يجب أن نحكم على التشكيلات الصحية التي تكونت — بفضل
تارو — بنوع من الرضا الموضوعي ، ولذلك لم يسرف الراوى في استخدام
بلاغته للتغنى بإرادة وشجاعة لا يعلق عليهما إلا أهمية معتولة ، ولكنه
سيستمر يؤرخ لتلك القلوب ، قلوب مواطنينا التي فرقها الطاعون
وأعطشها .

أما أولئك الذين تطوعوا في المنظمات الصحية ، فلم يكن لهم فضل
كبير في هذا التفاني ، لأنهم كانوا يعلمون أنه ليس في وسعهم أن يفعلوا
غير ذلك ، وأن الذي لا يمكن أن يصدق حقاً هو الإحجام عن هذا
العمل ، وقد ساعدت هذه المنظمات مواطنينا على الاندماج في حالة الطاعون
أكثر من ذي قبل ، وأقنعتهم بأنه مادام المرض موجوداً بيننا فإنه ينبغى
عمل كل ما يمكن عمله لمكافحةه . ولما كان الطاعون قد أصبح هكذا
— واجب بعض الناس — فقد بدا على ما هو عليه في الواقع ، أى على
أنه مسألة تهم الناس جميعاً .

وهذا أمر طيب . ولكن ليس من المستساغ أن يهنا المدرس على
أنه يعلم تلاميذه أن اثنين واثنين تساوى أربعة ، ولكنه قد يهنا لأنه
اختار هذه المهنة الجميلة ، فلنقل إذن : إن تارو وزملاءه جديرون بالثناء
على أنهم قد اختاروا أن يشبثوا للناس أن اثنين واثنين تساوى أربعة ،
لا العكس ، ولكن لنقل أيضاً : إن هذه النية الطيبة كانت مشتركة بينهم
وبين المدرس وبين كل من كان له قلب كقلب المدرس ، وأن هؤلاء
كانوا أكثر عدداً مما نظن ، ذلك الأمر الذي يشرف الإنسان ، هذا
على الأقل هو اعتقاد الراوى ، هذا إلى أن ذلك الراوى قد أدرك

ما يمكن أن يوجه إليه من اعتراض ، وهو : أن هؤلاء الرجال قد جازقوا بحياتهم ، ولكن هناك في التاريخ لحظات يعاقب فيها من يجرؤ على القول بأن اثنين واثنين تساوى أربعة بالموت ، والمدرس يعرف ذلك جيداً . والمسألة ليست في أن تعرف ما هي المكافأة ، أو ما هو العقاب الذى يستتبعه هذا التفكير ، وإنما تنحصر المسألة في أن نعرف ما إذا كان اثنان واثنان تساوى أربعة أم لا ، فواطنونا الذين جازقوا في هذا الوقت بحياتهم كان عليهم أن يقرروا ما إذا كانوا في وقت الطاعون أم لا ، وما إذا كان من الواجب عليهم أن يكافؤه أم لا .

وقد دأب كثير من الهداة الجدد في مدينتنا يقولون : إنه لم يعد هناك جدوى من أى شيء ، وأنه ينبغي أن نجشوا على أقدامنا ، وكان تارو وريو وأصداقاؤهما يجيبون على ذلك بما شاءوا ، ولكن النتيجة كانت دائماً ما قد عرفوه ، وهى : أنه يجب علينا الكفاح بطريقة أو بأخرى ، ولا ينبغي أن نجشوا على أقدامنا ، المهم هو حماية أكبر عدد ممكن من الناس من أن يموتوا ، ومن أن يذوقوا الفراق الأبدى ، ولم يكن هناك سبيل إلى هذا إلا سبيل واحد ، وهو مكافحة الطاعون ، ولم تكن هذه حقيقة مرضية ولكنها منطقية .

ومن أجل ذلك كان من الطبيعى أن يبذل كاستل العجوز كل ثقتة وهمته في صنع مصل محلى من المواد التى تتفق له ، وكان هو وريو يأملان في أن يكون مفعول المصل المصنوع من زرع الميكروب نفسه — الذى يلوث المدينة — أنجمع من مفعول المصل الوارد من الخارج ، ولا سيما أن

هذا الميكروب كان يختلف اختلافا طفيفاً عن ميكروب الطاعون على نحو ما هو معروف في الكتب المقررة .

وكان كاستل يأمل في أن يحصل على أول كمية من مصله في القريب العاجل .

ولهذا أيضاً كان من الطبيعي أن نرى جران — الذي لا يتسم بأية صفة من صفات الأبطال — يقوم بأعمال السكرتارية للمنظمات الصحية ، وقد كرست بعض الفرق التي كونها تارو نفسها لأعمال الإسعاف الوقائي في الأحياء المزدحمة بالسكان ، وحاولوا أن يدخلوا فيها قواعد علم الصحة الضرورية ، وقاموا بحصر البدرومات والأسطح التي لم يكن قد تم تطهيرها ، وقامت فرق أخرى بمساعدة الأطباء في الزيارات المنزلية ، وتكفلت بنقل المصابين بل وصارت — فيما بعد — تقوم بقيادة سيارات المرضى والموتى كلما عز وجود المختصين ، ولما كان ذلك يتطلب بعض أعمال التسجيل والإحصاء ، فقد قبل جران أن يقوم بها .

ويرى الراوى — من وجهة النظر هذه — أن جران كان أكثر من ديو أو تارو تمثيلاً لتلك الفضيلة التي تبحث الحياة في المنظمات الصحية ، فقد قال زعم بكل ما لديه من عزيمة وهمة ، ودون تردد ، ولم يكن له إلا هدف واحد ، وهو أن يصبح ذا نفع في الأعمال الصغيرة ، أما الأعمال الأخرى ، فقد كانت منه لا تقوى عليها ، وقد استطاع أن يكرس من وقته للمنظمات بين ثمانى عشرة ساعة وعشرين ساعة يومياً ، ولما أقبل ديو يشكره بحرارة دهش لذلك ، وقال : « ليس هذا أصعب ما في الأمر ،

فهناك الطاعون ، ولا بد لنا من الدفاع عن أنفسنا ، هذا أمر واضح .
آه لو كان كل شيء في مثل هذه السهولة ! . وكان بعد ذلك يعود إلى
جملته ، وكان يحدث أحياناً في المساء — بعد أن تنتهى أعمال البطاقات —
أن يجلس ريو ليتحدث مع جران ، ثم انتهى بأن أشركا تارو معهما
في الحديث ، وفتح جران قلبه لزميليه بسرور لا شك فيه ، وأخذ هذان
الآخران يتبعان باهتمام العمل الذى استمر يثار عليه بأناة وصبر وسط
الطاهون ، وانتهيا هما أيضاً بأن وجدا فيه نوعاً من الترويح .

وكان تارو كثيراً ما يسأل جران : « كيف حال الفارسة » فيجيب
جران هذه الإجابة التى لم تكن تتغير وهو يتسم ابتسامة عسيرة : « إنها
تسير ببطء ، تسير ببطء » . وذات مساء قال جران : « إنه قد تخلى
نهائياً عن وصف فارسته « بالأنيقة » وأنه سيضعها دائماً منذ الآن « بالرشيقة »
وأضاف أن هذا أكثر تشخيصاً . ومرة أخرى قرأ على مستمعيه الجملة
الأولى بعد أن أجرى عليها تعديلاً فأصبحت كما يلي : « فى صباح يوم
جميل من أيام شهر مايو أخذت فارسة رشيقة تعبر ممرات غابة بولونيا
المزهرة على صهوة فرس رائعة » .

ثم علق قائلاً : « على هذا النحو تصبح أحسن من ذى قبل ، أليس
كذلك ؟ وقد فضلت « فى صباح يوم جميل من أيام شهر مايو » لأن
شهر مايو يطول الخشب بعض الشيء » ..

ثم بدا بعد ذلك مشغول البال بالصفة « رائع » ؛ لأنها لم تكن معبرة
في رأيه ، وأخذ يبحث عن التعبير الذى يستطيع فى لقطة واحدة أن
يصور الفرس الجميلة التى يتخيلها تصويراً فوتوغرافياً ، إن صفة « متململة » .

لا تصلح ؛ إنها حقاً مشخصة ، ولكنهما مبتذلة المعنى ، وقد مال حينئذٍ للصفة
« وضاءة » ، ولكنه رأى أنها لا تتسق وموسيقى الجملة ، وذات مساء
أعلن بزهو المنتصرين أنه وجدها : « إنها فرس سوداء دهماء » . وذلك
أن اللون الأسود يدل على الأناقة في صورة غير صارخة ، وهذا في رأيه
بطبيعة الحال .

وقال ريو :

— هذا غير ممكن .

— ولماذا إذن ؟

— لأن « دهماء » لا تدل على السلالة ، وإنما على اللون .

— أى لون ؟

— ليس اللون الأسود على أية حال .

— وبدأ على جران الارتباك ، وقال :

— شكراً ، ومن حسن الحظ أنك هنا . ولكنك ترى كم هو

عسير هذا العمل .

وقال تارو :

— ما رأيك فى « جافخ » ؟ فنظر إليه جران واستغرق في التفكير ،

ثم قال :

— نعم ، نعم !

وأخذت الاقسامات ترسم على وجهه تدريجياً .

وبعد ذلك بوقت ما ، اعترف جران بأن كلمة « مزهرة » تربكه ،

وحيث أنه لم يعرف قط سوى وهران وموتليجار ، فقد كان يطلب أحياناً

من صديقيه بعض الإيضاحات عن الصورة التي تزدهر بها عمرات الغابة ،
والحقيقة أن ربو و تارو لم يستطيعا مطلقاً أن يتصورا هذه الممرات
مزهرة ، ولكن رسوخ تلك الفكرة في ذهن الموظف جعلهما يتأرجحان
في رأيهما . ودهش الموظف من عدم تأكدهما ؛ إذ دأن الفنانين وحدهم
هم الذين يعرفون كيف ينظرون إلى الأشياء . . ومع ذلك فقد وجد
الطبيب ذات مرة في حالة انفعال شديد ؛ ذلك أنه استبدل كلمة «مزهرة»
بعبارة « مليئة بالازهار » . وأخذ يفرك يديه ، ويقول :

« وأخيراً على هذا النحو تستطيع رؤيتهما والشعور بها . ارفعوا
قبعا نكم أيها السادة ! » وأخذ يقرأ الجملة بخيلاء . « في صباح يوم جميل
من أيام شهر مايو ، كانت فارسة رشيدة تجول في عمرات غابة بولونيا المليئة
بالازهار على صهوة فرس جانقة دهما . . ولكن عندما قرأ هذه الجملة
بصوت مرتفع أحس بوقع سيء لثغمتها بسبب الإضافات الثلاث التي في
نهايتها ، فتمتم قليلا ، وجلس مهموماً ، ثم طلب من الطبيب الإذن بالإنصراف ؛
لأنه في حاجة إلى أن يفكر قليلا .

كانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها على جدران الكثير من علامات
الشرود في المكتب ، وقد أسف رؤساؤه كثيراً لوقوع ذلك منه في وقت
كان على البلدية فيه أن تواجه التزامات مضافية بعدد مخفض من الموظفين ،
وقد أبدت المصلحة التي يعمل فيها تضررها من ذلك ، ولامه عليه رئيس
مكتبه ، وذكره بأنه يتناول مرتبه عن عمل لا يؤديه ، وقال له : « يبدو
أنك قد تطوعت في المنظمات الصحية إلى جانب عملك ، وهذا لا يهمني
في شيء ؛ فكل ما يهمني هو عملك ، وإذا أردت أن تكون نافعا في هذه

الظروف المعصية ، فإن أجدى طريقة لذلك هي أن تحسن أداء عمالك ،
أما ما عدا ذلك فلا جدوى منه .

وقال جبران لريو :

— إنه على حق :

وأجابه الطبيب مؤمناً على ما يقول :

— نعم ، إنه على حق .

فأضاف قائلاً :

— ولكنني شارد الذهن ، ولا أدري كيف أصلح نهاية جملي .

وكان قد فكر في حذف كلمة « بولونيا » باعتبار أنها تفهم ضمناً ،
ولكنه لما قرأ الجملة بهذا التعديل وجد فيها أن كلمة « زهور » تضيف
إلى « الغابة » ما كان ينبغي — في الحقيقة — أن تضيفه « للبرات » ، ولقد
فكر أيضاً في كتابة « بمرات الغابة المليئة بالأزهار » ، ولكن موقع
كلمة « الغابة » بين الاسم والصفة اللذين يفصلهما بصورة تحكيمية كان
كوخز الإبر في جسمه ، حتى أنه كان يبدو في الحقيقة أكثر إجهاداً
من ريو .

نعم ، كان هذا البحث الذي استحوذ عليه كلية يرهقه بالتعب ،
ولكنه استمر مع ذلك في عمليات الجمع والإحصاء التي كانت تحتاج لها
المنظمات الصحية ، فكان — في كل مساء — يجهد نفسه في توضيح
غامض الجزازات ، وإرفاقها بالاقواس البيانية ، وبذل كل ما لديه من
صبر في عرض الحالات على أدق وجه ممكن ، وكثيراً ما كان يذهب

ليلحق برىو فى أحد المستشفيات ، ويطلب منه منضدة فى أحد المكاتب أو المستوصفات ، ثم يجلس إليها مع أوراقه تماماً ، كما كان يجلس إلى منضدته فى دار البلدية ، وفى هذا الجو المثلث برائحة المطهرات ، وبالمرض نفسه ، كنت تراه يهز أوراقه ليخفف مدادها ، وهنا كان يحاول بأمانة وإخلاص ألا يفكر فى فارسته ، وألا يعمل إلا ما ينبغى عمله .

نعم ، لو كان حقيقياً أن الناس يحبون أن يتخذوا لأنفسهم أسوات وقدرات فيمن يسمونهم أبطالاً ، وإذا كان من الضرورى أن يكون هناك بطل فى هذه القصة ، فإن الراوى يقترح هذا البطل بالذات ، هذا البطل التافه المغمور الذى لا يمتاز إلا بشئ من طيبة القلب ، وبمثل أعلى يدعو للسخرية على ما كان يبدو ، فهذا من شأنه أن يعطى ما للحقيقة وللحقيقة وما لجمع اثنين واثنين حاصل جمعها وهو أربعة ، كما يعطى للبطلولة ذلك المكان الثانوى الذى لا تستحق غيره ، أى خلف المطالب السخية التى تتطلبها السعادة ، لا أمامها . وهذا من شأنه أيضاً أن يضفى على هذه القصة طابعها الحقيقى ، طابع العلاقات القائمة على المشاعر الطيبة ، أى المشاعر التى لا تقسم بالسوء الصارخ ، ولا بالحناس الذى لا يوجد إلا فى المسرحيات المبتذلة .

كان هذا على الأقل هو رأى الدكتور ريو عندما كان يقرأ فى الجرائد ، أو يسمع فى المذياع النداءات والتشجيعات التى يرسلها العالم الخارجى إلى المدينة التى أصبحت منكوبة بالطاهون ؛ فقد كانت المعونات ترسل كل مساء جواً وبراً إلى المدينة المنعزلة ، وفى نفس الوقت كانت تتقاطر عليها عبارات الرثاء أو الإعجاب على أمواج الأثير ، أو على صفحات

الجراند ، وفي كل مرة كان جو الملاحم أو الخطب يشير ضجر الطبيب .
نعم ، إنه كان واقعاً من أن هذا التأيد غير مصطنع ، ولكن لم يكن التعبير
عنه إلا باللغة التي اصطلاح الناس عليها عندما يحاولون التعبير عما يريدونهم
بغيرهم من بني البشر ، ولم تكن هذه اللغة لتتنطبق على المجموعات الصغيرة
اليومية التي كان يقوم بها جران ، مثلاً ؛ لأنه لم يكن في وسعها أن تدلنا
على المعنى الذي يدل عليه وجود جران وسط الطاعون .

وفي منتصف الليل ، ووسط السكون المطبق الذي كان يسود المدينة
المهجورة ، في ذلك الوقت الذي كان الطبيب يذهب فيه إلى فراشه ليحصل
على قدر قصير جداً من النوم ، كان يعتمد أحياناً إلى إدارة مفتاح المذياع ،
وكانت هناك أصوات مجهولة — ولكنها ضعيفة — تنبعث من أبعد بقاع
العالم ، وعبر آلاف من الكيلومترات ، وتحاول — في غير لباقة — أن
تعبّر عن مشاركتها للمدينة المنكوبة في آلامها ، ولكنها إذ كانت تعبّر
عن هذه المشاركة ، فإنها كانت في نفس الوقت تدل على العجز المروع
الذي يعانيه كل إنسان حينما يريد أن يقاسم الناس ألماً لا يستطيع أن يراه :
« وهران ، وهران ! » كان هذا النداء يعبر البحار ، ولكن عبثاً ، كما كان من
العبث أيضاً أن يجلس ريو في حالة طوارئ ، فسرعان ما كانت تدخل
البلاغة في الموضوع ، ويظهر الفارق الجوهرى الذي يفصل بين جران
وهذا الخطيب راضحاً جلياً ، نعم وهران ! وهران ! ، ولكن الطبيب
كان يطيل التفكيك ، ويقول في نفسه : « كلا ، إما أن نحبب معاً أو أن
نموت معاً ، وليس هناك حل آخر . إنهم جد بعيدين » .

أما ما بقى علينا ذكره قبل أن نصل إلى قمة الطاعون ، أعنى فى ذلك الوقت الذى أخذ الوباء فيه يستجمع كل قواه لىكن ينقض على المدينة ، ويستولى عليها نهائياً ، فهى تلك المجموعات الطويلة اليائسة الرتيبة التى كانت تقوم بها البقية الباقية من الناس — مثل رامبير — لاستعادة سعادتهم؛ ولىكن ينتزعوا من الطاعون هذا الجزء من أنفسهم الذى يدافعون عنه ضد أية إصابة ، تلك كانت طريقتهن فى رفض العبودية التى تهددهن ، ورغم أن هذا النوع من الرفض لم يكن فى الظاهر ذا مفعول كبير كغيره ، فإن الراوى يرى أنه مع ذلك كان له مغزاه ، وأنه يشهد — مع ما فيه من تفاهة ، بل وما ينطوى عليه من تناقض — بما كان لدى كل شخص منا فى ذلك الحين من عزة .

كان رامبير يكافح لىكن يمنع الطاعون من أن يطويه تحت جناحه ، فلما بينت له الأدلة أنه لن يستطيع الخروج من المدينة بالطرق المشروعة ، قرر — كما قال لريو — أن يلجأ إلى الوسائل الأخرى ، وقد بدأ الصحفى بمخدم المقاهى ؛ لأن خادماً المقهى على علم دائماً بكل شىء ، ولكن أول خادماً لجأ إليه كان هلى علم — بوجه خاص — بالعقوبات الشديدة التى يجرها هذا النوع من المحاولات ، بل لقد حدث له فى إحدى هذه المرات أن ظنه الناس محرضاً ، ولم يستطع التقدم من هدفه بعض الشىء إلا بعد

أن التقي بكوتار ، ففي هذا اليوم كان قد تكلم هو وديو مرة ثانية عن المحاولات غير الناجحة التي بذلها هذا الصحفي في الإدارات . وبعد ذلك بأيام قلائل تقابل كوتار مع رامبير في الشارع ، فاستقبله بالامراحة التي أخذها الآن يتبعها في كل علاقته ، وقال له :

— لاشيء كالمعتاد ؟

— كلا ، لاشيء .

— لا يمكن الاعتماد على المكاتب ، فهي لم تخلق لتفهم .

— هذا صحيح ، ولكنني أحاول طريقة أخرى ، وهذا أمر عسير .

فقال كوتار :

— آه ! أرى ذلك .

لأنه يعرف إحدى هذه الخطط ، ولما دهش رامبير لذلك شرح له كيف أنه منذ بعض الوقت يختلط بمقامي وهران ، وكيف أن له أصدقاء ، وأن لديه معلومات عن وجود منظمة تشتغل بهذا النوع من العمليات ، والحقيقة أن كوتار — الذي كانت مصروفاته قد أخذت تتجاوز دخله — قد بدأ يشتغل في تهريب المواد المسعرة ، فكان يبيع السجائر والمشروبات الرديئة التي كانت أسعارها في صعود مستمر ، والتي أوشكت أن تدر عليه ثروة لا بأس بها .

وسأل رامبير :

— هل أنت واثق من ذلك ؟

وأجاب كوتار :

— نعم ، حيث أنهم قد عرضوا هلى هذه الخطة .

— ولم تستفد منها ؟

فقال كوتار بلمهجة الرجل الطيب :

— لاتسىء الظن ، فأنا لم أستفد منها ، لأنى لا أرغب فى الرحيل ،

وعندى أسباب لذلك .

وبعد فترة صمت وجيزة أضاف قائلاً :

— ألا تسألنى ماهى هذه الأسباب ؟

إنى أفترض أن ذلك لا يعنينى .

— فى الواقع أن هذا لا يعنيك من ناحيه ما ، ولكن من ناحية

أخرى ...

على كل حال من المؤكد أن أحوالى قد تحسنت منذ أن حل الطاعون

ببنتسا .

واستمع الآخر إلى كلامه ، ثم قال :

— ما الوسيلة للاتصال بهذه المنظمة ؟

وأجاب كوتار :

— آه ، إن الأمر ليس سهلاً ، تعال معى .

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر ، وكان الجو قد أخذ يعمل

همله فى المدينة تحت سماء ثقيلة ، وأغلقت أبواب المحال التجارية ، وخلت

الشوارع من المارة ، واضطر كوتار ورامبير أن يسلكا الشوارع ذات الجوانب المغطاة ، وظلا يسيران دون أن يتكلما . كانت هذه إحدى الساعات التي يبدو فيها الطاعون وكأته محتجب ، وكان من الممكن أن يكون هذا الصمت — هذا الموت الذي يدرك الألوان والحركات — ناشئاً من فعل الصيف ، أو من فعل الوباء ؛ فلم يكن يدري أحد ما إذا كان الهواء ثقيلاً من جراء ما يحمل من أخطار ، أم من الغبار والقيظ المحرق ، ذلك أنه كان يتحتم على الناس أن يلاحظوا ويفكروا لكي يتتبعوا الطاعون ؛ لأنه لا يكشف عن نفسه إلا بعلامات سلبية ، وكان لكوتار ملاحظات دقيقة صحيحة بخصوص الطاعون ، فلفت مثلاً نظر رامبير إلى أن الكلاب لا وجود لها في حين أنها في الأوقات العادية ترى راقدة على جوانبها على أبواب الممرات ، وهي تلهث ، وتبحث عبثاً عن نسمة رطبة لا وجود لها .

وسلك الرجلان طريق النخيل ، وعبرا ميدان السلام ، وهبطا نحو حى البحرية ، وكان على يسارهما مقهى طلى باللون الأخضر ، واحتوى من الحر بستار مائل من النسيج الأصفر السميك ، فدخله كوتار ورامبير وهما يجففان جيبيهما ، واتخذا مكانيهما على مقعدين من مقاعد الحدائق التي تطوى وتفرد ، أمام مائدة خضراء من الصلب الرقيق . كانت القاعة خاوية تماماً ، وكان طنين الذهاب يسمع في الهواء ، وكان أمامهما على عداد البيع ذى السيقان الملتوية قفص أصفر به بغماء نفشت ريشها بأجمعه ، وجشمت متهاكة على عشبها ، وكانت هناك لوحات تمثل مشاهد حربية معلقة على الجدران ، وقد غطتها الأقذار ، ونسجت فوقها

العنكبوت خيوطا سميكة ، وكانت الموائد — بما فيها مائدة رامبير — مغطاة ببعض ذرق الدجاج ، وقد حار رامبير — أول الأمر في تفسير مصدر هذا الذراق ، حتى رأى ديكا جميلا يخرج بعد قليل من ركن معتم ، ويقفز ففترات صغيرة .

وفي هذه اللحظة كان الحر لا يزال مستعمرأ في الارتفاع ، تخلع كوتار ستروته ، وضرب بيده على المائدة ، نخرج إليه من أقصى المسكان رجل ضئيل الجسم غارق في « مريسته » الزرقاء ، وما أن رأى كوتار حتى حياه على بعد ، ثم أخذ يتقدم نحوه وهو يزيع الديك من طريقه بضربة قوية من قدمه ، وسأل وسط صياح الديك عما يمكن أن يقدم لهما ، وطلب كوتار زبيذا أبيض ، ثم سأل عن المدعو جارسيا ، وأجاب الرجل الضئيل الجسم : أنه لم ير في المقهى منذ عدة أيام .

— أظن أنه سوف يأتي هذا المساء ؟
وقال الآخر :

— آه ! إننى لست صاحب أمره ، ولكن ألت تعرف مواعده ؟
— بلى ، ولكن هذا لا يهم كثيراً ، إن لدى صديقا أريد تقديمه إليه .

ومسح الخادم يديه المبتلتين في الجزء الأمامي من « مريسته » ، ثم قال :

— آه ! هذا السيد يهتم هو الآخر بالأعمال ؟
وأجاب كوتار :

— نعم .

وأخذ الرجل الصغير نفساً طويلاً من أنفه ثم قال :

— إذن عودا هذا المساء ، فسوف أرسل إليه الصبي

ولما خرجا ، سأل رامبير زميله عن أى أعمال يتحدث ، وأجاب
كوتار قائلاً :

— إنها أعمال التهريب طبعاً ، فإنهم يدخلون البضائع من أبواب
المدينة ، ويبيعونها بأسعار مرتفعة .

وقال رامبير :

— حسن ، وهل لهم شركاء ؟

— بالطبع .

وفي المساء كانت مظلة المقهى قد رفعت ، وراحت البيغاء تثرثر في
قفصها ، وكانت موائد الحديد محاطة بالناس الذين لا يلبسون غير الأقصة ،
وما أن دخل كوتار حتى هب أجدهم واقفاً ، وكان يرتدى قبعة من القش
على مؤخرة رأسه ، وقيصاً أبيض يكشف عن صدره لون الطين المحروق ،
كان وجهه منتظم الملامح قد دبغته الشمس ، وتوسطه عينان صغيرتان
سوداوان ، وأسناذه بيضاء ، وقد وضع في أصابعه خاتمين أو ثلاثة ،
كمان يبدو في الثلاثين من عمره تقريباً ، ويادرها الرجل قائلاً :

— سلام عليكما ؛ لنشرب عند العداد .

وشربوا ثلاث مرات دون أن يتسكلموا ، ثم قال جارسيا :

— ماذا لو خرجنا ؟

وهبطوا اتجاه الميناء ، وهناك سأل جارسيا : ما يبغيان منه ، وقال له كوتار : لأنه يريد أن يقدم له رامبير ، لا من أجل الأعمال ، ولكن من أجل ما يسمونه « ياخذى الخرجات » . وكان جارسيا يمشى أمامه رأسا وهو يدخن ، ثم مالبت أن وجهه إليه بعض الأسئلة مستعملا الضمير « هو » .
كلما تكلم عن رامبير كما لو لم يكن قد لاحظ وجوده ، ثم قال :

— ولماذا ؟

— إن زوجته فى فرنسا .

— آه .

ثم أضاف قائلا بعد لحظة :

— ما مهنته ؟

— صحفى .

— لأنها مهنة يثرثرون فيها كثيرا .

وظل رامبير لا تذا بالصمت ، وأجاب كوتار بقوله :

— لأنه صديق .

وتقدموا فى صمت . وكانوا قد وصلوا إلى الأرصفة حيث تقوم أسوار عالية تحول دون دخولها ، ولكنهم اتجهوا إلى مشرب صغير يباع فيه السردين المقل الذى تصاعدت رائحته ، وراحت تداعب أنوفهم ، وأنهى جارسيا كلامه قائلا :

— على كل حال ليس هذا من اختصاصى ، بل من اختصاص

راول ، ينبغى أن أعثر عليه ، وإن يكون هذا الأمر سهلا .

وسأله كوتار باهتمام .

— آه ! هل هو مخفي ؟

ولم يجب جارسيا بشيء ، ثم توقفوا بجوار المشرب الصغير ، والتفت جارسيا إلى رامبير للمرة الأولى ، وقال :

— بعد غد في الساعة الحادية عشر على ناصية شارع ثكنات الجرك ، في أعلى المدينة .

واستعد للذهاب ، ولكنّه استدّار تجاه الرجلين وقال :

— إن الأمر يتطلب بعض المصاريف .

وكان ذلك بمثابة إقرار واقع .

وأبد رامبير ذلك قائلاً :

— بكل تأكيد .

وبعد قليل شكر الصحفي كوتار ، وأجابّه هذا الأخير في لهجة

مرحة :

— كلا ! يسعدني أن أؤدي لك خدمة ، ثم إنك صحفي ، وسترد لي

ذلك يوماً ما .

ومر يوم ، وفي اليوم الذي يليه عبر رامبير وكوتار الشوارع الكبيرة العارية من الظل ، والتي تؤدي إلى أعلى المدينة ، وكان جزء من ثكنات الجرك قد تحول إلى مستوصف ، وقد تجهم أمام باه الكبير بعض الناس الذين أتوا على أمل زيارة لا يمكن التصريح بها ، أو اطلب معلومات تصبح ما بين ساحة وأخرى قديمة لا فائدة منها ، وأياً ما كان

فقد كان هذا التجمهر يسمح بكثير من حركات الذهاب والجيئة . وقد يكون من الممكن افتراض أن هذه الحقيقة ليست مقطوعة الصلة بالطريقة التي تم بها تحديد الموعد بين جارسيا ورامبير .

وقال كوتار :

— أمر غريب ذلك التصميم على الرحيل ، على أية حال كل مايجرى الآن يشير الاهتمام .

وأجاب رامبير :

— ليس بالنسبة لى .

— أوه بكل تأكيد ، فهناك بعض المخاطرة ، ولكن الناس جميعا كانوا يتعرضون لنفس القدر من المخاطرة — قبل الطاعون — عندما كانوا يعبرون ميدانا مزدحما .

وفى هذه اللحظة وقعت سيارة ريو بجذائهما ، وكان تارو هو الذى يقودها ، أما ريو فقد بدا كمن كان فى سنة ثم استيقظ لتوه كى يتولى مهمة التعريف .

وقال تارو :

— إننا متعارفون بعرف بعضنا البعض ، فنحن نسكن نفس الفندق ، ثم عرض على رامبير أن يوصله إلى المدينة فأجاب :

— كلا فإننا على موعد هنا .

ونظر ريو إلى رامبير ثم قال :

— نعم .

فتساءل كوتار بدهشة :

— آه ! هل الدكتور على علم ؟

ثم صاح تارو ، وهو يلفت نظر كوتار :

— هذا هو قاضى التحقيق .

وهنا تغير تعبير وجه كوتار .

كان السيد أوتون يهبط فعلا الشارج ، ويتقدم نحوهم بخطى قوية .
ولكن متزقة ، وما أن مر أمام هذه المجموعة الصغيرة حتى رفع
قبعته بالتحية .

وقال تارو :

— صباح الخير يا سيدى القاضى .

ورد القاضى بالتحية لمن فى السيارة ، ثم نظر إلى كوتار ورامبير
اللذين ظلا إلى الخلف ، وحياهما برأسه فى وقار ، وتولى تارو تقديم
صاحب الأعمال الصغير والصحنى .

ونظر قاضى التحقيق إلى السماء لحظة ، ثم تنهد وهو يقول : إنها فترة
جد عصيبة ، وراح يتساءل :

— قال لى بعض الناس ، يا سيد تارو ، إنك تعمل فى تطبيق
الإجراءات الوقائية ، وأنا من ناحيتى لا أستطيع أن أؤيدك بكل قوة ،
أظن يا دكتور أن المرض سيزيد انتشاراً ؟

وأجاب ريو : ينبغي أن نأمل غير ذلك ، وقال القاضى مردداً :
لأنه ينبغي دائماً أن نأمل ، إذ أنه لا يمكن لأحد أن يتسكن بما خبأته

الأقدار ، وسأله تارو عما إذا كانت أعماله قد ازدادت من جراء تلك الحوادث ، فقال :

— بالعكس ، فشا كل ما نسميه بالقانون العام قد نقص عددها ، ولم يبق أمانى إلا أن أفصل فى القضايا المترتبة على التقصير فى تطبيق الأوضاع الجديدة ، أما القوانين القديمة فلم تكن تراعى فى يوم من الأيام بقدر ما تراعى الآن .
فقال تارو .

— معنى هذا أن تلك القوانين تبدو - لدى المقارنة - خيراً من الجديدة بما لا يدع مجالاً للشك .
وتحلى القاضى عن هيئته الحاملة - التى كان يتخذها حين راح ينظر إلى السماء كما لو كانت عينه معلقة بها - وفحص تارو يهدوء وقال :
— وما أهمية ذلك ؟ فليس القانون هو المهم ، وإنما الحكم بالإدانة .
ولكننا لا نملك من الأمر شيئاً .

ولما انصرف القاضى قال كوتار :

— أما هذا فهو العدو رقم واحد .

ورحلت السيارة .

وبعد قليل شاهد رامبير وكوتار جارسيا قادماً نحوهما . كان يسير فى اتجاههما دون أن يصدر إليهما أية إشارة ، وبدلاً من أن يهديهما تحية الصباح قال :
« يجب الانتظار » .

وكان جمع من حولهم - وجلهم من النساء - ينتظرون في صمت مطبق ، وكانت أغلبية النساء يحملن سلالا يحدهن أمل كاذب في إمكان إيصالها إلى أفانين المرضى ، وهذا الأمل كان متحجراً بفكرة لا تقل عنه جنونا ، هي أن هؤلاء المرضى قادرون على تناول ما بها من طعام ، وكان يقوم بحراسة الباب بعض الموظفين المسلحين ، وبين الفينة والفينة كانت تصدر صرخة غريبة تعبر الفناء الذي يفصل الشكنات عن الباب . وحينئذ كانت وجوه الحاضرين القلقة تستدير ناحية المستوصف .

وكان الرجال الثلاثة يتأملون هذا المشهد عندما سمعوا من خلفهم كلمة «صباح الخير» تلت بصوت واضح رزين ، فالتفتوا وراءهم ، ورغم شدة الحركان رآول مرتديا ملابسه كاملة دون أى إهمال ، كان طويلا ممتلئ الجسم يرتدى حلة ذات لون قاتم ، وقبعة ملتوية الحافة ، وكان شاحب الوجه بعض الشيء ، أما عيناه فكانتا عسليتين وكان فيه منقبضا ، وكان يتكلم بطريقة سريعة دقيقة ، فقال :

— إهبطا ناحية المدينة ، أما أنت يا جارسيا فيمكنك أن تتركنا .

وأشعل جارسيا سيجارته ، وتركهم يبتعدون ، فساروا بخطى سريعة وقد ضبط الآخران مشيتهما على مشية رآول الذى توسطهما ، وقال : — لقد شرح لى جارسيا الأمر ، إنه يمكن التنفيذ ، وهذا على كل حال سيكلفك عشرة آلاف فرنك .

وأجاب رامبير بالقبول ، وقال جارسيا :

— تناولا غداء كما معنى - غداً - في مطعم البحرية الأسباني .

ووافق رامبير على ذلك ، وشد راول على يده وهو يبتسم المرة الأولى ، وبعد رحيله استأذن كوتار في الانصراف ؛ لأنه كان مشغولاً في الغد ، وفضلاً عن ذلك فإن رامبير لم يعد في حاجة إليه .

وفي اليوم التالي عندما دخل الصحفي المطعم الأسباني استدارت جميع الرموس التي في طريقه ناحيته ؛ ذلك أن هذا القبول الظليل الواقع في أسفل أحد الشوارع الصغيرة التي أظلمتها الشمس بسياتها لا يزوره من الرواد سوى أناس أكثرهم ذوي سحنة أسبانية، وكان راول يجلس إلى إحدى الموائد ، فما أن أبدى إشارة إلى رامبير حتى اتجه ناحيته ، وبذلك زال العجب من على الوجوه ، وعادت إلى ما كان أمامها من صحاف .

وكان يرافق راول على المائدة رجل طويل نحيل ، قد أهمل حلاقة لحيته ، وكان ذا كتفين عريضتين بشكل غير عادي ، ووجهه يشبه وجه الحصان ، وشعره خفيف متناثر ، وقد شمر عن ساعديه ، فبدأ ذراعيه المغطاتان بالشعر، وعندما قام راول بتقديم رامبير هرز رأسه ثلاث مرات ، ولم ينطق راول باسم الرجل ، وإنما كان يشير إليه أثناء الحديث بقوله « صديقنا » . وبدأ يقول :

— صديقنا يعتقد أن في إمكانه مساعدتك ، وهو سوف . .

ثم توقف راول قليلاً ؛ لأن الخادم حضرت تستفسر عما يطلبه رامبير ، ثم واصل كلامه قائلاً : إنه سوف يصلك باثنين من أصدقائنا ، وهؤلاء سوف يعرفانك بالحراس الذين في صفنا ، ولكن الأمر لن

ينتهي عند هذا الحد ، فينبغي أن يختار الحراس أنفسهم اللحظة المناسبة وأسهل الطرق هي أن تبنت بعض الليالي عند أحدهم ، وهو يسكن قرب أبواب المدينة ، ولكن قبل ذلك سيقوم صديقنا بعمل العقود الضرورية ، وهو الذى ستصنفى معه الحساب عندما يتم كل شئ .

وهنا هو الصديق رأسه الذى يشبه رأس الحصان مرة أخرى دون أن يتوقف عن مضغ سلاطة الطاطم والفلفل الأخضر التى كان قد بدأ يلتهمها بشراهة ، ثم تكلم بلمجة أسبانية خفيفة ، فعرض على رامبير أن يتقابلا بعد غد فى الساعة الثامنة صباحاً تحت قبوة باب الكاتدرائية .

وعلق رامبير بقوله :

— ما زال أمانى يومان !

فأجاب راءول :

— ذلك لأن الأمر ليس سهلاً ؛ إذ يجب العثور على الرجال ، وأوماً الحصان برأسه مرة أخرى ، ووافق رامبير دون تحمس ، وانقضى ما تبقى من وقت الغداء فى البحث عن موضوع للحديث ، ثم عثروا عليه بغاية السهولة عندما اكتشف رامبير أن الحصان من لاعبي كرة القدم . تلك اللعبة التى مارسها هو نفسه زمناً ، وحينئذ أخذوا يتحدثون عن بطولة فرنسا ، وعن قيمة الفرق الإنجليزية المحترفة ، وعن خطة ترتيب اللاعبين فى شكل W . ولما انتهى الغداء كان الحصان قد بلغ من التخمس أشده ، ورفع الكلفة بينه وبين رامبير ، وراح يبذل جهده فى إقناعه بأن أجمل مكان فى الفريق هو مكان متوسط الدفاع ، وقال له : د أنت تعرف من هو

متوسط الدفاع ، لأنه هو الذى يوزع اللعب ، وتوزيع اللعب هذا هو كل كرة القدم . وكان هذا أيضاً رأى رامبير ، ولو أنه لم يلعب إلا فى مركز متوسط الهجوم ، ولم تتوقف المناقشة إلا عندما انتهى جهاز الراديو من الأغاني العاطفية التى كان يذيعها بصوت يصم الآذان ؛ لكن يعلن أن الطاعون قد قتل فى الليلة الماضية مائة وسبعة وثلاثين ضحية ، ولم يحدث هذا النبأ أى رد فعل فى الحاضرين ، وحينئذ هز الرجل الحصان كتفيه ، ونهض ، وتبعه راول ورامبير .

وشد متوسط الدفاع على يد رامبير بقوة ، وقال :

— إسمى جواز الـيس .

وبدا لرامبير أن هذين اليومين لا نهاية لهما ، وقد ذهب إلى ريو ، وقص عليه مساعيه بالتفصيل ، ثم صحبه فى إحدى زياراته ، وودعه أمام باب المنزل الذى كان ينتظره فيه مريض مشقة فى مرضه ، وحينئذ سمع فى الممر وقع خطوات ، وضوضاء أصوات تخطر الأسرة بحضور الطبيب ، وتتم ريو — الذى كان يبدو عليه التعب — قائلاً :

— عسى ألا يتأخر قارو .

وسأله رامبير بقوله :

— هل زاد انتشار الوباء سرعة ؟

وأجاب ريو قائلاً : الواقع ليست هذه هى المشكلة ، بل إن الخط البيانى يرتفع بسرعة أقل من ذى قبل ، وكل ما فى الأمر أن وسائل مكافحة الطاعون ليست كثيرة ، ثم قال :

— إتنا تنقنا المعدات، ومن عادة كل الجيوش في العالم أن تستعين
بالرجال عن نقص المعدات ، ولكننا نحن ينقنا الرجال أيضاً .

فقال رامبير : لقد جاءنا أطباء من الخارج ، وكذلك بعض
الموظفين الصحيين .
وأجاب ريو :

— نعم ، عشرة أطباء، ومائة رجل ، وهذا يبدو كثيراً في الظاهر ،
ولكنه لا يكاد يكفي بالنسبة لحالة المرض الراهنة ، وإذا ازداد انتشار
المرض قلن يعود هذا العدد كافياً .

ثم أصغى للضوضاء المنبعثة من الداخل ، رابتسم لرامبير ، وقال :
— نعم ينبغي أن تسرع في لإنجاح خطتك .

وغشيت سحابة قائمة وجه رامبير ، وقال بصوت مكتوم :

— إنك تعرف أنه ليس هذا هو ما يحملني على الرحيل .

وأجاب ريو : أنه يعرف ذلك ، ولكن رامبير أردف قائلاً :

— أعتقد أنني لسبت جباناً ، على الأقل في أغلب الأحيان .

وقد سنحت لي الفرصة لإثبات ذلك ، ولكن هناك أفكاراً لا يمكنني
احتياها .

وحقق الطبيب في وجهه ، وقال :

— سوف نجهدها .

— ربما ، ولكنني لا أستطيع أن أتحمّل فكرة أن هذا الموقف

قد يدوم ، وأن الهرم سيدركها ، قبل أن نلتقي ، فالمرء يبدأ في الهرم في

الثلاثين ، وينبغي الإنسان أن يستفيد من كل شيء ، لست أدري إذا كنت تستطيع أن تفهمنى .

وغنم ريو قائلا : إنه يستطيع أن يفهمه ، وفى هذا الوقت قدم تارو ، وكان يبدو عليه الاهتمام ، وقال :

— لقد طلبت توا من پاتلو أن ينضم إلينا .

وسأله الطبيب :

— وبعد ؟ فأجاب :

— لقد فكر ، ثم قال : نعم .

وقال الطبيب :

— هذا يسرنى ، ويسعدنى أن أهرف أنه خير من وعظه .

وقال تارو :

— كل الناس على هذه الحال ، كل ما يجب عمله هو إعطاؤهم الفرصة .

ثم ابتسم ، وغمز بعينيه ناحية ريو الذى قال :

— إن مهمتى فى الحياة هى خلق الفرص .

وقال رامبير :

— إسمح لى ، فينبغى أن أرحل .

وفى يوم الخميس المحدد للقاء ، ذهب رامبير تحت بوابة الكاتدرائية

قبل الساعة الثامنة بخمس دقائق ، وكان الجو ما زال رطبا ، وقد تباثرت

فى السماء بعض غمامات صغيرة بيضاء مستديرة ، لاشك أن حرارة

النهار لن تلبث أن تبددها .

وكانت رائحة الرطوبة الخفيفة تتصاعد من الحشائش رغم جفافها ،
أما الشمس المختفية خلف منازل الجهة الشرقية ، فلم تكن تدفئ إلا قبعة
تمثال دجان دارك، المطلق كله بالذهب ، والذي يزين الميدان ، ودقت الساعة
ثمانى دقائق خطا رامبير بضع خطوات تحت البوابة المقفرة ، وداعب سمعه
من الداخل بعض الترانيم الدينية الغامضة مصحوبة بروائح عتيقة من روائح
القبو والبخور، ولجأة توقفت الترانيم ، وخرج من الكنيسة نحو عشرة هياكل
بشرية صغيرة سوداء ، وأخذت تركض بخطاها الصغيرة ناحية المدينة ، وبدأ
رامبير يفقد صبره ، وأتت هياكل أخرى صغيرة ، وأخذت تصعد السلم
متجهة نحو البوابة ، وأشعل رامبير سيجارة ، ثم تنبه إلى أن المسكان قد
لا يكون من الأماكن المصرح فيها بذلك .

وفي الثامنة والربع بدأت أراغن الكنيسة تعزف بصوت مرتفع ،
ودخل رامبير تحت القبة المعتمدة ، وبعد لحظة استطاع أن يلمح في قاعة
الكنيسة الهياكل الصغيرة التي مرت أمامه ، كانت كلها متجمعة في ركن
واحد أمام شيء يشبه المذبح ، قد أنشئ بصورة ارتجالية ، ووضع عليه
تمثال للقديس « روش » ، تم صنعه بسرعة في أحد مصانع المدينة ، وكانت
هذه الهياكل — وهي جاثية على ركبها — تبدو كما لو كانت قطعاً من
الجلد الجاف قد تاهت في لوحات بارزة كابية اللون ، أو قطعاً من الظل
قد تجمدت ، وأصبحت وهي تتناثر هنا وهناك لا تزيد سمكا عن الضباب
الذي تطفو عليه ، ومن فوق رؤوسها كانت الأراغن تعزف تقسيمات
لأنهاية لها .

وعندما خرج رامبير كان « جونزاليس » يهبط الدرج ، ويتجه ناحية المدينة ، وقال للصحنى :

— لقد ظننت أنك عدت أدراجك ، وهذا أمر طيبى .

وشرح له كيف أنه انتظر أصدقاءه الذين كان معهم على موعد آخر حددده لهم فى مكان لا يبعد كثيراً عن هنا فى الساعة الثامنة إلا عشر دقائق ، ولكنه انتظرهم عشرين دقيقة ودون جدوى ، ثم علق بقوله :

— من المؤكد أن هناك عائفاً عاقهم ، فالمرء ليس دائماً على راحته فى مثل هذا العمل الذى تقوم به .

ثم عرض على رامبير موعداً آخر فى اليوم التالى ، وفى نفس الساعة أمام النصب التذكارى للبوتى ، وتنهى رامبير وهو يزيح قبعته إلى الخلف ، وأنهى جونزاليس كلامه وهو يضحك قائلاً :

— لا عليك . ففكر قليلاً فى كل حيل اللعب من هبوط وتمرير ، وكل ما ينبغى القيام به قبل أن نصيب الهدف .

وأجاب رامبير :

— بكل تأكيد ، ولكن اللعب لا يستغرق إلا ساعة ونصف ساعة .

والنصب التذكارى للبوتى فى وهران يقع فى المكان الوحيد الذى تمكن منه رؤية البحر على بعد ، ويعتبر هذا الموقع نوعاً من النزهة تمتد على مسافة قصيرة بطول الأراضى الضحلة التى تحيط بالميناء ، وكان رامبير أول من وصل إلى المكان المحدد ، لجعل يقرأ — باهتمام — قائمة أسماء الذين ماتوا فى ساحة الشرف ، وبعد بضع دقائق اقترب منه رجلان ، ونظرا

إليه بغير اكتراث ، ثم ذهب ، واستندا بمرفقيهما على السور ، وبنيما كما لو كانا قد استغرقا في تأمل الأرضة الخاوية المقفرة ، كانا متشابهين في الطول ، ويلبس كل منهما سروالا أزرق اللون ، ومن فوقه ثياب من نسيج التريكو قصير الكمين ، وفي لون زرقة البحر ، وابتعد الصحفي قليلا ثم جلس على مقعد يستطيع منه أن يتأملهما على رسله ، ولاحظ حينئذ أن عمر كل منهما لا يزيد على عشرين عاما ، وفي هذه اللحظة رأى جونزاليس يتقدم ناحيته ، وهو يعتذر عن تأخره ، وقال له :

— هؤلاء هم أصدقاؤنا ، ثم صاحبه ناحية الشابين ، وقدمهما إليه باسمي : « مارسل ، ولويس » . كانا متشابهى الوجه ، ولذا رجح رامبير أن يكونا أخوين ، وقال جونزاليس :

— أما وقد تم التعارف ، فينبغى تدبير المسألة ذاتها .

وحينئذ قال مارسيل — أو لويس — أن دورهما في الحراسة يبدأ بعد يومين ، ويستمر أسبوعا ، وأنه ينبغى اختيار أنسب الأيام ، وقد كان هناك أربعة حراس مكلفون بحراسة الباب الغربى للمدينة . أما الحارسان الآخران فكانا جنديين نظاميين ، واستبعدت فكرة ضم هذين الأخيرين إلى العملية ؛ لأنهما من ناحية غير موثوق فيهما ، ومن ناحية أخرى ؛ لأن ذلك يزيد التكاليف ، وكان يحدث في بعض الامسيات أن يذهب هذان الحارسان لقضاء طرف من الليل في القاهة الخلفية لمشرب يعرفانه ، ولذلك عرض مارسيل — أو لويس — على رامبير أن يحضر للإقامة عندهما قريبا من أبواب المدينة ، وأن ينتظر حتى يحضر من يصحبه ، ففي هذا الحين يصبح العبور غاية في السهولة ، ولكنهما أخبرا أنه ينبغى الإسراع

فى التنفيذ ، لأن الحديث كان يدور منذ قليل عن مضاعفة الحراسة خارج المدينة .

ورافق رامبير ، وقدم لهم بعض ما تبقى لديه من سجائر ، وهذا سأل أحد الشابين — الذى لم يكن قد تكلم حتى الآن — جونزاليس عما إذا كانت مسألة النفقات قد اتفق عليها ، وما إذا كان من الممكن دفع بعض المبلغ مقدما .

وقال جونزاليس :

— كلا ، ليس هناك ما يدعو لذلك ؛ فهو من رفاقنا ، وستدفع النفقات وقت الرحيل .

ثم اتفقوا على موعد جديد ، واقترح جونزاليس أن يتناولوا العشاء فى المطعم الأسباني بعد غد ، ومن هناك يستطيعون التوجه إلى منزل الحارسين ، فقال لرامبير :

— أما عن الليلة الأولى ، فسأقضيها معك .

وفى اليوم التالى كان رامبير يصعد إلى غرفته ، فالتقى بتارو الذى قال له :

— إني ذاهب للحاق بربو ، أريد الذهاب معنا ؟

وأجاب رامبير — بعد قليل من التردد — :

— أخشى أن يكون فى ذلك ما يضايقه ، فقال تارو :

— لا أظن ذلك ، فقد كلنى عنك كثيرا .

وأخذ الصحفي يفكر ، ثم قال :

— اصنع لى . إذا كان لديك شىء من الوقت بعد العشاء . حتى
ولو كان الوقت متأخراً . فاحضرا إلى مشرب الفندق أنتم الاثنان .
وقال تارو :

— هذا يتوقف عليه وعلى الطاهون .

ومع ذلك ، فى الحادية عشرة مساء دخل ريو وتارو المشرب الضيق
الصغير ، وكان فى المشرب نحو ثلاثين رجلا يجلسون جنباً إلى جنب ،
ويتكلمون بصوت مرتفع ، ولما كان ريو وتارو قادمين لتوهما من
المدينة الصامتة المربوة ، فقد شعرا ببعض الارتباك فتوقفا ، ثم لم يلبثا
أن فهما سبب هذا الصخب عندما عرفا أن الفندق مازال يقدم المشروبات
الروحية ، وكان رامبير يجلس أمام أحد طرفى العداد ؛ فأشار إليهما من
أعلى مقعده ، فجلسا من حوله بعد أن أزاح لهما جاراً كثير الصخب ،
وسألاه :

— ألا يفزعك الشراب ؟

وأجاب رامبير :

— كلا ، على العكس من ذلك .

واستشق ريو من كأسه رائحة أعشاب مرة ، وكان من الصعب
التحدث فى مثل هذه الضوضاء ، ولكن كان يبدو أن كل ما يشغل رامبير
هو الشراب فى هذه اللحظة ، ولم يكن فى مقدور الطبيب بعد أن يحكم عما
إذا كان رامبير قد ثمل أم لا . أما المساندتان اللتان كانتا تملكان ما تبقى
من المكان ، فقد جلس على إحدهما أحد ضباط البحرية ، وقد تعلق بكلى

ذراع من ذراعيه امرأة ، وكان الضابط يقص على جاره — ضخم الجسم —
محتقن الوجه — أنباء وباء للتييفوس في القاهرة ، وكان يقول : «معسكرات ،
لقد أنشئوا معسكرات الأهلالي بها خيام البرضى ، وحول المعسكرات
أقيم نطاق من الحراسة يطلق النار على كل أسيرة تحاول أن تحضر سرا
بعض الأدوية البلدية ، إنه حكم قاس ، ولكنه عادل . »

أما المائدة الأخرى ، فكان يشغلها شبان أنيقو الملابس ، لم يكن من
الممكن تبين حديثهم الذى كان يضييع وسط ضجيج أغنية « مستوصف
سان جيمس » ، التى كانت تنطلق من جهـاز « بيك آب » وضع في
مكان مرتفع .

وقال ريو — وهو يرفع صوته — :

— هل أنت راض ؟

وأجاب رامبير :

— المسألة تقرب ، وقد تكون خلال هذا الأسبوع .

وصاح تارو :

— يا للأسف .

— ولماذا ؟

ونظر تارو إلى ريو الذى قال :

— أوه ! إن تارو يقول ذلك : لأنه كان يظن أنه في إمكانك مساعدتنا

هنا ، ولكننى أفهم جيداً رغبتك الشديدة في الرحيل .

وهنا عرض تارو على ريو أن يقوموا بجولة أخرى ، وهبط رامبير
من مقعده ، وصدق في وجهه للمرة الأولى ، ثم قال :

في أى شىء يمكننى أن أكون ذا فائدة ؟

وأجاب تارو - وهو يمد يده إلى كأسه في تباطؤ - :

— في منظمتنا الصحية .

وعادت إلى رامبير سيبا التفكير التى عرف بها ، ثم صعد مرة أخرى
إلى مقعده .

وما أن أتى تارو على ما فى كأسه ، حتى أخذ ينظر إلى رامبير
باهتمام ، وقال :

— ألا ترى أن هذه المنظمات ذات نفع ؟

وأجاب الصحفي :

— إنها شديدة النفع .

ثم شرب ما كان قد تبقى فى كأسه ، ولاحظ ريو أن يده ترتعش ،
فرجح أن يكون قد وصل إلى حالة التمل التام .

وفى اليوم التالى ، عندما دخل رامبير المطعم الأسباني للمرة الثانية ،
ووسط جماعة صغيرة من الرجال كانوا قد وضعوا مقاعدهم أمام المدخل
ليستمتعوا بأمسية ذهبية . بدأت فيها الحرارة فى الهبوط ، وكانوا
يدخنون تبغاً ذا رائحة نفاذة .

أما فى الداخل ، فكان المطعم شبه مقفر ، وذهب رامبير للجلوس حول

مائدة فى أقصى القاعة كان قد قابل عليها جونزاليس فى المرة الأولى ، وقال للخادمة : إنه ينتظر بعض الأشخاص ، وكانت الساعة قد بلغت الساعة والنصف ، وقد أخذ الناس بالتدريج يدخلون قاعة الطعام ، ويتخذون فيها أماكنهم ، وبدأ الخدم فى تقديم طلبات الرواد ، وامتلأت القبة المنخفضة بجميع أدوات المائدة المختلط بأصوات المحادثات المكتومة . وفى الساعة الثامنة كان رامبير لا يزال ينتظر ، ثم أوقدت المصابيح وحضر رواد جدد ، واتخذوا أماكنهم على مائدته ، وهنا طلب رامبير عشاءه ، وعندما بلغت الساعة الثامنة والنصف كان قد انتهى من عشاءه دون أن يرى جونزاليس أو الشابين ، فأخذ يدخل لفائفه ، وأخذت القاعة تملأ رويداً رويداً ، وخيم الليل — بسرعة — فى الخارج ، وهبت نسمة دافئة من البحر فداهبت ستائر النوافذ بركة ، ولما بلغت الساعة التاسعة لاحظ رامبير أن المطعم قد خلا تماماً ، وأن الخادمة تنظر إليه فى دهشة ، فدفع حسابه وانصرف ، ولدى خروجه من المطعم وجد فى مقابله مقهى مفتوح الأبواب ، فاتخذ مكاناً فيه على العداد ؛ لكن يراقب مدخل المطعم ، ولم تدق الساعة التاسعة والنصف حتى كان قد اتجه نحو فندقه ، وهو يفكر عبثاً فى وسيلة للاتصال بجونزاليس الذى لم يكن يعرف عنوانه ، كما أن فكرة استئاف المحاولات من جديد كانت تبدو له فكرة شنيعة .

فى هذه اللحظة ، وفى هذا الليل الذى لانغمره إلا عربات الإسعاف المسرعة تنبه رامبير — كما قال هو نفسه للدكتور ريو بعد ذلك — إلى أنه كان قد نسى زوجته قريباً طوال هذه المدة التى وجه فيها كل اهتمامه

تبحث عن فتحة في الجدار الذي يفصله عنها ، ولكن كانت هذه أيضا هي اللحظة التي رأى فيها جميع السبل وقد سدت أمامه من جديد ، فراحا تعود ثانية إلى احتلال بؤرة رغباته مع نوع من الشعور بالألم جعله يعود نحو فئدة عدو الأسكى يفر من تلك الحروق القاسية التي لم تسكف مع ذلك عن إلهاب صدغيه .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ذهب إلى ريو ليسأله عن طريقه للمثور على كوتار . وقال له :

— لم يبق أمانى إلا أن أتبع الحيط من جديد .
وأجابه ريو قائلا :

— تعال غدا مساء ، فقد طلب إلى تارو أن أدعوكوتار ، لست أدري لماذا ، وسوف يحضر في الساعة العاشرة ، فلتحضر أنت في العاشرة والنصف .

وعندما حضر كوتار لدى الطبيب في اليوم التالي كان تارو وريو يتكلمان عن حالة شفاء غير متوقع حدثت في قطاع خدمة هذا الأخير الذي أخذ يعلق بقوله :

— حالة من عشر ، إنه لسعيد الحظ .

وقال كوتار :

— آه ! إذن لم تكن هذه حالة طاعون .

وأكد له أنها كانت حالة طاعون ، ولكنه استمر في إنكاره ،
وقال :

— هذا مستحيل مادام المريض قد شفى ، أنتما تعرفان — كما أعرف
تماماً — أن الطاعون لا يعرف الصفح .

وأجاب ريو بقوله :

— هذا على وجه العموم ، ولكننا مع التذرع بشيء من العناد
نصادف بعض المفاجآت .

فانفجر كوتار ضاحكاً ثم قال :

— إن ظواهر الأمور لا تدل على ذلك . هل سمعت الأرقام هذا
المساء ؟

وقال تارو — وهو ينظر إلى هذا الرجل ذى الدخل الثابت بكثير
من حسن النية — : إنه يعرف الأرقام ، ويعرف أن الموقف جد
خطير ، ولكن هلام يدل ذلك ؟ إنه يدل على وجوب اتخاذ إجراءات
خاصة أشد من ذى قبل .

ورد عليه كوتار قائلاً :

— لقد اتخذتم فعلاً هذه الإجراءات .

وأجاب ريو :

— نعم ولكن ينبغى أن يتمسك بها كل شخص من ناحيته .

ونظر كوتار إلى تارو دون أن يفهم ما يريد ، فقال هذا الأخير إن
هناك رجالاً كثيرين لا يزالون سلبيين ، وأن الوباء مسألة كل فرد ، فعلى كل
فرد إذن أن يؤدى واجبه ، والمنظمات الصحية مفتوحة الأبواب للجميع .

وقال كوتار :

— هذه فكرة ، ولكنها ان تؤدي إلى نتيجة : فالطاعون قوة هائلة ،
فرد تارو قائلاً في سعة صدر :

— ان نعرف ذلك إلا بعد أن نكون قد قنا بجميع ماني وسعنا .
وفي هذه الأثناء كان ريو يجلس إلى مكتبه يعيد نقل بعض الجزرات .
أما تارو ، فكان لا يزال ينظر إلى ذى الدخل الذى كان يتحمل على مقعده ،
ولجأة وجه إليه الخطاب قائلاً :

— لماذا لا تنضم إلينا ياسيد كوتار ؟
وهب الآخر واقفاً فى شئ من الخلق ، وأمسك بقبعته المستديرة فى
يده ، ثم قال :

— هذه ليست مهنتى .
ثم أضاف قائلاً بلهجة تعمد :
— هذا إلى أن أحوالى قد تحسنت مع الطاعون ، ولا أدري لماذا
أشغل نفسى بمحاولة لإيقافه .

وضرب تارو بيده على جبينه — كما لو كانت قد برقت فى عاطره
إحدى الحقائق فجأة ، وقال :

— هذا صحيح ، لقد نسيت ، فلو لا ذلك لقبض عليك .
وارتعد كوتار من رأسه إلى قدمه ، وأمسك بمقعده كما لو كان
يحاول منع نفسه من السقوط ، وكان ريو قد كلف عن الكتابة ، فنظر
إليه بمجد واهتمام ، وصاح صاحب الدخل قائلاً :
— من قال لك هذا ؟

فبدت الدهشة على تارو ، وقال :

— أنت نفسك أو على الأقل هذا هو ما فهمناه أنا والدكتور .
وهنا أخذ كونا ر يتتم بكلام غير مفهوم ، وقد اجتاحت نوبة غضب
حاد مفاجيء ، فقال له تارو :

— هدىء من نوراك ، قلن أكون أنا والدكتور بمن يبلغون عنك ،
فسألتك لاتهمنا ، فضلا عن أننا لم نكون من محبي الشرطة في يوم من
الأيام . هيا ، إجلس .

ونظر ذو الدخول إلى مقعده ، ثم جلس بعد شيء من التردد ، وبعد
لحظة تنهد ، وانبرى يعترف قائلا :

— إنها قصة لديمة بعشوها بعد أن ظننت أنها قد ذهبت في طلي اللسيان ،
وانكن شخصا ما ، عاد فتكلم عنها ، وإذا بهم يستدعوننى ، ويطلبون
منى أن أظل تحت تصرفهم حتى نهاية التحقيق ، وفهمت أنهم سوف
يقتنمون بالقبض على .

وسأل تارو :

— هل الأمر خطير .

فقال : هذا يتوقف على ما تقصده بذلك ، إنها ليست جريمة قتل
على أية حال .

فسأله من جديد :

— أهو السجن ، أم الاشغال الشاقة ؟

وبدا كونا ر في شدة الانهيار ، وهو يقول .

— لسجن لو كان لى حظ :

ولكنه بعد لحظة أودف قائلاً بحدة :

— إنها غلطة وقعت فيها ، وكل الناس يخطئون ، ولا أستطيع أن
أتحمل فكرة القبض على من أجل هذا ، أو إبعادى عن بيتى ، وعن عادائى
وكل من أعرفهم .
وسأله تارو :

— آه ! أمن أجل هذا اخترعت فكرة شق نفسك ؟

— نعم ، وكانت سخافة بكل تأكيد .

وتسكلم ريو للمرة الأولى ، وقال لكوتار : إنه يفهم ما يعتريه من
قلق ، ولكن الأمور قد تعود فتسير سيراً حسناً .
فقال :

— أوه ! أما فى الوقت الحاضر ، فأنى أعرف تماماً أن ليس هناك
ما أخشاه .

وأجاب تارو :

— أرى ذلك ، ولهذا فأنت لا تنضم إلى منظمتنا .

وكان كوتار فى هذه الأثناء يدير قبعته بين يديه ، فنظر إلى تارو
نظرة حائرة ، وقال :

— لا ينبغي أن تلومونى على ذلك .

ورد تارو وهو يبتسم :

— بكل تأكيد لا ، ولكن حاول على الأقل ألا تساعد فى نشر
الميكروب عامداً .

واعترض كوتار بأنه لم يكن هو الذى جاء بالطاعون ، وأن هذا الوباء

قد أتى من تلقاء نفسه ، وأنه إذا كان الطاعون قد ساعد في تحسن أحواله في الوقت الحاضر ، فليس ذلك مما يحسب عليه ، وعندئذ دخل رامبير ، بينما كان كوتار يضيف قابلاً في قوة :

— ومهما يكن من شيء ، ففي رأي أنسكم إن تصلوا إلى شيء .

وعلم رامبير أن كوتار يجهل عنوان جونزاليس ، وإن كان في الإمكان أن يعودا معاً إلى المقهى الصغير ، وحددا موعداً لذلك في اليوم التالي ، ولما أبدى ريو رغبته في أن يكون على علم بما يتم ، دعاه رامبير إلى أن يزوره مع تارو في غرفته في نهاية الأسبوع ، وفي أية ساعة من ساعات الليل .

وفي الصباح ذهب كوتار ورامبير إلى المقهى الصغير ، وحددا لجارسيا موهداً في المساء ، أو في اليوم التالي — إذا كان هناك ما يعوقه هذا المساء — وفي المساء انتظراه دون جدوى . أما في اليوم التالي ، فقد حضر جارسيا واستمع في صمت إلى حكاية رامبير ، ولم يكن قد درى شيئاً مما جرى ، ولكنه كان يعرف أنهم حاصروا أحياء بأكثر مدة أربع وعشرين ساعة من أجل التحقق من مسألة السكن ، ومن الجائز أن يكون جونزاليس والشابان لم يتمكنوا من عبور الحواجز ، وقرر أن كل ما يستطيع عمله هو أن يصلهما مرة ثانية براءول ، وأن هذا لن يكون قبل يومين ، بطبيعة الحال .

وقال رامبير :

— ينبغي البدء من جديد ، هذا ما ظننته .

وصح ما افترضه جارسيا ، فقد التقي بهما راول غداة اليوم التالى
فى ركن من أركان أحد الشوارع ، وأخبرهما بأنه قد تم تفتيش الأحياء
المتباعدة ، ولا بد من إعادة الاتصال بجونزاليس ، وبعد ذلك بيومين كان
رامبير يتناول غداءه مع لاعب كرة القدم الذى قال له :

— هذا غباء منا ، فقد كان ينبغى أن نتفق على طريقة اللقاء .

وكان هذا هو أيضاً رأى رامبير ، وواصل لاعب الكرة كلامه قائلاً :

— غداً صباحاً سنذهب إلى الشابين ، وسنحاول تدبير كل شىء .

وفى اليوم التالى لم يكن الشaban فى منزلهما ، فضربا لهما موعداً لليوم
التالى ظهراً فى ميدان « المدرسة » ، وعاد رامبير إلى فندقه وقد بدأ على
وجهه نوع من اليأس ارتاع له تارو عندما قابله بعد الظهر ، فسأله قائلاً :

— ألا تسير الأمور سيراً حسناً ؟

وأجاب رامبير :

— وذلك بسبب العودة من البداية دائماً .

ثم جدد له دعوته ، وقال :

— احضر هذا المساء .

وعندما دخل الرجلان غرفة رامبير فى المساء وجداه مستلقيا على
فراشه ، فنهض وملاً الكسكس التى كان قد أعدها ، وسأله ريو - وهو
يتناول كأسه - عما إذا كانت الأمور تسير فى الطريق السليم ، وأجاب
الصحفى بأنه أعاد الجولة كلها مرة ثانية ، وأنه وصل إلى نفس النقطة التى

كان قد انتهى إليها في المرة الأولى ، وأنه سوف يذهب قريباً للوحد
الآخر ، ثم تناول جرعة من كأسه ، وأضاف :

— وطبعاً لن يحضروا .

فقال له تارو :

— لا يجب أن نجعل من ذلك مبدءاً .

وأجاب رامبير - وهو يهز كتفيه - :

— إنك لم تفهم بعد .

— ماذا إذن ؟

— الطاعون .

وقال ريو :

— آه !

— نعم لم تفهما أن أمره يتوقف على البدء من جديد .

قال ذلك ، ثم ذهب إلى ركن من غرفته ، وأدار جهازه فونوغراف «
صغير ، وسأله تارو :

— أى أسطوانة هذه ؟ يخيل لى أنى أعرفها .

وأجاب رامبير : إنها « مستوصف سان چيمس » .

وفي منتصف الاسطوانة سمعوا على بعد صوت طلقين نارين ،

فقال تارو :

— لابد أن يكون الأمر يتعلق بكلب ، أو شخص يحاول الهرب .

وبعد لحظة انتهت الأسطوانة ، وسمع بوضوح صوت عربة الإسعاف
يقترّب ويمر تحت نوافذ غرفة الفندق ، ثم يخبو حتى يتلاشى في النهاية ،
وقال رامبير :

— هذه هي المرة العاشرة التي أسمع فيها تلك الاسطوانة اليوم ، وإن لم
تكن من الأسطوانات المسلية .
فسأله تارو :

— أتمحبها إلى هذه الدرجة ؟
وأجاب :

— كلا ، ولكن ليس لدى سواها .
ثم قال بعد لحظة :

— قلت لك : إن المسألة اتوقف على البدء من جديد .

وسأل ربو عن الطريقة التي تسير بها المنظمات ، وكانت هناك خمس
فرق تعمل ، ويأملون في تكوين غيرها ، وكان الصحفي يجلس على سريره ،
ويبدو عليه الاشتغال بالعبث بأظافره ، وأخذ ربو يتأمل هيكله القصير
القوى وقد تجمع على حافة السرير ، ولاحظ فجأة أن رامبير ينظر إليه ،
ويقول له :

— أنت تعرف يا دكتور أنني فكرت كثيراً في منظمتك ، وإذالم
أكن قد انضممت إليكم ، فذلك لأن لدى أسبابي الخاصة . أما فيما هذالك ،
فأعتقد أن في إمكانني أن أبذل شيئاً من ذات نفسي ، ولا سيما أنني قد
اشتركت في حرب أسبانيا .

وسأله تارو :

— في صف من ؟

فأجاب :

— في صف المهزومين ، ولكنني قد فكرت كثيراً منذ ذلك الحين.

وقال تارو :

— في ماذا ؟

— في الشجاعة . لقد عرفت الآن أن الإنسان أهل للجليل من الأعمال ، ولكنه إذا لم يكن أهلاً لعاطفة كبيرة ، فإنه لا يهمني .

وقال تارو :

— يبدو لي أنه أهل لكل شيء .

— كلا ، لأنه لا يستطيع تحمل الألم أو السعادة لمدة طويلة ؛ فهو إذن غير أهل لشيء يستحق الذكر .

ثم نظر إليهما ، وقال :

— هيا يا تارو ، هل أنت أهل لأن تموت في سبيل الحب ؟

فأجاب :

— لا أدري ، ولكن يبدو لي أنني غير أهل لذلك الآن .

— أرايت ؟ ولكنك أهل لأن تموت من أجل فكرة ، هذا واضح للمعين المجردة . حسن ، أما أنا ، فقد احتملت ما فيه الكفاية من الناس الذين يموتون من أجل فكرة ، فأنا لا أؤمن بالبطولة ، وأعرف أنها

سهلة ، وتعلمت أنها تقتل ، وكل ما يهمنى هو أن يحيا المرء ويموت من أجل ما يجب .

وكان ريو يستمع إلى الصحفي بانتباه ، وحينئذ قال له — دون أن يكف عن النظر إليه — :

— إن الإنسان ليس فكرة يا رامبير .

فقفز رامبير من فراشه ، ثم قال — وقد احتقن وجهه من الانفعال — :

— إنه فكرة ، وفكرة قصيرة الأمد منذ اللحظة التي يتحول فيها عن الحب ، والواقع أننا أصبحنا فعلا غير أهل للحب ؛ فلنستسلم صاغرين يا دكتور ، ولنحاول أن نكون كذلك ، فإذا استحال علينا ذلك ، فلننتظر الخلاص العام دون أن نلعب لعبة البعوضة . أما من جهتي أنا ، فلن أذهب إلى أبعد من ذلك .

ونهض ريو ، وقد بدا عليه تعجب مفاجئ . وقال :

— إنك على حق يا رامبير ، وليس هناك ما يدفعني إلى محاولة تثبيطك عما تنوى عمله . إنه يبدو لي حسنا وحقا . لكن ينبغي لي مع ذلك أن أقول لك : إن الأمانة هي الطريقة الوحيدة لمسكافة الطاعون . هذه هي فكرتي ، وقد تكون فكرة مضحكة .

فأجاب رامبير بلمحة سريعة جادة :

— وما هي الأمانة ؟

— لست أدري ما هي على وجه العموم ، ولكنني أعرف أنها في حالتى تلك تنحصر في مباشرة مهنتى .

ورد رامبير بشيء من الغيظ :

— آه ! لست أدرى ما هي مهنتي على وجه التحديد ، وربما كنت
مخطئاً لأنني اخترت الحب .

وواجهه ريو ، وهو يقول بقوة :
— كلا لست مخطئاً .

ونظر إليه رامبير ، ثم قال — وعليه سيما التفكير — :
— لا أظن أن لديكما — أتما الاثنين — ما تفقدان في كل هذا ،
ولذلك فمن السهل عليكما أن تكونا في جانب الصواب .

وأفريخ ريو كأسه ، وقال :
— هيا ، فلدينا بعض الأعمال .

وخرج وتبعه تارو الذي بدا عليه كما لو كان قد قرر في نفسه أمراً
في نفس لحظة خروجه ، فالتفت ناخية الصحنى ، وقال :

— هل تعرف أن زوجة ريو تقيم في إحدى المصحات التي تبعد
عن هنا بمئات من الكيلو مترات ؟

وبدرت من رامبير حركة تتم عن أنه فوجيء بهذا الخبر ، ولكن
تارو كان قد انصرف .

وفي الساعة الأولى من صباح اليوم التالي تحدث رامبير تليفونيا
إلى الطبيب ، وسأله :

— هل تقبل أن أعمل معكم إلى أن أهرى على طريقة لمغادرة المدينة ؟

ومرت فترة صمت في نهاية الخط ، ثم انطلق صوت ريو يقول :

— نعم يا رامبير ، وأشكرك .

هكذا مرت الأسابيع وسجناء الطاعون يضطربون بقدر ما يستطيعون ، حتى وصل الحال ببعضهم — مثل رامبير — أن يتوهموا ، كما شاهدنا ، أنهم يتصرفون تصرف الأحرار ، وأنه لا يزال في وسعهم الاختيار ، والواقع أن في وسعنا أن نقرر أن الطاعون كان في هذه اللحظة — منتصف شهر أغسطس — قد عم كل شيء ، ولم تعد هناك مصائر فردية ، بل قصة جماعية واحدة هي الطاعون ، ثم مشاعر يشترك فيها الناس جميعاً ، وكان أعظم هذه المشاعر ينحصر في الفراق ، والنفي بكل ما يحويانه من خوف وثورة ؛ لهذا يعتقد الراوى أنه من المناسب ، — في هذا الوقت بلغت فيه حدة القيظ والمرض أعلى درجاتها — أن يقدم لنا وصفاً عاماً لأعمال العنف التي كان يلجأ إليها مواطنونا الأحياء ، ولجنائز دفن الموتى ، وآلام العشاق المتباعدين باعتبار كل ذلك الأمثلة المميزة لتلك الفترة .

لقد حدث في أواسط هذا العام أن ثارت الريح ، واستمرت تهب أياماً متتالية على المدينة الموبوءة ، وسكان وهران يخافون الريح بصفة خاصة ؛ لأنها لا تقابل أى عائق طبيعي على الهضبة التي بنيت فوقها هذه المدينة ، ولذا نحتاج الشوارع بكل ما فيها من عنف ، وبعد كل هذه الأشهر الطويلة التي لم تسقط خلالها قطرة مطر واحدة على المدينة فتنعشها ، كانت

قد اكتست بطلاء أشهب اللون أخذ يتشقق قشوراً تحت هبات الريح ، وكانت هذه الريح تثير موجات من الأتربة والأوراق صارت تضرب سيقان المارة الذين أصبحوا نادري العدد ، فكانوا يرون وهم يسرعون الخطأ في الشوارع وقد انحنوا إلى الأمام ، ووضعوا مناديلهم أو أيديهم على أفواههم . أما في المساء ، فلم يعد أحد يرى التجمعات التي كانوا يحاولون بها أن يطيلوا — ما استطاعوا — من أمد هذه الأيام التي قد يكون كل يوم منها آخر أيامهم ، ولم يعد يرى المرء إلا مجموعات صغيرة من الأشخاص الذين يسرون على عجل ليعودوا إلى منازلهم ، أو لكي يدخلوا مقاهيهم . ولذلك لم يكن يقبل الغروب — الذي صار أكثر تبكيراً في هذه الأيام — حتى ترى الشوارع مقفرة إلا من الريح التي كانت ترسل أناتها بلا توقف .

وكانت رائحة النباتات البحرية والملح تصل إلى الناس من البحر الهائج المحجوب عن أبصارهم . وهكذا أصبحت هذه المدينة المقفرة المغبرة ، المتشعبة بروائح البحر ، الغاصة بصرخات الريح ، تن أنين جزيرة تعسة .

وحتى الآن كان ضحايا الطاعون في الأحياء الخارجية المزدهمة غير المريحة أكثر منهم في وسط المدينة ، ثم بدا فجأة أن الطاعون قد اقترب واستقر أيضاً في أحياء المصالح الحكومية ، واتهم السكان الريح بأنها هي التي نقلت بذور العدوى ، حتى قال في ذلك مدير الفندق : « لإنهاء تخطيط أوراق اللعب بعضها ببعض » . وعلى كل حال لقد عرفت الأحياء

الوسطى في المدينة أن دورها قد حان عندما أخذ رنين عربات الإسعاف المتكاثرة يقرع أسماع سكانها أثناء الليل مردداً تحت النوافذ دعاء الطاعون الرتيب الكثيب .

وقد خطر لأولى الأمر أن يقوموا في داخل المدينة نفسها بعزل بعض الأحياء التي استفحل فيها الوباء بصفة خاصة، وعدم التصريح بالخروج منها إلا لمن لاغنى عن خدماتهم من الرجال ، وكان الذين يسكنونها — حتى ذلك اليوم — لا يستطيعون منع أنفسهم من الاعتقاد بأن ذلك لم يكن إلا إجراء استفزازياً خاصاً مرجحاً لإلهم ، وكانوا إذا قارنوا أنفسهم بسكان الأحياء الأخرى اعتبروهم من الأحرار ، وكان هؤلاء بدورهم يعززون أنفسهم في اللحظات العصيبة التي يمرون بها بفكرة أن هناك آخرين غيرهم أقل منهم حرية ، فكان كل ما تيسر لهم من أمل يتلخص في قولهم : « هناك من هو أشد سجننا منا » .

وحول هذه الفترة حدث أيضاً أن ازداد عدد الحرائق ، ولا سيما في أحياء الملاهي المتاخمة للأبواب الغربية للمدينة ، ودلت التحريات على أن مرتكبي هذه الحرائق كانوا من الذين عادوا من الحجر الصحي وقد أطاشت الأحزان والحداد عقولهم ، فأشعلوا النار في منازلهم ظناً منهم أنهم بذلك يقضون على الطاعون الرابض فيها ، وقد وجد المسئولون عنتاً كبيراً في حملهم على الإقلاع عن هذه الأعمال التي كان تكرارها يعرض أحياء برمتها لخطر داهم بسبب شدة الريح ، وحاولوا بكل جهدهم أن يبينوا لهم أن إجراءات التطهير التي قامت بها السلطات كانت كافية لإبعاد كل

خطر للعدوى ، ولسكن دون جدوى ، فكان من الضروري فرض عقوبات قاسية ضد هؤلاء السذج الذين يشعلون الحرائق ، ولاشك أن فكرة السجن لم تكن هي التي حملت هؤلاء على التراجع. بل التأكد من حقوبة السجن التي كانت حينئذ تعادل عقوبة الاعدام نظراً لزيادة عدد الوفيات زياده كبيرة في سجن البلدية ، وبطبيعة الحال لم تكن هذه العقيدة تقوم على مجرد الوهم ؛ فهناك أسباب أكيدة تدعو للإعتقاد بأن الطاعون يزداد ضراوة بين من يعيشون في جماعات سواء أكانوا جنوداً أم رجال دين أم سجناء ؛ وذلك لأن السجن مكان عام بالرغم من عزل بعض السجناء ، وبما يثبت ذلك أن حراس سجن البلدية في مدينتنا كانوا يدفعون ضريبتهم للبرض بنفس القدر الذي كان يدفعه السجناء ، والواقع أن الجميع كانوا — من وجهة النظر العليا للطاعون — محكوما عليهم ابتداء من المأمور حتى آخر سجين من سجنائه ، وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي سادت فيها العدالة المطلقة في السجن .

وقد حاولت السلطات تطبيق سلم الطبقات على هذا المستوى الموحد ، ففكرت في منح النياشين لحراس السجن الذين يموتون أثناء تأدية خدمتهم . ولكنهم لم تنجح في ذلك ؛ فالواقع أنه كانت هناك حالة حصار ، ولذلك كان من الممكن ، من وجهه نظرا ، أن يعتبر هؤلاء الحراس جنوداً في حالة تعبته ، ومن ثم فقد منحوا الميدالية العسكرية بعد وفاتهم ، ولكن إذا كان المسجونون أنفسهم قد سلخوا بذلك فإن الأوساط العسكرية لم تنظر إليه بعين الارتياح ، وقد كانت على حق عندما قالت : إنه خلط الأوضاع — يدعو للأسف — فحدث في أذهان الشعب . وأقرت السلطات هذا الطلب

ورأت أنه من الأيسر منح الحراس الذين يموتون ميدالية الوفاء ، أما فيما يختص بالذين سبق منحهم الميدالية العسكرية ، فقد كان الخطأ قد وقع بالنسبة لهم ولم يعد في الاستطاعة التفسير في سحب النياشين منهم ، وإن كانت الأوساط العسكرية قد استمرت تدافع عن وجهة نظرهما . هذا إلى أن ميدالية الأوبئة لم يكن لها أثر الميدالية العسكرية في رفع الروح المعنوية ، لأن الحصول عليها في وقت سادت فيه الأوبئة كان أمراً عادياً . وهكذا عم الاستياء الجميع .

وفوق ذلك لم يكن في مقدور مصلحة السجون أن تسير على النهج الذي سارت عليه السلطات الدينية ، أو ذلك الذي سارت عليه السلطات العسكرية إلى حد ما . ذلك أن رهبان الديرين الوحيدين في المدينة كانوا قد تفرقوا ليقدموا بصفة مؤقتة لدى الأسر المتدينة . كما أن بعض جنود الشكبات كانوا قد قسموا مجموعات صغيرة تم إسكانها في المدارس أو العمارات العامة . وهكذا نرى أن المرض الذي أرغم الأهالي ظاهرياً على هذا النوع من التضامن الذي يقع عادة بين من هم في حالة حصار قد عمل في نفس الوقت على تفكيك الجماعات التقليدية ، وعاد بالآفراد إلى وحدتهم : ولقد كان لهذه أثره في إحداث الكثير من الحيرة والهرج .

ومن اليسير أن نرى كيف تضافرت هذه الظروف — مضافاً إليها الريح — على إشعال الحرائق في الأذهان أيضاً . فقد هوجمت أبواب المدينة من جديد أثناء الليل مرات عديدة ، ولكن الهجوم في هذه المرة قد وقع من مجموعات صغيرة متسللة ، وتبدل فيه إطلاق النار ، وسقط بعض

الجرحي ، وحدثت بعض حالات الحرب . وأدى ذلك إلى دعم مراكز
الحراسة ، فلم تلبث هذه المحاولات أن توقفت . ولكنها — مع ذلك —
كانت كافية لأن تبعث في المدينة روحاً ثورية تسببت في بعض مشاهد
العنف ، فنهبت بعض المنازل التي كانت قد أحرقت أو أغلقت لأسباب
صحية .

ولا شك أنه من الصعب افتراض أن هذه الأحداث كانت مدبرة .
ففي كثير من الأحيان كان يقع ظرف مفاجيء فيدفع من كانوا يعتبرون
حتى هذه اللحظة من ذوى السمعة الحسنة إلى إتيان أعمال تستحق اللوم .
وسرعان ما كان يندفع غيرهم إلى تقليدهم ، وحدث ذات مرة أن خرج
بعض الحنق عن طورهم واقتحموا منزلاً لالزت النيران مشتعلة فيه ،
وكان ذلك في حضور صاحبه الذي أذهلته آلامه المفاجئة عن نفسه ،
وإزاء ما بدا من هذا الأخير من عدم الاكتراث سارع الكثيرون من
المشاهدين إلى تقليد الأولين ، فكنت في هذا الشارع المعتم وعلى ضوء
الحريق ترى أشياء تخرج من كل جانب وقد شوهت هيئتها النار
الحامية ، وما حملته على أكتافها من أشياء وأثاث . وقد كانت هذه
الحوادث هي السبب الذي اضطر السلطات إلى تسوية حالة الطاعون بحالة
الحصار ، وإلى تطبيق قوانين هذه على تلك ، فقتل لسان رمية بالرصاص .
ولكن من المشكوك فيه أن يكون هذا الحادث قد فعل فعله في نفوس
الآخرين؛ إذ أن أحداً لم يشعر بوقوع هذا الإعدام المزدوج وسط أعداد
الموتى الهائلة ، بل كان كقطرة ماء في بحر .

والحقيقة أن مثل هذه المشاهد قد أخذت تتكرر كثيراً دون أن

تبدى السلطات ميلا للتدخل فيها . أما الإجراء الوحيد الذى يبدو أنه أثر
فى السكان ، فكان فرض تقييد الإضاءة ، فنذ الساعة الحادية عشرة كانت
المدينة تغرق فى ظلام دامس ، وتبدو كما لو كانت قد قدت من حجر .

وفى الليالى القمرية كانت ترى المدينة وقد اصطفت حوائطها المائلة
للبياض، وشوارعها المستقيمة التى لا تحاطبها كتلة سوداء لشجرة، ولا يعكر
حدوءها خطا شخص يمر أو عواء كلب يسرى . وحينئذ لم تعد المدينة
الكبيرة الصامتة سوى مجموعة من المكعبات الصخمة الميتة ، ومن بينها
تمائيل تذكارية صامتة لمصلحين طواهم النسيان ، أو لعظماء غابرين قد ذكوا
إلى الأبد فى قوالب من برونز ، وأصبحوا هم وحدهم — بوجوههم الحجرية
أو الحديدية المزيفة — الذين يثيرون فى أنفسنا صورة أصابها الانحطاط
لما كان عليه الإنسان . كانت هذه الأوثان التافهة تتربع تحت سماء كثيفة
فى ميادين لأحياة فيها ، وتبدو كما لو كانت دواب تخلو من الحس ، فتقدم
لنا بذلك صورة لا بأس بها لذلك العهد الجامد الذى بدأناه ، أو على
الأقل صورة له فى مرحلة نضوجه ، صورة مقبرة أخرس فيها الطاعون
والحجر والليل كل صوت .

كذلك كان الليل ينجم على كل القلوب وجميع الحقائق ، فإن
الأساطير التي كانوا يقصونها عن طريقة دفن الموتى لم يكن من شأنها أن
تبعث الطمأنينة في نفوس مواطنينا ، ولذلك كان من الضروري أن
تتكلم عن طرق الدفن ، وإن كان الراوى يأسف لذلك ؛ إذ أنه يشعر جيداً
باللوم الذي قد يوجه إليه في هذا الصدد . ولكن مما يبرر له هذا المسلك
أن الدفن قد استمر طيلة هذا العهد ، وأنه — كجميع مواطنيه — قد
اضطر إلى أن يجعل أمور الدفن من مشاغله الأساسية ، وليس معنى ذلك
أنه يحب هذا النوع من الاحتفالات ؛ إذ أنه على العكس من ذلك يفضل
ضجة الأحياء كما في حمامات البحر مثلاً ، ولكن حمامات البحر كانت قد
ألفت ، وكان يخشى على مجتمع الأحياء أن يضطر في يوم من الأيام إلى
إخلاء مكانه لمجتمع الموتى . كانت هذه هي الحقيقة المحتومة ؛ وبطبيعة
الحال كان في الإمكان دائماً أن يبذل المرء جهده لكي لا يرى هذه الحقيقة ،
وأن يغمض عنها عينيه ، ويرفض الاعتراف بها ، ولكنها كانت من القوة
بحيث تنتهي دائماً باحتياج كل شيء ، وإلا فكيف كان السبيل مثلاً إلى
مقاطعة الدفن يوم يحتاج من تحب إلى الدفن ؟

كانت السرعة هي العلامة المميزة لطريقة الدفن ههنا في أول الأمر

فقد بسطت جميع الإجراءات ، وألغى كل ما كان يصحب الجنائز من ترف . ذلك أن المرضى كانوا يموتون بعيداً عن عائلاتهم ، فألغى القداس الذى جرت العادة بإقامته يوم الوفاة حتى كان من يموت أول الليل يقضى بتميته بمفرده ، ومن يموت أثناء النهار يدفن فوراً دون أى تأخير ، وقد كانت تخطر الأسرة بالوفاة بطبيعة الحال ، ولكن كثيراً ما كان يحدث ألا تتمكن الأسرة من الانتقال ؛ لأنها كانت تجبر على الحجر الصحى إذا كانت قد خالطت المريض . أما إذا لم تكن قد خالطت المتوفى ، فإنها كانت تحضر فى الساعة المحدودة ، ساعة التوجه إلى المدفن ، وحينئذ يكون جثمان المتوفى قد تم غسله ووضعه فى نعشه .

ولنفترض أن هذه الإجراءات كانت ستحدث فى المستشفى المساعد الذى يتولى إدارته الدكتور ريو . فهذه المدرسة لها باب يقع خلف المبنى الرئيسى . وهناك مكان فسيح يطل على الدهليز كانت ترقص به النعوش ، وكانت الأسر إذا دخلت هذا الدهليز وجدت نعشاً واحداً قد تم إغلاقه . وحينئذ يسارع بإنجاز أهم ما ينطوى عليه الأمر . ونعنى أن يطلب من رب الأسرة التوقيع على بعض الأوراق وبعد ذلك يوضع الجثمان فى سيارة ، وهى قد تكون عربة نقل حقيقية أو سيارة إسعاف كبيرة حولت إلى عربة نقل . ويستقل أقارب الميت إحدى سيارات الاجرة التى ما زالت مرخصاً بها . وتسير السيارتان بأقصى سرعتيهما مخترقة الشوارع الخارجية نحو المقبرة . وعند الباب يقوم رجال الشرطة بإيقاف القافلة ، وختم تصريح المرور الرسمى الذى بدونه لم يكن يمكن لأحد أن ينتقل إلى ما يسميه مواطنونا بالمشوى الأخير ، ثم يختفى رجال الأمن وتسير العربات لتقف بجوار أحد المربعات التى تحتوى على حفر جديدة

فى انتظار أن يتم ملؤها ، ويتلقى أحد القسيس الجثمان لأن الخدمات الجنائزية كانت قد ألغيت فى الكنائس .

ويخرج النعش وسط الصلوات ويلف بالحبال ويجر على الأرض ويرتطم بالقاع . وعندما يبدأ القسيس فى رش الماء المقدس تكون الأتربة قد أهيت فعلا على غطاء النعش أما عربة الإسعاف فكانت قدصرفت قبل ذلك بقليل لكي يتم تطهيرها بالسوائل المطهرة . وقبل أن تضعف دقائق الجواريف وهى تهيل التراب على القبر شيئاً فشيئاً تكون الأسرة قد تراكت فى سيارة من سيارات الأجرة ولا يمضى أكثر من ربع الساعة حتى تكون قد بلغت مسكنها .

وهكذا كان كل شيء يسير فى الحقيقة بأقصى حدة من السرعة وأدنى حد من المخاطرة ، وما لاشك فيه ، فى بادئ الأمر على الأقل ، أن الشعور الطبيعى الذى يربط بين أفراد الأسرة قد انقبض نتيجة لذلك ، ولكن مثل هذا الشعور لا يمكن أن يعتبر من الأمور التى يؤبه لها فى وقت الطاعون ، فقد ضحى بكل شيء فى سبيل الوسائل الفعالة . هذا وإذا كانت الروح المعنوية للأهالى قد قاست فى أول الأمر من هذه الاجراءات ، إذ أن رغبة الناس فى الحصول على دفن ملائم أكثر انتشارا مما تظن ، فمن حسن الحظ أن مشكلة التوطين قد أصبحت بعد قليل من أعوص المشاكل ، فاضطر الناس إلى أن يصرفوا اهتمامهم إلى ما هو أكثر إلحاحاً . وهكذا ألهمتهم الصفوف الطويلة التى ينبغى لهم الوقوف فيها والمساعدة التى يجب القيام بها والإجراءات التى لابد من إتمامها إذا أرادوا أن يحصلوا على

قوتهم الضرورى ، حتى لم يصبح لديهم الوقت الكافى للتفكير فى الطريقة التى يموت بها الناس من حولهم ، والتى قد يموتون هم أنفسهم بها يوماً ما . وهكذا لم تلبث الصعوبات المادية هذه - التى لم يكن بدم اعتبارها شراً - أن انقلبت خيراً بمرور الزمن ، ولو لم ينتشر الوباء على النحو الذى رأيناه لسارت الأمور على أحسن حال .

لك أن النعوش أصبحت تزداد كل يوم ندرة ، كما شح نسيج الأكفان ، وعزت الأماكن فى المقابر ، وصار من الضرورى أن يحتاط الأمر . ولما كان البحث عن الطرق الفعالة أمر ضرورياً فقد بدا أن أبسط الأمور أن تجعل الاجراءات جماعية ، وأن تكرر الرحلة بين المستشفى والمقبرة إذا اقتضى الأمر ذلك . فمثلاً كان يوجد فى مستشفى الدكتور ريوخسة نعوش ، فكانت تحمل هذه النعوش الخمسة على سيارة الإسعاف كلما امتلأت . وفى المقبرة كانت تفرغ من شحناتها ، ثم تحمل الجثث ذات اللون الحديدى على نقالات ، وترك للانتظار فى مخزن أعد لهذا الغرض . وبعد ذلك كانت ترش النعوش بمحلول مطهر ، ثم تعود للمستشفى . وتبدأ العملية من جديد إذا كان هناك ما يقتضى ذلك . وكان هذا إجراء سليماً . وقد أظهر المدير رضاه عنه ، وقال لريو : إنه خير من عربات اليد التى يقص علينا تاريخ الأوبئة فى العصور القديمة أنها كانت تحمل الموتى ، ويجرها الزوج ، وقد أجابه ريو قائلاً :

— نعم ، إن الموتى يدفعون بنفس الطريقة ولكن نحن نقوم بعمل بطاقات ، وهذا تقدم لا جدال فيه .

وبالرغم من هذا النجاح الذى أحرزته الإدارة فإن ، الطابع الممجوج

الذى اتسمت به تلك الإجراءات قد اضطر المديرية إلى إبعاد الأهالى من مراسم الدفن، فلم تسمح لهم إلا بالانتظار على باب المدفن؛ وحتى هذا الحق لم يمنح لهم بصفة رسمية. وذلك لأنه قد أجرى بعض التغيير فيما يختص بالشعائر الأخيرة. فهناك فى أقصى الجبلانة، وفى مكان فسيح عارٍ إلا من أشجار المصطكى أنشئت حفرتان كبيرتان إحداهما للرجال، والأخرى للنساء. ومن هذه الناحية تعتبر الإدارة قد راعت حدود اللياقة، ولكن ذلك لم يدم، فقد اضطررت الظروف فيما بعد إلى العدول عن هذا النوع الأخير من الحياء. فخلطوا الرجال بالنساء، ودفنوا الجميع أكواماً بعضهم فوق بعض دون رعاية لآى شيء. ومن حسن الحظ أن هذا الخلط النهائى لم يحدث إلا فى أيام الوباء الأخيرة. أما فى هذه الفترة التى تهمنا الآن فكانت الحفرتان منفصلتين. وقد تمسكت المديرية كل التمسك ببقائهما منفصلتين. وقد وضع فى قاع كل من هاتين الحفرتين طبقة سميكة من الجير الحى كانت تغطى وتتصاعد منها الدخان. وعلى حافة الحفرة وضعت كومة من نفس الجير كانت تتصاعد منها الفقاعات، وتنفجر فى الهواء الطلق. فكانت إذا وصلت سيارة الاسعاف من رحلتها حمل ما فيها من نقالات فى قافلة، وتركت الجثث تنزلق إلى القاع، الواحدة بجانب الأخرى وقد تعرت والتوت بعض الشيء، وبعد ذلك تغطى بالجير الحى ويهال عليها التراب، ولكن إلى حد محدود، حتى يبقى هناك مكان لضيوف جدد. وكان أهل الموقى يدعون فى اليوم التالى ليوقعوا على أحد السجلات، ذلك الذى يشير إلى ما يمكن أن يكون هناك من خلاف بين الأدميين والكلاب مثلاً. ذلك أنه فى هذه الحالة يمكن الرجوع دائماً إلى السجلات.

وكان لابد من مرظفين لإتمام كل هذه العمليات . وكان يبدو أنهم على وشك الفساد . فقد قضى الطاعون على كثير من هؤلاء الممرضين ووالجانواتية، الرسميين، ثم على من حل محلهم من متطوعين . ذلك أنه لم يكن بد من حدوث العدوى رغم كل ما كان يؤخذ من احتياطات .

ولكننا إذا دققنا النظر بعض الشيء وجدنا أن من أشد الأمور إثارة للدهشة أنهم لم يعدموا قط أن يمدوا الرجال الذين يقومون بتلك المهمة طيلة مدة الطاعون . أما الفترة الحرجة فقد كانت قبيل وصول الطاعون إلى قمة انتشاره ، حينئذ كانت مخاوف الدكتور ربولها ما يبررها : فلم يكن هناك من الأيدي العاملة ما يكفي لتكوين القادة ، ولا للقيام بما كان يسميه بالأعمال الخشنة . ولكن لم يكن الطاعون يسيطر على المدينة بأسرها ، حتى أدت هذه الضراوة نفسها إلى نتائج حسنة . ذلك أنها قد أشاعت الاضطراب في حياة المدينة الاقتصادية كلها، وخلقت عدداً كبيراً من العاطلين . ولم يكن هؤلاء في أغلب الأحوال ينضمون إلى القادة ، ولكنهم كان لهم فضل كبير في حل مشكلة الأعمال الوضيعة . والواقع أنه منذ تلك اللحظة أخذ الخوف من الجوع يتغلب على الخوف من الخطر؛ لأن الأجير كان يقدر بمدى المخاطرة . فاستطاعت الخدمات الصحية أن تحصل على قائمة بأسماء طالبي العمل ، ولم يكن يخلو مكان حتى تتصل بمن لهم الأسبقية في القائمة . ولم يكن هؤلاء يتوانون في تقديم أنفسهم إلا إذا كانوا هم أنفسهم قد أدخلوا مكانهم . وهكذا استطاع المدير الذي تردد طويلاً في استخدام المحكوم عليهم بالسجن المؤقت، أو المؤبد في مثل هذا النوع من الأعمال أن يتجنب اللجوء إلى هذه النتيجة القصوى . فلم

يكن هناك ما يمنع من الانتظار ما دام هناك متعطلون .

تمسكن إذن مواطنونا بطريقة أو بأخرى من أن يصلوا إلى مشواهم الأخير حتى نهاية شهر أغسطس . وإذا لم تكن هذه الطريقة لائقة فإنها على الأقل قد سارت بنظام يكفي لإيهام الإدارة بأنها لا زالت تؤدي واجبها . ولكن ينبغي لنا أن نسبق قليلا سياق الحوادث لكي نتحدث عن آخر وسيلتين اضطر لإيهام المسؤولين في هذا الصدد . ذلك أنه حينما بلغ الطاعون أقصى مدى وصل إليه - أي ابتداء من شهر أغسطس - زاد تراكم الضحايا حتى تجاوزا إمكانات مقبرتي الصغيره . وعبثا حاول القائمون بالأمر هدم بعض الجدران، وفتح غمبا للدوتى في الاراضى المجاورة فقد كان من الضروري العثور على حل آخر سريع ، فقرر أولا أن يكون الدفن ليلا ، وكان من شأن هذا القرار أن يعنى من اتخاذ بعض الاحتياطات الخاصة بحرمه الجثث، ومن ثم أمكن وضع بعضهم فوق بعض في أكوام داخل عربات الإسعاف . وكان القليلون من المارة - الذين يتأخرون في الطريق حتى هذه اللحظة في الأحياء الخارجية - مخالفين بذلك قواعد حظر الخروج ليلا، أو أولئك الذين تضطرم مهنتهم إلى هذا التأخر ، يصادفون في بعض الأحيان عربات الإسعاف الطويلة البيضاء تنهب الأرض نهبا وصدى رنينها الباهت يتجاوب في الشوارع المظلمة ، وبعد ذلك كانت تلقى الجثث في الحفر على عجل ، ولا تمكاد تستقر في مرقدتها حتى تكون أكوام الجير قد انهارت على وجوهها وغطاها التراب كلها في تلك الحفرة التي كانت تزداد مع الوقت عمقا .

ورغم ذلك لم يمض وقت طويل حتى اضطروا إلى البحث عن وسائل

أخرى، والتوسع في الاستباحة ، فصدر قرار من المديرية بنزع ملكية قبور الموتى القدامى الذين أرسلت رفاتهم إلى الأفران بعد استخراجها ، ثم لم يلبثوا أن رأوا أنفسهم مضطرين أيضاً إلى إرسال موتى الطاعون، —هم الآخرون— إلى الفرن . ولم يكن أمامهم حينئذ إلا استعمال فرن لإحراق القمامة الذى يوجد خارج أبواب المدينة من ناحيتها الشرقية . وقد أدى ذلك إلى إبعاد نخيم الحراس بعض الشيء، وكان لأحد موظفى البلدية الفضل في تسهيل مهمة السلطات عندما نهض باستخدام عربات الترام التى كانت فيما مضى تمر على دكورنيش ، البحر ، ثم توقف سيرها منذ حل الطاعون ، وقد اضطروا — من أجل هذه الغاية — إلى إجراء بعض التعديلات في العربات والقاطرات بأن رفعوا المقاعد ، وحولوا الخط الكهربائى نحو الفرن الذى أصبح بذلك رأساً للخط .

وهكذا بدأ الأهالى فى نهاية الصيف ووسط أمطار الخريف يرون فى كل ليلة قوافل غريبة من عربات الترام تخلو من الركاب، وتذرع أرض الكورنيش مطلة على ماء البحر بضوضائها المعروفة ، ثم لم يلبثوا أن عرفوا ماهيتها . ورغم الدوريات التى كانت تمنع الوصول إلى الكورنيش فكثيراً ما كانت تتمكن بعض الجماعات من القسلل بين الصخور التى تتكسر عليها أمواج البحر، ويلقى أفرادها بالأزهار على العربات لدى مرور الترام . وهكذا ظل الناس طوال هذه الليالى الصيفية يسمعون ضجيج عربات الترام وهى تسير حافلة بما تحمل من زهور وموتى .

ومهما يكن من شئ، فقد تعود سكان الأحياء الشرقية من المدينة أن يروا فى كل صباح من أصبحت الأيام الأولى نوعاً من البخار الكثيف المقرز

نحيم على أجوائهم . وكان من رأى جميع الأطباء أن هذه الروائح لا يمكن أن تؤذى أحداً مهما كانت موجودة . ولكن سكان تلك الأحياء ما لبثوا أن هددوا بهجرها لاقتناعهم بأن الطاعون ينقص عليهم من السماء . ولذلك اضطرت السلطات إلى تحويل اتجاه الأبخرة بوسائل معقدة ، وبذلك هدأت نائفة السكان . ولكنهم ظلوا - كلها هبت ريح شديدة - يحسبون براثة آتية من الشرق تذكرهم بأنهم يعيشون تحت نظام جديد وبأن نيران الطاعون ما برحت تلتهم قربانها كل مساء .

كان هذا أقصى ما وصل إليه الوباء من مدى . ومن حسن الحظ أن حدته لم تزد بعد ذلك ، وإلا لأعيت حيل مكاتبنا ، وأربت على استعداد المديرية ، بل وعلى قدرة القرن على الامتصاص . وكان ريو يعلم أن السلطات كانت قد استعدت للانتحاء إلى الحلول اليائسة ، مثل إلقاء الجثث فى البحر ، وكان من اليسير عليه أن يتصور ما سوف يكون لها من زبد مشحون بالأذى فوق صفحة الماء الزرقاء . وكان يعلم كذلك أنه إذا استمرت الإحصائيات فى الصعود ، فلن تستطيع أية منظمة - مهما كانت روعة تنظيمها - أن تواصل المقاومة ، وأن الأشخاص حينئذ سوف يقبلون على الطرقات ليوتوا فيها أكواماً حيث تتعفن جثثهم رغم أنف المديرية ، وأن المدينة سوف تشهد المحتضرين فى الميادين العامة يتعلقون بالأحياء مدفوعين إلى ذلك بمزيج من حقد مشروع ، وأمل أبه .

على كل حال كان هذا النوع من الرجحان والإشفاق هو الذى حفظ على مواطنينا شعورهم بالنقى وبالفراق، وهنا لابد أن نشير إلى أن الراوى يعرف جيداً أنه بما يدعو للأسف حقاً ألا يكون فى مقدوره أن يذكر هنا شيئاً من المشاهد الطنّانة ، كأن يتحدث عن بطل تطرب لبطولة النفوس ، أو عمل براق من تلك التى نسمع عنها فى القصص القديمة . وذلك لأنه لا شيء أبعد من الوباء عن الطنين ، ولأن المصائب الكبرى تنقسم بالرتابة ولو لم تكن كذلك إلا اطول أمدها . والواقع أن الذين عاشوا أيام الطاعون المروعة يذكرون جيداً أنها لم تكن تبدو كألسنة اللهب عاتية لانهاية لها ، بل كأقدام تظأ الناس ببطء فتحطم كل شيء فى طريقها .

كلا فالطاعون لاشأن له بالصور الكبيرة المثيرة التى لاحقت الدكتور ريو فى بداية الوباء ، ولكنه كان أولاً وقبل كل شيء إدارة متزنة جاذقة تسير فى أداء عملها على خير وجه . ولنذكر — من باب الاعتراض — شيئاً مما يرويه أو من أفكاره هو نفسه ، فهو لم يشأ أن يعدل شيئاً نزولاً على حكم الأساليب الفنية ، اللهم إلا فيما يختص بالحاجات الضرورية لتناسك الحكاية واتساقها .

وهذه الموضوعية نفسها هى أيضاً التى تفرض عليه الآن أن يقرر

أنه إذا كان الفراق هو أشد الآلام التي تميزت بها هذه الفترة بل وأعظمها وأعظمها ، وإذا كان من الضروري أن يقدم له صورة جديدة في هذه المرحلة من الطاعون ، فإننا لا نجانب الصواب في شيء حين نقرر أن هذا العذاب نفسه كان قد فقد حينئذ ما يجعله مؤثرا .

فهل معنى ذلك أن مواطنينا - أو على الأقل أشدهم تألما من نار الفراق - كانوا قد اعتادوا هذا الموقف ؟ لن يكون الحق كله في جانبنا لو أكدنا ذلك . وربما كنا أكثر دقة لو قلنا : إنهم كانوا من الناحية المعنوية والجسمية يشعرون بنار الجوى تحرق أحشائهم . فقد كانوا في بداية الطاعون يذكرون جيدا الشخص الذي فقدوه ويأسفون لفراقه . ولكنهم إذا ذكروا بوضوح وجه الحبيب وضحكته وأيامه السعيدة ، فإنهم كانوا يجدون صعوبة في تخيل ما عسى أن يفعله هذا الشخص في تلك الساعات التي يذكرونه فيها وهو في أمكنة ستظل دائما نائية عنهم . ومعنى ذلك أنهم في هذا الوقت كانوا يتمتعون بالذاكرة ولكن ينقصهم الخيال . أما في المرحلة الثانية للطاعون ، فقد فقدوا الذاكرة أيضاً .

وليس معنى ذلك أنهم نسوا هذا الوجه ، ولكنهم فقدوا وجوده معهم بلحمه ودمه ، ولم يعودوا يرونه في داخل أنفسهم ، وهذا يعادل تماما فقدانهم صورة وجهه . ومن ثم فإنهم إذا كانوا يميلون خلال الأسابيع الأولى إلى الشكوى من أنهم لم يعودوا يملكون من أمور حبهم سوى الظلال ، فقد لاحظوا فيما بعد أن هذه الظلال نفسها قد فقدت ما كان يجسدها في نظرهم بعض الشيء ، بل وكل ما كان قد بقي لها من لون فيه الذاكرة مهما كان باهتا . ففي نهاية هذه الفترة الطويلة من الفراق لم يعودوا

يتخيلون هذا التعاطف الذى كان بين جوانبهم ، ولا كيف كان يعيش بجوارهم شخص كان فى وسعهم فى كل لحظة أن يمسوه بأيديهم .

كان مواطنونا - من وجهة النظر هذه - قد انطوا تحت لواء الطاعون ، ذلك اللواء الذى كان فعلاً بقدر ما كان تافهاً . ولم يعد أحد منا يعرف المواطنين الكبيرة . وأصبح الجميع لا يعرفون إلا المواطنين الرتيبة . نعم ، كانوا دائماً يرددون قولهم : ولقد آن الأوان لى ينتهى كل هذا كانوا يقولون ذلك لأنه من الطبيعى أن يتمنى الناس نهاية العذاب الجماعى ، ولأنهم كانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن ينتهى .

ومع ذلك فقد كانوا يقولونه دون أية حرارة أو مرارة ، كما كانوا يفعلون فى البداية ، وإنما كانوا يقولونه مدفوعين بالقليل من وضوح التفكير الذى كان لا يزال باقياً لديهم والذى كان جديداً ضعيفاً . وهكذا حل الانهيار محل الحساس الوثاب الذى عرفوه فى الأسابيع الأولى . وإذا كنا نخطئ لو عددنا هذا الانهيار استسلاماً ، فإنه مع ذلك يعتبر نوعاً من القبول المؤقت .

اعتاد مواطنونا السير فى الصف تبعاً للتعالم ، وكيفوا به - كما يقولون - لأنه لم يكن لديهم وسيلة غير ذلك . ومن الطبيعى أنهم ظلوا يحملون سيما الألم والعذاب ، ولكنهم لم يعودوا يشعرون بوخزهما ، وكان الدكتور ريو مثلاً يرى فى ذلك الأمر بالذات نوعاً من التعبير عن التعاسة ، ويقول : إن تعود اليأس شر من اليأس نفسه . ولم يكن المقترون تعساء حقيقة فى أول الأمر ، فقد كان هناك بريق من الأمل بضئ لهم جوانب آلامهم

ولقد انطفأ هذا البريق ، فكنت تراهم الآن في أركان الشوارع وفي المقاهي ، أو لدى أصدقائهم شاردي الذهن جامدى التعبير ، تنطق نظرات عيونهم بما في صدورهم من سأم ، وهكذا غدت المدينة كلها تحت تأثيرهم كما لو كانت قاعة انتظار .

أما ذرو المهن ، فقد استمروا يمارسون مهنتهم بطريقة تشبه طريقة الطاعون نفسه ، أى بمزيد من الدقة ولكن دون أى بريق . لقد تواضع الناس جميعاً ، ولأول مرة لم يعد المفترقون يشعرون بغضاضة من التحدث عن الغائب ، وأن يستعملوا في ذلك لغة الناس جميعاً ، ويناقشوا ما يعانون من فراق على نحو ما يناقشون إحصائيات الطاعون . فهم إذا كانوا قد ظلوا يفترقون - بكل قواهم - بين آلامهم الخاصة والآلام العامة ، فقد قبلوا الآن أن يخلطوهما معاً ، وهكذا تراهم قد استغرقوا في الحاضر بعد أن فقدوا الذاكرة وفقدوا القدرة على التألم . والحقيقة أن كل شيء أصبح بالنسبة لهم يمثل الحاضر . بل لا بد من الاعتراف بأن الطاعون قد انتزع من الجميع المقدرة على الحب ، بل حتى المقدرة على الصداقة ؛ وذلك لأن الحب يتطلب قليلاً من المستقبل في حين أن لم يكن قد بقي لنا إلا اللحظات حاضرة .

وما لا يحتاج إلى بيان أن كل أمر من هذه الأمور لا يمكن أن يكون مطلقاً ؛ لأنه إذا كان من الحق أن المفترقين جميعاً قد بلغوا هذه الحالة ، فمن الحق أيضاً أن نضيف أنهم لم يصلوا إليها مجتمعين وفي وقت واحد . هذا إلى أنهم بعد أن استقروا في حالتهم الجديدة ، كان يحدث أن يبرق في وجدان بعضهم شيء من البوارق ، أو يعود بهم فكريهم إلى الماضي

بعض لحظات، أو يعترهم نوع من صفاء الذهن ، فيعودون إلى حساسية أكثر شباباً وأشد عذاباً . كان لابد من لحظات الشر وهذه لكي يسبحوا بخيالهم في مشاريع تنطوى ضمناً على فكرة انتهاء الطاعون ، وكان لابد لهم أن يشعروا بجأفة - وبموتة من السماء - بأنياب نوع من الغيرة غير ذى موضوع . كما أن بعضهم كان يتتابهم نوع مفاجيء من البعث يجعلهم يخرجون من ذهولهم خلال أيام معينة من الأسبوع ، يوم الأحد ومساء السبت بطبيعة الحال ، وذلك لأن هذه الأيام كانت مخصصة لأنواع من العادات حين كان الغائب موجوداً . وكان هناك آخرون يغشاهم نوع من الكآبة فتندبرهم بقرب عودة الذاكرة إليهم ، وإن لم يعمل الواقع على تحقيق هذه النذر دائماً . ساعة المساء هذه - التي يعتبرها المؤمنون ساعة امتحان الضمير - كانت قاسية بالنسبة للسجين أو المنفى اللذين لم يكن أمامهما ما يمتحنه سوى الفراغ . كانت هذه الساعة تمسك بهما لحظة في حالة تعليق يعودان بعدها إلى حالة توقف الذهن ، ويحبسان نفسيهما في الطاعون .

ولقد فهم الناس أن ذلك معناه التنازل عن كل ما يتصل بأشخاصهم أوثق اتصال . فبينما كانوا في أيام الوباء الأولى يقعون تحت تأثير مجموعة الأشياء الصغيرة التي كان لها اعتبارها بالنسبة لهم - وإن لم يكن لها وجود بالنسبة لغيرهم ، فكانوا بذلك يمرون بتجربة الحياة الشخصية ، لم يعودوا الآن يهتمون - على العكس من ذلك - إلا بما يهم الآخرين ، لم تعد تشغل رءوسهم سوى الأفكار العامة ، حتى أن حبهم ذاته قد اتخذ في أذهانهم شكلاً تجرّيداً مجتأً . ذلك أنهم كانوا قد وصلوا - في استسلامهم للطاعون -

إلى حد أصبحوا معه لا يأملون إلا في أن يذهبهم النوم، وأن يتوقفوا هم عن التفكير وكانوا يقولون : دلّثحل الأورام، وإينته الأمر، ولكنهم كانوا قد استسلموا فعلاً للنوم ، ولم يكن كل هذا الوقت بالنسبة لهم سوى فترة نوم طويل فقد كانت المدينة مأهولة بجمع من النائمين المستيقظين الذين لم يكونوا يفرون من حالتهم هذه إلا في تلك اللحظات النادرة التي كانت تنفجر فيها جراحيهم فجأة ، تلك الجراح التي كانت تبدو في الظاهر ملتئمة .
وحينئذ كانوا يهبون من نومهم مذعورين ، أو يتحمسون - وهم شاردوا الأذهان - حوافها الملتهبة فترتد إليهم في لمح البرق آلامهم وقد استعادت شبابها ، تعود ومعها صورة حبهم المضطربة . وفي الصباح يعودون إلى الوباء أى إلى الحياة الرتيبة .

ولكن قد يسألنا سائل قائلًا : ماذا كانت سببها هؤلاء المفترقين ؟
والواقع أن الإجابة على هذا السؤال بسيطة ، فلم تكن لهم سببها خاصة ، أو ، إذا شئنا ، كانت سببها كغيرهم من الناس، وهى سببها عامة كل العموم . كانوا يقاسمون أهل المدينة برودهم وانفعالهم الصبيانية . وقد فقدوا مظاهر حاسة النقد في نفس الوقت الذى اكتسبوا فيه مظاهر البرود .
فكنا مثلاً نرى أكثرهم ذكاء يتظاهرون لغيرهم بالبحث في الجرائد أو في النشرات الإذاعية عن أسباب توهمهم بالاعتقاد في اقتراب نهاية الطاعون ، أو يخلقون لأنفسهم أحلاماً لا تستند إلى أى واقع ، أو يحيطون أنفسهم بخاوف لا أساس لها بعد قراءة ما قد يكون أحد الصحفيين قد كتبه عن الوباء دون وعى وهو يتشاءم من الضجر . أما فيما عدا ذلك فكانوا يحتمسون البيرة، أو يمرضون مرضاهم، كانوا يستسلمون

تلكسكل ، أو ينهكون أنفسهم فى نشاط ما ، كانوا ىرقبون البطاقات أو ىديرون بعض الاسطوانات دون أن يكون لهم ما يمكن أن ىميز بعضهم عن البعض الآخر . وبتعبير آخر ، كانوا قد فقدوا القدرة على اختيار أى شىء ، فقد قضى الطاعون لديهم على موهبة الحكم على القيم . وكان ذلك يقبين جلياً من أنهم لم يعودا يهتمون بنوع اللباس الذى يلبسونه أو الاطعمة التى يشترونها . كانوا يقبلون كل شىء كتلة واحدة .

وأخيراً يمكننا أن نقول : إن المفترقين لم يعد لهم هذا الامتياز الغريب الذى كان يحميمهم فى البداية . فقد فقدوا أناية الحب ، وما كانت تجلبه لهم من فائدة ، أو على الأقل لقد أصبح الموقف الآن واضحاً ، وأضحى الوباء من شأن الناس جميعاً وسط الطلقات التى تهز أبواب المدينة وتوقع البصمات التى تقضى بحياتنا أو موتنا ، وسط الحرائق والبطانات ، وسط رعب الشكليات التى لا تنتهى ، كننا وسط كل هذا نسير نحو مئة بشعة ولكنها لاتعدم التسجيل ، بين الأدخنة الفظيعة ورنين عربات الإسعاف المهادىء ، كننا جميعاً نطعم نفس الخبز ، خبز المنفى ، ونحن ننتظر دون أن ندرى - نفس التلاقى ونفس الطمأنينة المثيرين . كان حبنا فى أغلب الظن ، لا يزال موجوداً ، ولكنه بكل بساطة كان قد أصبح غير صالح للاستعمال ، كان يتقل كاهلنا ، خامداً فى باطننا ، عقياً عقم الجريمة أو حكم الإدانة . كان قد تحول إلى صبر لامستقبل له إلى انتظار عتيد . ومن هذه الناحية كانت حالة بعض مواطنينا تشبه تلك الصفوف الطويلة التى كننا نراها فى أركان المدينة الأربعة أمام حوانيت المواد الغذائية . لأنه نفس الاستسلام ، ونفس الاحتمال الذى لانهاية له ولا أمل من ورائه .

ولكن يجب مضاعفة هذا الشعور ألف مرة في حالة الفراق ؛ لأن الأمر هنا يتعلق بنوع آخر من الجوع في وسعه أن يلتهم كل شيء .

وأياً ما كان ، فإننا إذا أردنا أن نكون فكرة صحيحة عن حالة المفترقين الذهنية في مدينتنا ، وجب علينا أن نعود بذاكرتنا إلى تلك الأسميات الذهبية المتكررة المحملة بالغبار ، والتي كانت تنقش على المدينة العارية من الأشجار بينما يتدفق الرجال والنساء في جميع شوارعها . فمن الغريب أن ما كان يصعد إلى الشرفات التي لا تزال مشمسة ، وقد خلت المدينة من كل ما يكون لغة المدينة سواء أكان ضوضاء لعربات أو آلات ، لم يكن ذلك إلا مزيجاً من وقع الخطأ والأصوات المكتومة . لم يكن هناك إلا زحف آلاف من النعال الموضوعة يضبط وقعها صفير الوباء تحت هذه السماء المثقلة ، لم يكن هناك إلا ديبب مذعور لا ينتهي يملأ المدينة شيئاً فشيئاً ، ويعمل مساء بعد مساء على أن يطبع بصوته المثابر الكثيب ذلك التصميم الأعشى الذي كان قد حل في قلوبنا محل الحب .

استمر الطاعون خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر يمسك بالمدينة
منطوية على نفسها . ولما كان الأمر كله ينحصر فى الدببة بالأقدام
دون تقدم ، فقد ظل مئات الألوف من الأشخاص يدبذبون بأقدامهم
خلال أسابيع لا نهاية لها . وتوالى الضباب والقيظ والمطر على سماء
المدينة . وكانت طوائف الطير الصامتة الآتية من الجنوب تمر بالسماء
على علو شاهق ، فتتحرف عن جو المدينة كما لو كان يبعدها عنه جهاز بانلو ،
أعنى تلك القطعة الخشبية القريبة التى تدور فوق المنازل وهى تبعث
بصغيرها ، وفى بداية أكتوبر أخذت الأمطار الهائلة تغسل الشوارع .
أما فيما عدا ذلك فلم يحدث خلال كل هذا الوقت ما هو أكثر أهمية من
دببة الأقدام الهائلة ..

وحينئذ اكتشف ريو وأصدقاؤه مقدار ما أدركهم من نصب .
والحقيقة أن رجال المنظمات الصحية لم يستطيعوا هضم كل هذا التعب .
وكان الدكتور ريو كلما نظر إلى أصدقائه وإلى نفسه رأى نوعاً غريباً من
عدم المبالاة يزحف على النفوس ، فمؤلاء الرجال مثلاً الذين كانوا حتى
الآن يظهرون اهتماماً كبيراً بكل ما يتعلق بالطاعون من أخبار لم يعودوا
الآن يهتمون بتلك الأخبار إطلاقاً ، فرامبير الذى كان قد كلف بصفة
مؤقتة بإدارة بيت من بيوت الحجر الصحى أقيم فى فندقه ، كان على علم

تام بعدد الذين يتولى ملاحظتهم ، وكان يعرف أدق التفاصيل بطريقة النقل السريع التي ابتدعها من أجل الذين تظهر عليهم فجأة أية علامة من علامات المرض ، كما كانت الإحصائيات الخاصة بتأثير المصل على مراكز الحجر الصحي محفورة في ذاكرته ، ولسكنه مع كل ذلك لم يكن يستطيع أن يذكر الرقم الأسبوعي لضحايا الطاعون كما كان يجهل ما إذا كان الوباء يتقدم أم يتراجع . وكان يأمل في قرارة نفسه رغم كل شيء ، في أن تيسير له فرصة قريبة للهرب .

أما عن الآخرين فقد شغلهم العمل ليل نهار ، فلم يعودوا يقرءون الصحف . ولا يستمعون إلى المذيع . فكانوا إذا ما أعلنت إلامهم لإحدى النتائج تظاهروا بالاهتمام بها ، ولكنهم في الواقع كانوا يستقبلونها بذلك النوع من عدم الاكتراث الشارد الذي نتصوره لدى المقاتلين في الحروب الكبرى عندما ينهكهم العمل فلا يعودون يبالون إلا بعدم التقصير في أداء واجبهم اليومي دون أمل في الموقعة الحاسمة ، أو في يوم الهدنة .

وقد كان من المنتظر أن يعجز جران — الذي استمر يقوم بالعمليات الإحصائية المترتبة على الطاعون — عن استنباط النتائج العامة لتلك العمليات ، ولسكنه كان على العكس من تارو ورامبير وريو الذين كانوا يبدوون في الظاهر أكثر منه احتمالا للتعب ، إذ أن صحته لم تسكن في يوم من الأيام جيدة . ومع ذلك فقد ظل يجمع بين قيامه بعمله ككاتب صغير في البلدية وكسكرتير لريو إلى جانب أعماله الليلية . وهكذا كنا

فستطيع أن نراه دائماً في حالة إنمأك ، ولكن تشد من عضده فكرتان
أو ثلاث أفكار ثابتة ، كمفكرة الحصول على إجازة كاملة بعد الطاهون
لمدة أسبوع على الأقل يقضيها في العمل بشكل إيجابي فيما كان بسبيله من
« إرفعوا قبعاتكم » . وكان في هذه الأثناء يتعرض لنوبات مفاجئة من
الحنان ، فكان يطيب له أن يتكلم مع ريو عن چان ، ويتسامل أين يمكن
ياترى أن تكون في تلك اللحظة بالذات ؟ ربما إذا كانت تفكر فيه عندما
تقرأ الصحف . أما ريو ، فقد دهش من نفسه حين رآه يوماً يتحدث مع
جران عن زوجته هر بلمجة عادية ، هذا الذي لم يكن قد فعله قط قبل
ذلك . ولما لم يكن يشن في البرقيات المطمئنة التي كانت تصله من زوجته
فقد قرر أن يبرق إلى كبير الأطباء في المصلحة التي تعالج فيها . وكان الرد
الذي تلقاه يفيد أن حالة المريضة قد ازدادت سوءاً ، وأنهم سوف يفعلون
كُل ما في إمكانهم لإيقاف الداء .

وقد احتفظ ريو لنفسه بهذا الخبر ، ولكنه لم يدر إلا وهو يسر به
يوماً إلى جران دون سبب واضح ، اللهم إلا أن يكون التعب هو الذي
دفعه إلى ذلك . وذات يوم كان موظف البلدية يكلم ريو عن چان ، وما أن
انتهى من كلامه حتى سأله عن زوجته ، وأجابه ريو عن سؤاله ، فرد
جران معقّباً بقوله : « أنت تعلم أن هذا المرض يعالج الآن بنجاح تام » .
وأيد ريو ذلك ، ولكنه قال : إن الفراق قد بدأ يطول ، ولأنه كان في مقدوره
أن يساعد زوجته ويساعدها في التغلب على المرض ، أما الآن فلا بد
وأنها تشعر بقسوة الوحدة ، ثم صمت ولم يعد يرد على أسئلة جران إلا
بقصد التهريب .

وكذلك كان حاله الآخرين ، فكان نارو أشد مقاومة من غيره ،
ولكن مذكراته تدل على أنه إذا كان استطلاعاً لم يفقد شيئاً من عمقه ،
فإنه قد فقد الكثير من تنوعه . والواقع أنه لم يكن فيما يبدو ، — طيلة تلك
المدة — يهتم بغير كوتار . وكان قد استقر به المقام عند ريو ، بعد أن تحول
الفندق الذى كان يقيم فيه إلى بيت من بيوت الحجر الصحى ، فكان خلال
محادثات المساء لا يكاد يستمع إلى جران أو إلى ريو وهما يتحدثان عن نتائج
الوباء ، بل يسارع بتحويل دفة الحديث إلى حياة وهران اليومية بتفاصيلها
الدقيقة التى كانت تشغل فكره بصفة عامة .

أما كاستل ، فكان لدى ريو فى اليوم الذى أعلن فيه للدكتور أن
المصل قد أعد حيث استقر الرأى على البدء بتجربته فى ابن السيد أوتون
الذى نقل حديثاً إلى المستشفى وهو فى حالة كانت تبدو لريو داعية لليأس .
وبينما كان الطبيب يطلع صديقه القديم على آخر الإحصائيات ، لاحظ
أنه قد استسلم لنوم عميق فى تجويف مقعده . ونظر ريو إلى هذا الوجه
الذى كان يضفى عليه تعبيره الوديع الساخر شاباً دائماً ، فرأى أنه ،
بعد هذا الاسترخاء المفاجئ ، قد خيمت بين شفطيه شبكة من
اللعاب فوصلت بينهما ، مما جعله يبدو هرماً بالياً ، وحينئذ شعر ريو
بانقباض يخنقه .

كانت لحظات الضعف تلك هى التى تجعل ريو يشعر بمدى ما يعانيه
من تعب ، كما كان يفسح الطريق أمام حساسيته للظهور . كانت
تلك الحساسية تظل طيلة الوقت جامدة جافة محاطة بما يشبه العقدة . ولكنها
كانت تنفجر على فترات طويلة فتسلله إلى انفعالات لا يمكن السيطرة

عليها . وكان دفاعه الوحيد ضد هذه الانفعالات ينحصر في اللجوء إلى هذا الجود، وفي أن يزيد في شد العقدة التي تكونت عنده . وكان يعرف جيداً أن هذه طريقة حسنة تمكنه من الاستمرار والصمود . أما فيما عدا ذلك ، فإنه لم يكن يعمل نفسه بالأوهام فيما يتعلق بالطاعون ، بل لقد كان ما يعانيه من تعب يبدد ما قد يخامره من أوهام . فكان في تلك الفترة التي لا يعرف لها نهاية يعلم أن دوره لم يعد ينحصر في شفاء الناس ، بل في تشخيص الداء . كانت مهمته أن يكتشف الداء ويشاهد ويصف ويسجل ثم يصدر حكمه على المريض . كانت هناك زوجات يمكن به من معصمه ويصحن : « امنحه الحياة يادكتور » . ولكنه لم يكن هناك لمنح الحياة ، بل ليأمر بالعزل . أما الكراهية التي كان يراها حينئذ على الوجوه فاجدواها ؟ لقد قيل له يوماً : « إنك بلا قلب » ؟ بلى ، لقد كان له قلب ، وهو الذي كان يساعده على أن يستمر في العمل عشرين ساعة يومياً يرى فيها الناس يموتون ، وقد خلقوا للحياة . وهو الذي كان يساعده على أن يبدأ كل يوم من جديد ، وقد أصبح قلبه منذ الآن لا يتسع لغير هذا . فكيف يمكن إذن أن يتسع لمنح الناس الحياة ؟

كلا ، لم يكن العون هو الشيء الذي يوزعه ريو طيلة يومه ، وإنما كان يوزع التلميحات . نعم ، وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نعتبر أن تلك هي مهنة الإنسان . ولكن من ، إذن ، من تلك الجحافل المكبوتة المبعثرة كان لديه من الفراغ ما يعينه على ممارسة مهنة إنسانية ؟ بل لقد كان من حسن الحظ أن بلى الناس بالتعب ، فلو أن حياة ريو كانت أشد تضاراً

من تلك ، لاستطاعت رائحة الموت المنتشرة في كل مكان أن تجعله عاطفياً . ولكن
إذا كان المرء لا ينام في اليوم سوى أربع ساعات ، فإنه لا يكون أبدا عاطفيا ،
إنما يرى الأشياء كما هي ، يراها وفقاً لما تقتضى به العدالة ، العدالة البشعة
الواهمة . وكان الآخرون ، أولئك الذين حكم عليهم بالموت ، يشعرون
هم أيضاً بذلك جيداً . فقبل الطاعون كانوا يستقبلونه باعتباره منقذاً .
وكان بإمكانه يومئذ أن يرجع كل شيء إلى نصابه باستعمال المحقن وثلاث
حببات من الدواء . وكان من يزورهم يشدون على ذراعه وهم يشيخونه
في الدهاليز الطويلة . لقد كان ذلك أمراً يدعو إلى الفخر حقاً ولكنه
كان أمراً خطراً . أما الآن فقد كان على العكس من ذلك ، كان لا يظهر
إلا مع رجال الشرطة ، وكان لابد من بعض دقائق بقواعد البنادق على
الأبواب لكي توافق الأسرة على أن تفتح الباب . كان المرضى يودون
سوقه وسوق الإنسانية بأسرها معهم إلى الموت . آه ! نعم ، من الحق أن
الناس لا يمكنهم الاستغناء عن الناس ، ومن الحق أن ريو كان لا يملك
لهؤلاء التعساء حولاً ولا قوة ، وكان يستحق رجفه الشفقة التي كان يحس
بها ، ويتركها تكبر في نفسه عندما يغادرهم .

هذه ، على الأقل ، هي الأفكار التي ظلت ، خلال تلك الأسابيع
— التي لا نهاية لها — تراود الدكتور ريو مع غيرها من أفكار خاصة بحالة
الفرقة التي كان يعانينا . وكانت هي أيضاً نفس الأفكار التي تقرأ على
وجوه أصدقائه ، ولكن أشد نتائج الإنهاك الذي أصيب به أولئك
الذين استمروا في مكافحة الوباء خطراً ، لم تكن تنحصر في هذا النوع من
عدم المبالاة تجاه الأحداث الخارجية وتجاه عواطف الآخرين ، ولكن
فيما اندفعوا فيه من إهمال لكل شيء ، فقد مالوا في ذلك الوقت إلى تجنب

كل ما لاضرورة له من حركات كانت تبدو لهم فوق طاقتهم . وهكذا وصل هؤلاء الرجال إلى التماذى شيئاً فشيئاً في إهمال القواعد الصحية التي تولوا هم سنّها ، وإلى نسيان وسائل التطهير الكثيرة التي كانت من الضروري تطبيقها على أنفسهم ، فكانوا يهرعون أحياناً إلى مرضى مصابين بالطاعون الرئوى دون أن يحصنوا أنفسهم ضد العدوى ، وذلك بحجة أنهم قد أخطروا في اللحظة الأخيرة بضرورة التوجه إلى المنازل الملوثة ، وأنه قد بدا لهم أن في الذهاب إلى أحد المراكز للحصول على الحصانة الضرورية مشقة كبيرة . وكان هذا هو الخطر الحقيقي ، لأن مكافحة الطاعون هي نفسها التي جعلتهم عرضة للإصابة به . لقد اعتمدوا على المصادفة ، وليس من شأن المصادفة أن تحالف أحداً .

ومع ذلك فقد كان هناك رجل في المدينة لم يبد عليه الإنهاك ولا اليأس ، بل ظل صورة حية للرضا ، ذلك هو كوتار ؛ فقد ظل منعزلاً مع المحافظة على علاقاته بالآخرين ، ولكنه واطب على زيارة تارو كلما سمح لهذا الأخير عمله بذلك ؛ وهذا من جهة لأن تارو كان يعرف عن حالته الكثير ، ومن جهة أخرى لأنه كان يعرف كيف يستقبل ذا الدخل الصغير هذا بوجد قلبى لا يتغير . كانت تلك أعجوبة لا تنتهى ، ولكن تارو كان قد ظل دائماً — رغم ما كان يؤديه من أعمال جسام — يستقبله ببشاشة واهتمام ، فقد كان — حتى في الليالى التي كان التعب فيها يحطمه تخطيطاً — يستعيد قوته في اليوم التالى ، وكان كوتار يقول لرامبير : إنه يستطيع دائماً أن يتكلم مع هذا الشخص ؛ لأنه إنسان ، وفي وسعه دائماً أن يفهمك .

ولهذا كانت مذكرات تارو في هذه الآونة تتركز شيئا فشيئا حول كوتار ، وقد حاول تارو أن يعطينا صورة عن تفاعل كوتار بالأحداث وتفاعلها به ، كما صورها له هذا الأخير ، أو كما فسرناها هو نفسه ، وقد شغلت هذه الصورة عدة صفحات من المذكرات تحت عنوان « علاقات كوتار بالطاهون » . ومن رأى الراوى أنه من المفيد أن يذكر هنا ملخصا لها . رأى تارو في صاحب الدخل هذا على وجه العموم يتلخص في هذا الحكم : « إنه شخصية تتقدم في طريق العظمة » . ومن الظاهر أنه كان يعظم من حيث الرضا ، فلم يكن ساخطا على الطريقة التي تدور بها الأحداث ، وكان يعبر أحيانا عن أعماق فكره أمام تارو بملاحظات من هذا النوع : « من المؤكد أن الأمور لا تتحسن ، ولكن على الأقل كل الناس في السكارة سواء » .

ويضيف تارو إلى ذلك قوله : « إنه قطعاً مهدد بالخطر كالآخرين ولكن الخطر يحيط به وبالآخرين في وقت واحد ، ثم لا شك في أنه لا يفكر جدياً في أنه قد يصاب بالطاعون ؛ إذ يبدو أنه يعيش على فكرة لا اعتقد أنها تنسم بالغباء ، وهي أن الرجل المهدد بمرض خطير ، أو بالأم نفسه كبير تنأى به المقادير في نفس الوقت عن الأمراض والآلام الأخرى جميعاً ، وقد قال لي ذات مرة : « ألم تلاحظ أنه لا يحدث للدم أن يجمع عدة أمراض في آن واحد ؟ فإذا كان هناك شخص مصاب بمرض خطير أو غير قابل للشفاء ، كسرطان كبير مثلاً ، أو سل هائل ، فإنه لا يصاب أبداً بالطاعون أو بالتييفوس ، هذا محال ، بل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك ؛ لأنك لم تصادف أبداً شخصاً مصاباً

بالسرطان يموت في حادث سيارة ، . وسواء أكانت هذه الفكرة خطأ أم صوابا ، فإنها كانت السبب في اعتدال مزاج كوتار . أما الشيء الوحيد الذي لم يكن يريده ، فهو ألا يظل منفصلا عن الآخرين . كان يفضل أن يدخل في نطاق الحصار مع الآخرين على أن يظل سجيناً بمفرده ، وفي حالة وجود الطاعون لم يكن هناك مجال للتحقيقات السرية ، والسجلات ، والبطاقات والمعلومات الغامضة ، والاعتقال العاجل . ففي واقع الأمر لم تكن هناك شرطة ، ولا جرائم قديمة أو حديثة ، ولا مذنبون . لم يكن هناك إلا محكوم عليهم ينتظرون فضلا خاصاً من السماء ، وكان رجال الشرطة أنفسهم من بين هؤلاء ، وهكذا ظل كوتار — حسب تحليل تارو — يتأمل أعراض القلق والهلوع على وجوه مواطنينا بذلك النوع من الرضا المتساح الواعي الذي يمكن أن يعبر عن نفسه بهذه الكلمة :

« مهما قلتم ، فإنني قد أصببت به من قبلكم » .

« وعيناً حاولت أن أفهمه أن الطريقة الوحيدة لعدم الابتعاد عن الآخرين تنحصر في أن يكون المرء حي الضمير ، واسكنه كان ينظر إلى في خبث ، ويقول : « إذا صح ما تقول فإنه لن يتأتى لأحد مطلقاً أن يكون مع أحد » . ثم يردف قائلاً : « يمكنك أن تأخذ هذا الذي سأقوله لك على أنه قضية مسلبة ، فإن الوسيلة الوحيدة لجعل الناس بعضهم مع بعض هي أن ترسل إليهم الطاعون ، ما عليك إلا أن تنظر فيما حوذك » . والحقيقة أنني كنت أفهم ما يريد أن يقول ، وأرى كيف أن حياتنا هذه

الأيام كانت تبدو له مريحة فكيف كان يتأق له إذن ألا ينساق إلى الاعتراف بما كان يخامره من خواطر ، وبالمحاولة التي يبذلها كل واحد منا لكي يكون الناس جميعاً من حوله . وبروح المجاملة وحب أداء الخدمات اللذين يبدوان منا في بعض الأحيان عندما نرشد عابر سبيل ضل طريقه ، وبالاستياء الذي نبديه له أحياناً أخرى ، وباندفاع الناس إلى المطاعم الفاخرة ، وشعورهم بالارتياح لوجودهم فيها ، وميلهم إلى أن يظلوا فيها حتى وقت متأخر ؛ وتدفع الناس على دور السينما ، واصطفافهم أمامها بالساعات بحيث تغص بهم قاعات العرض وقاعات الرقص جميعاً ، ذلك التدفق ينتشر كموجات المد نحو الأماكن العامة ، وكيف لا يعترف بذلك التراجع أمام كل احتكاك ، بالرغم من اشتهاج الحرارة البشرية الذي كان يدفع الناس بعضهم نحو بعض ، حتى تتلاقى الأذرع بالأذرع والجنس بالجنس ؟ لا جدال في أن كوتار قد عرف كل هذامن قبلهم ، فيما عدا النساء لأنه — وذلك بالنسبة له . . وأحسب أنه لما شعر بأنه يوشك على الاندفاع نحو النساء الساقطات — أبى على نفسه ذلك ؛ لكيلا يبدو عليه سوء المسلك مما قد يسىء إليه في المستقبل .

د وباختصار ، كان الطاعون ملائماً له ؛ فبعد أن كان شخصاً يعيش وحده في معزل عن الناس وغم إرادته جعل منه الطاعون شريكاً له في الجريمة ، وشريك مرتاح لهذه الشركة ؛ لأنه شريك في كل ما يقع أمام بصره ، في الحرافات ، والخوف غير المشروع ، وفي سرعة تأثير تلك النفوس المرناعة ، شريك في تلك النزوة التي يشعرون بها ، نزوة الإقلاق بقدر الإمكان من الكلام عن الطاعون ، والانسحاق بالرغم من ذلك

في عدم الكف عن الكلام عنه ، شريك في ارتياحهم وشحوبهم كلها أصابتهم أبسط حالات الصداع مذ عرفوا أن المرض يبدأ بالآلام في الرأس ؛ وشريك كذلك في حساسيتهم المرهفة السريعة التأثر ، غير الثابتة ، التي تؤول أيسر أنواع النسيان على أنه إهانة ، وتثور عندما يفقد زر من أزرار سروال .

وكثيراً ما كان يحدث أن يخرج تارو برفقة كوتار في المساء . وهو يقص في مذكراته كيف كانا ينغمران وسط الجوع الزاخرة التي تتجمع في الغروب أو في الليل وقد التصق الكتف بالكتف ، كانا ينغمران فيها ككتلة واحدة بيضاء وسوداء يضيئ عليها أحد المصابيح البعيدة لمحة نادرة من الضوء ، كانا يرافقان القطيع البشري نحو المتع الحارة التي تحميه من برودة الطاعون . إن هناك الآن شعباً بأسره يتجه إل ما كان يبحث عنه كوتار منذ أشهر قليلة في الأماكن العامة ، في الزحف والحياة العريضة ، ذلك الشيء الذي كان يحلم به دون أن يستطيع تحقيقه ؛ ألا وهو البهجة التي لا شيء يكبح جماحها . وفي الوقت الذي كانت فيه أسعار الحاجيات جميعها في ارتفاع لا يمكن تجنبه كان الناس يبعثرون كما لم يفعلوا من قبل قط . وفي الوقت الذي كانت فيه الضروريات تنقص أغلب الناس كان أولئك الناس يبددون الكاليات كما لم يفعلوا في أي وقت مضى . وأخذ الناس يشاهدون كل تلك النتائج التي يتمخض عنها الفراغ ، وإن لم يكن هذا الفراغ في حقيقة أمره إلا نوعاً من البطالة . وكان يحدث لتارو دكوتار أن يتتبعاً للحظات طويلة زوجين من أولئك الأزواج الذين كانوا يحاولون جادين فيما مضى إخفاء الصلة التي تربطهم -

ولكنهما أصبحا الآن يسيران خلال المدينة عامدين وقد التصق كل منهما بالآخر دون أن يشعر بالجموع التي تحيط بهما أو تراهما ، لأنهما قد غرقا من ذلك الشرود الملح الذي يميز ذوى العواطف الملتهبة . وكان كوتار يتأثر بذلك ، ويقول :

« يا للسعداء ! » ، أكان يتكلم بصوت عال وقد انشرح صدره وسط الحى الجماعية . والعطايا السابعة التي تبعثر حوله للخدم ، والمؤامرات التي تدبر أمام عينيه .

ومع ذلك ، فإن تارو كان لا يرى الكثير من الشر في مسلك كوتار . هذا ؛ ذلك أن قوله : « لقد مررت بهذا من قبلهم » . يدل على التعاسة أكثر مما يدل على الانتصار ، ويقول تارو : « أعتقد أنه قد بدأ يحب أولئك الناس المسجونين بين السماء وجدران المدينة ، فقد كان على استعداد لأن يشرح لهم لو استطاع إلى ذلك سبيلا — أن الطاعون ليس شيئاً مروعا كما يتصورون ، وكثيراً ما كان يؤكدلى قوله : « إنك تسمعونهم يقولون : بعد الطاعون سأفعل كذا أو كذا ، وهكذا تراهم يسمعون حياتهم بدلا من أن يعيشوا فى هدوء .

لأنهم لا يشعرون بما هم فيه من ميزات ، فهل أستطيع أنا مثلا أن أقول « بعد القبض على سأفعل كذا أو كذا » ؟ إن الاعتقال بداية وليس نهاية . أما الطاعون . . أتريد رأى ؟ إنهم تعساء ؛ لأنهم لا يستسلمون ويسرون فى طريقهم ، ولأنى لوائى بما أقول ، ويضيف تارو : « والواقع أنه كان يعرف معنى ما يقول ، فهو يحكم على المتناقضات التي تميز سكان وهران حكما حقيقيا ، ففي الوقت الذى كان يشعر فيه هؤلاء السكان شعورا عميقا بالحاجة إلى الدفء الذى يقرب بعضهم من

بعض ، لم يكونوا يستطيعون — رغم ذلك — أن يستسلموا لهذا الدفء . بسبب عدم الثقة التي تبعد بعضهم عن بعض . فهم يعرفون جيداً أنه لا يمكن لأحد أن يثق في جاره ، لأنه قادر على أن يمنحه الطاعون دون أن يشعر ، ويستفيد من استسلامه إليه لكي يلوثه بالجراثيم . والحقيقة أنه إذا تأتى للدم أن يقضى وقته — مثل كوتار — في تفحص الناس ، ورأى أن كل من يحب صحبتهم من الناس ليسوا إلا غُربين فإنه يستطيع أن يفهم هذا الشعور . لذلك لا يسع المرء إلا أن يشعر بالعطف الكبير نحو أولئك الذين يعيشون في فكرة أن المرض قد يضع يده بين عشية وضحاها على كنفهم ، وأن ذلك قد يكون في نفس الوقت الذى يشعرون فيه بالبهجة لأنهم ما زالوا أوصياء ، وما دام ذلك ممكناً ، فإنه يشعر براحة وسط الإرهاب ، ولكنه لما كان قد شعر بكل هذا من قبل غيره ؛ فإنه اعتقد أنه لا يستطيع أن يشاركهم مشاركة كلية في القول بقسوة هذا الشك .

وباختصار ، فإن مثل هذا الشخص كان إذا وجد نفسه بيننا — نحن الذين لم نمت بعد بالطاعون — لم يكف يوماً عن الشعور بأن حريته وحياته تبدوان كما لو كانتا على وشك الانهيار ، ولكن لما كان هو نفسه قد عاش في الإرهاب ، فقد كان يرى من الطبيعي أن يعرف الآخرون بدورهم هذا الإرهاب الذى كان يبدو له في ذلك الوقت أخف حملاً من الإرهاب الذى يحمله بمفرده ، وهذا هو وجه الخطأ في مسلكه ، وما كان من شأنه أن يجعله أكثر صعوبة على الفهم من غيره ، ولكن هذا — بالذات — هو أيضاً ما يجعل من حقه علينا أن نحاول فهمه أكثر من غيره .

وأخيراً ، تنتهى صفحات تارو بقصة يرويها ، ويدلّل بها على الضمير
الغريب الذى نبت لدى كوتار ، ولدى المصابين بالطاعون فى وقت واحد
وهذه القصة تجعل الجو الصعب الذى ساد تلك الفترة يستقر تقريباً ،
ولذلك يوليها الراوى بعض عنايته .

فلقد اتفق أن ذهب كوتار وتارو إلى دار أوبرا البلدية ، حيث كانت
تعرض مسرحية «أورفيه» لجلوك ، وكان ذهاب تارو بدعوة من كوتار ،
وكانت الفرقة قد قدمت المدينة فى ربيع الطاعون لتقدم بعض مسرحياتها
على مسرحها ، ولما حاصرها المرض رأت — بعد الاتفاق مع دار
الأوبرا — أن تعيد عرضها مرة كل أسبوع .

وهكذا أصبح مسرح البلدية عندنا منذ أشهر طويلة ، وفى يوم
الجمعة من كل أسبوع ، يعج بأنات أورفيه الموسيقية ، وبنداءات أوريديس
العاجزة ، ومع ذلك فقد استمر هذا المشهد يلاقى نجاحاً من الجمهور ،
ويحقق يومياً أرباحاً طائلة ، وجلس كوتار وتارو فى أعلى الأماكن ثمناً ،
وكانا يشرفان من مكانيهما على قاعة غصت حتى آخرها بأكثر مواطنينا
أنافة ، وكان القادمون يبذلون قصارى جهدهم ؛ لكيلا يفوتهم شئ من
العرض ، وفى وسط الأضواء الأمامية الشديدة ، وفى الوقت الذى كان
الموسيقيون فيه يضبطون آلاتهم وراء الستار كانت أشباح الناس تذهب
من صف لآخر ، وتنحى فى خفة ، وكان الصخب الخفيف الذى ينشأ
عادة من مجاذبة ودية للجمعة يعيد إلى الناس الثقة التى كانت تنقصهم منذ
بضع ساعات خلال شوارع المدينة المظلمة ، وعلى هذا النحو كان لباس
السهرة يطرد الطاعون .

وخلال الفصل الأول انبرى د أورفيه ، يبك شكواه في سهولة
ويسر ، بينما وقفت بعض النساء يترجمن برقة عن تعاسته ويتغنن بالحب ،
وكان رد الفعل في القاعة حاراً وصامتا ، ولم يكد أحد يشعر أن أورفيه
قد استطاع أن يدخل في لحن الفصل الثاني رجفة لم تكن فيه ، وراح
يطلب — في كثير من المغالاة والافتعال — إلى سيد الجحيم أن يرق
لدموعه ، ولما بدرت منه بعض حركات رتيبة رأى أكثر الناس علما
أنها نوع من مؤثرات الإخراج التي تضيف إلى تفسير الغناء ما يزيد
وضوحا .

وكان لابد من انتظار الفصل الثالث ؛ ليستطيع الشنأى الكبير
— المكون من أورفيه وأوربديس (كان ذلك في الوقت الذي تهرب
فيه أوربديس من حبيلها) — أن يسرى عن الشهود بنوع من المفاجأة ،
ويبدر أن المغنى لم يكن ينتظر سوى تلك الحركة من الجمهور ، أو لعل
الأصح أن تكون المهمة المنبئة من مقاعد القاعة قد أكدت له ما سبق
أن شعر به ، فاختار تلك اللحظة بالذات ليتقدم نحو الحاجز الجانبي
بطريقة مضحكة ، وقد تباعدت ذراعه وسافاه كل منهما عن الأخرى ،
وهو في زيه العتيق حيث ذرع الأرض بجسمه وسط المقاعد التي يتكون
منها المنظر الخارجى ، تلك المقاعد التي لم تكن متناسبة مع زمنها في يوم
من الأيام ، وإن كان المشاهدون لم يفتنوا إلى ذلك إلا في هذه اللحظة
لأول مرة وبصورة مروعة ، وذلك لأنه في نفس الوقت توقفت الفرقة
الموسيقية عن العزف ، ونهض متفرجو القاعة ، وبدموا يحلون عنها ببطء
وسكون في أول الأمر ، كما لو كانوا يغادرون إحدى الكنائس بعد انتهاء

القداس ، أو المقبرة بعد الزيارة ، وكان النساء يجمعن أطراف ثيابهن
وهن يخرجن مطاطئات الرؤوس ، والرجال يقودون رفيقاتهم من زودهن
ليجنبوهن الاصطدام بالمقاعد . ولكن الحركة أخذت تزداد عنفا بالتدريج ،
وتحول الهمس إلى صيحات تعجب ، وتدفقت الجموع نحو أبواب الخروج
وهي تتزاحم حتى انتهى بها الأمر إلى التدافع بالأيدي والمناكب ،
وارتفع صياحاها . وكان تارو وكوتار قد نهضا ، ولكنهما ظلّا بمفردهما
في مكانهما وجها لوجه أمام صورة تمثل حياتهم في ذلك الحين : هاهو ذا
الطاعون على المسرح في صورة ممثل مهرج عديم التوازن ، وهامى قاعة
المسرح تغص بمظاهر ترف أصبح غير ذى جدوى من مراوح نسيبتها
صاحباتها ، وقطع « دنقلة » تغطي ظهور المقاعد الحمراء .

لقد عمل رامبير خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر بهمة ونشاط إلى جانب ريو ، ولم يطلب في مقابل ذلك أن يحصل على عطة في اليوم الذي عزم فيه على مقابلة جونزاليس والشابين أمام مدرسة البنين .

وفي ظهر هذا اليوم رأى جونزاليس والصحفي الشابين يقبلان ضاحكين ، وقال هذان الأخيران : إن الحظ لم يحالفهما في المرة السابقة ، وأن هذا كان أمراً متوقعاً ، وعلى كل حال لم يكن هذا الأسبوع من الأيام التي يتوليان فيها الحراسة ، فينبغي الانتظار إلى الأسبوع القادم ؛ لكي يبدءا من جديد . وقال رامبير : إن هذا هو التعبير الدقيق عن المسألة ، وحينئذ اقترح جونزاليس أن يتقابلوا جميعاً يوم الاثنين التالي ، ولكنه رأى أن يقيم رامبير هذه المرة عند مارسيل ولويس إذ قال : « سنضرب موعداً بيننا نحن الاثنين ، فإذا لم أحضر فما عليك إلا أن تذهب رأساً إلى بيتكما ، وسنشرح لك أين يقيان » . وحينئذ قال مارسيل — أو لويس — قال حينئذ : إنه من الأبسط أن يصحبا رأساً هذا الرفيق إلى بيتكما ، فإنه إذا لم يكن من المرفهين فإن ما عندهما من طعام يكفيهم هم الأربعة ، كما أن وجوده بينهما يساعده على أن يكون فكرة واضحة عن الموضوع ، وأجاب جونزاليس بأن هذه فكرة جميلة جداً ، وعلى إثر ذلك اتجهوا جميعاً هابطين نحو الميناء .

وكان مارسيل ولويس يقيان في طرف حى البحرية قرب الأبواب
التي تفتح على السكورنيش ، وكان يبتهما من تلك البيوت الأسبانية
الصغيرة ذات الجدران السمكية والنوافذ الخشبية المطاوعة ، وكانت غرفه
عارية ومعتمة ، وقد أسرع أم الشابين — وهى أسبانية عجوز ذات
وجه باسم مغطى بالتجاعيد — بتقديم شئ من الأرض لهم ، ودهش
جوزاليس ؛ لأن الأرض كان من المواد الغذائية التي لا توجد في المدينة
في ذلك الحين ، وقال مارسيل : «لنا ندير أمرنا لدى الأبواب» .
وأكل رامبير وشرب ، وبينما كان جوزاليس يثنى عليه قائلا : إنه
رفيق حقيقي ، لم يكن الصحفي يفكر إلا في ذلك الأسبوع الذى سيقضيه
في هذا المكان .

ولكنه انتظر في الواقع أسبوعين ، لأن نوبة الحرس كانت قد
صارت أسبوعين ، وذلك للتقليل من عدد فرق الحراسة . وقد دأب
رامبير خلال الخمسة عشر يوماً هذه على العمل المتواصل ، وهو شبه مغلق
العينين ، ابتداء من الفجر حتى حلول الليل ، ولم يكن يأوى إلى فراشه
إلا في وقت متأخر من الليل ، فينام نوما عميقا ، وكان لا يتقاه المفاجئ من
البطالة إلى العمل المتواصل أثره في أن يظل عديم الأحلام منهك القوة ،
كان يتكلم قليلا عن هربه القادم ، ولم يحدث في هذه المرة مما هو جدير
بالملاحظة إلا شئ واحد : فبعد مضي أسبوع أسر إلى الدكتور أنه كان
قد ثمل في الليلة الماضية للمرة الأولى ، وعندما خرج من الحانة بدا له
فجأة أن هناك تضخما عند ثني الفخذين ، وأن ذراعيه لم تكونا قويان
على الحركة . تحت الإبطين إلا بصعوبة ، وظن أنه الطاعون ، وكان

رد الفعل الوحيد الذى يمث عليه هذا الظن ، والذي اتفق هو والدكتور ريو على أنه لم يكن تصرفا صائبا ، هو أن عاد إلى أعلى المدينة ، حيث وقف فى مكان صغير لا يرى منه البحر ، وإن كانت تطل منه بقعة كبيرة من السماء ، ودعا زوجته - عبر جدران المدينة - بصرخة كبيرة مدوية . ولما عاد إلى مسكنه ، ولم يكتشف على جسمه أية علامة من علامات العدوى ، اعتراه الحزى من هذه الأزمة المفاجئة . وأجاب ريو بأنه يقدر جيدا أن يقوم الناس بمثل هذا التصرف ، وأضاف قائلا : « وعلى كل حال قد يحدث أن يجد الناس أنفسهم مندفعين نحو هذا التصرف ، ، ونجاة استأنتف ريو كلامه فى الوقت الذى هم فيه رامبير بالانصراف فقال : « لقد كلمنى السيد أوتون عنك هذا الصباح ، وسألتى عما إذا كنت أعرفك . ثم قال لى : « انصحك إذن ألا يغشى أوساط المهربين ؛ فإن ذلك يلفت أنظار الناس إلى تردده عليهم » .

— ما معنى هذا ؟

— معناه أنه ينبغي لك أن تسرع .

فأجاب رامبير قائلا — وهو يشد على يد الطبيب — :

— شكرا .

وما أن وصل إلى الباب حتى استدار فجأة ، فلاحظ ريو أنه يبتسم للمرة الأولى منذ بدء الطاعون ، ويقول :

— لماذا لا تمنعنى من الرحيل ، وأنت تملك الوسائل لذلك ؟

وهز ريو رأسه بحركة مألوفة منه ، وقال : إن هذا من شأن رامبير

ما دام قد اختار السعادة ، وإنه — أى ريو — ليس لديه من الحجج ما يجعله يقف في طريقة ؛ إذ أنه يشعر بأنه غير قادر على تمييز الخطأ من الصواب في هذا الموضوع ، فسأله رامبير :

— لماذا تطلب منى إذن أن أبادر بالهرب في هذه الظروف ؟

وابتسم ريو بدوره ، ثم قال :

— قد يكون ذلك لأننى ، أنا نفسى ، أتوق إلى تقديم بعض الخدمات

للسعادة .

وفي اليوم التالى لم يتكلم فى أى موضوع ، ولكنهما عملاً جنباً إلى جنب ، ولم يحن الأسبوع التالى حتى كان المقام قد استقر برامبير فى البيت الأسباني الصغير ، حيث أعد له سرير فى الغرفة المشتركة ، ولما كان الشابان لا يعودان إلى البيت لتناول الوجبات ، وكانا قد رجوا أن يقلل من الخروج بقدر الإمكان ، فقد كان يعيش فى البيت بمفرده — فى أغلب الأوقات — أويحدث مع الأم الأسبانية العجوز ، وكانت هذه سيدة جافة نشطة ، ترتدى الملابس السوداء ، ذات وجه أسمر اللون متجمد تحت شعرها الأبيض النظيف ، ولم تكن تتكلم قط ، ولكنها كانت إذا نظرت إلى رامبير ابتسمت له بكل ما فى عينيها من قوة .

وذلك مرة سألته عما إذا كان لا يخشى أن يحمل الطاعون إلى زوجته ، فأجابها بأن تصرفه فيه شيء من المخاطرة ، ولكنها مخاطرة بعيدة التحقق ، وأنه إذا بقي فى المدينة فقد يظللان مفترقين إلى الأبد .

وسألته العجوز وهى تبتسم :

— أمى لطيفة ؟

— لطيفة جداً .

— وجميلة ؟

— أهتقد ذلك .

فقلت : آه ! هذا هو السر .

وأخذ رامبير يفكر قائلاً لنفسه : لا شك أن هذا هو السر، ولكن
من المستحيل أن يكون هو كل السر .

وعادت العجوز — التى كان من عادتها أن تذهب إلى الكنيسة كل
أسبوع — تسأله من جديد :

— ألا تؤمن بالله ؟

واعترف لها رامبير بأنه غير مؤمن ، فقلت العجوز مرة أخرى :

— هذا هو السر ، يجب أن تلحق بها ، إنك محق فى ذلك ، وإلا فإذا

يبقى لك ؟

أما فى الأوقات الأخرى ، فقد كان رامبير يلف ويدور حول
الجدران العارية المتداعية ، وهو يتحسس المراوح المثبتة على الحائط
بالمسامير ، أو يعد كرات الصوف التى تزين أطراف غطاء المائدة ،
وفى المساء كان الشابان يعودان ، فلا يكادان يتكلمان كثيراً إلا لى
يقولاً له : إن الوقت المناسب لم يحن بعد ، وبعد العشاء كان مارسيل
يعزف على «الجيتر» ، ويشرب شيئاً من كحول الينسون . أما رامبير ،
فكان يظل مستغرقاً فى تفكيره .

وفي يوم الأربعاء جاد مارسيل إلى البيت وهو يقول : « إن موعدنا غداً مساءً في منتصف الليل ، فاستعد لذلك » .

وذلك أن أحد الحارسين اللذين كانا يتوليان الحراسة معهما قد أصيب بالطاعون . أما الآخر ، فقد وضع تحت الملاحظة ، وهكذا كان مارسيل ولويس سينظらん بمفردهما لمدة يومين أو ثلاثة ، فقررا أن يضعا باقي تفاصيل الخطة في أثناء الليل ؛ حتى لا يأتى اليوم التالى إلا ويكون كل شيء قد تم . فشكرهما رامبير ، وسأله العجوز : « هل أنت مسرور ؟ » . فأجاب بنعم ، ولكنه كان يفكر في شيء آخر .

وفي اليوم التالى كانت الريح ساكنة ، والجو حاراً رطباً خانقاً ، وكانت أنباء الطاعون سيئة ، ومع ذلك فقد ظلت الأسبانية العجوز محتفظة بصفتها ، وكانت تقول : « إن الخطيئة متفشية في العالم ، وهذه هي النتيجة الحتمية لذلك » .

وكان رامبير ، وكذلك مارسيل ولويس ، قد جلسوا عارى الصدور والظهور ، ومع ذلك ، فقد كان عرقهم يتصبب فيما بين الكتفين ، وعلى الصدر ، وفي الضوء المعتم في ذلك البيت ذى النوافذ الخشبية المغلقة كان ذلك العرق المتصبب يجعل نصفهم العلوى يبدو قائماً لامعاً ، وكان رامبير يلف ويدور في البيت دون أن يتسكلم ، وفجأة في الساعة الرابعة ارتدى ملابسه ، وأعلن أنه سيخرج ، فقال له مارسيل :

— خذ حذرك فإن موعدنا منتصف الليل ، وكل شيء قد أعد .

وذهب رامبير إلى بيت الدكتور يسأل عنه ، فقالت له أمه : إنه

يستطيع أن يعثر عليه في مستشفى أعلى المدينة ، وأمام مركز الحراسة كانت الجموع بعينها تلف وتدور حول نفسها ، وكان هناك جواويز مكور المقلتين ، يصيح فيهم : « هيا انصرفوا ، فكانوا يسرون ولكن في خط دائري . وصاح الجاويش ثانية — وقد بدت سترته ببللة بالعرق — : « ليس هناك ما يدعو لانتظاركم » . وكان هذا هو رأيهم أيضا ، ومع ذلك فقد ظلوا ينتظرون رغم الحبر القائل .

وأظهر رامبير جواز مروره للجواويز ، فداه على مكتب تارو ، وكان باب المكتب يطل على الفناء ، فتقابل في طريقه إليه مع الأب بانلو وهو خارج من المكتب .

في حجرة صغيرة قذرة مطلية باللون الأبيض تنبعث منها رائحة العقاقير والاعطية الرطبة كان تارو يجلس خلف مكتب من الخشب الأسود ، وقد شمر أكم قميصه ، وراح يحفف بمنديله العرق الذي يسيل على ذراعه ، وقال حين لمح رامبير :

— أما زلت هنا ؟

— نعم ، وأريد التحدث إلى ريو .

— إنه في قاعة الكهف ، ولكن من المستحسن أن تسوى الأمر بدونه .

— لماذا ؟

— لأنه مجهد ، وأنا أود أن أجنبه ما أستطيع تجنبه إياه

من جهد .

وأخذ رامبير يحدد النظر في تارو ، وكان هذا الأخير قد هزل ،
وغض التعب عينيه وملاحظه ، وتكورت كتفاه الممتلئتان حتى أصبحتا
كالكرتين الصغيرتين ، وفي هذه الأثناء سمعت دقات على الباب ، ثم دخل
أحد المرضى وقد غطى وجهه بقناع أبيض ، ووضع على مكتب تارو
لفافة تحتوي على أوراق البطاقات ، وقال بصوت يحجبه نسيج القناع :
« إنها ... » ، ثم انصرف ، ونظر تارو إلى الصحفي ، وأراه البطاقات
التي بسطها أمامه كالروحة ، ثم قال :

— 'هذه' بطاقات جميلة ، أليس كذلك ؟ ولعمري إنها ليست كذلك
في الحقيقة ، فهي خاصة بالموتى ، موتى الليل .

كان يقول ذلك وقد تجوفت جبهته ، ثم أعاد دوائر البطاقات ،
وهو يقول :

— إن الشيء الوحيد الذي ينقصنا هو المحاسبة .

ثم نهض وهو يتكلم على المائدة ، وسأل :

— هل سترحل قريباً ؟

— هذا المساء في منتصف الليل .

فأجاب تارو بأن هذا يسره ، وأوصاه بأن يعنى بنفسه .
فقال رامبير :

— أقول هذا مخلصاً ؟

ورفع تارو كتفيه ، وقال :

— في مثل سنى لا يمكن للمرء إلا أن يكون مخلصاً ، فإن الكذب
حملة ثقيل .

وقال الصحنى :

— أرجو معذرتك يا تارو ، فإنى أريد رؤية الدكتور .

— أعرف ذلك ، فالمناحية الإنسانية عنده أقوى منها عندى .

هيا بنا .

ونظر إليه تارو ، وابتسم له فجأة .

وانطلقا فى دهايز صغير قد طليت جدرانها باللون الأخضر الفاتح ، وانبعث فيه ضوء خافت . وقبل أن يبلغا باباً زجاجياً مزدوجاً تشاهد من خلفه حركة ظلال ملفقة للنظر أدخل تارو رامبير فى غرفة صغيرة جداً قد غطيت جدرانها جميعاً بدواليب الحوائط ، ففتح إحدها ، وأخرج من إحدى أجهزة التعقيم قناعين من نسيج قطنى رقيق ، فقدم أحدهما إلى رامبير ، ودعاه إلى أن يغطى به وجهه ، وسأله الصحنى عما إذا كان ذلك ذا جدوى ، فأجابه بالنفى ، ولكنه عقب بأن ذلك يوحى بالثقة إلى الآخرين .

ودفعا الباب الزجاجى ، فانفجر عن قاعة فسيحة ذات نوافذ قد أغلقت بإحكام رغم حرارة الجو ، وفى أعلى الجدران كان يسمع حفيف أجهزة التهوية التى كانت مراوحها المعلقة تدفع الهواء شديداً الحرارة فوق صفين من الأسرة الرمادية اللون ، ومن كل ناحية كانت تتسارع الأثاث المسكومة بالحادة ، فجميع مكنة شكوى واحدة ذات نغمة زئبية ، وكان هناك بعض الرجال فى ملابس بيضاء يتناولون ببطء تحت الأنوار الفجة المنصبة من فتحات عادية قد غطيت بالقضبان ، وشعر رامبير بالضيق من وطأة الحرارة الحارقة فى تلك القاعة ، ولم يتوقف على ريو إلا بصعوبة ، حينما

رآه مسجياً على هيكل يئن ؛ فقد كان منهما في فتح خراييج فوق الفخذين لأحد المرضى ، بينما وقف إثنان من المرضى بجانب السرير ، وأمسك كل منهما بإحدى يدي المريض لإبعادها عن جسمه ، وبعد برهة نهض الطبيب واقفاً ، وألقى بآلانه على الصحيفة التي كان يمسكها أمامه أحد مساعديه ، وبقي لحظة دون حركة ينظر إلى الرجل الذي أخذ المساعدون في تضميم جراحه .

وقال تارو — وهو يتقدم نحوه :

— هل من جديد ؟ فأجاب :

— إن بالنو قد وافق على أن يحل محل رامبير في يد الحجر الصحي ، وقد بذل حتى الآن مجهوداً كبيراً ، فتبقى الفقرة الثالثة الخاصة بالمراقبة حيث يتطلب الأمر إعادة تكوينها بدون رامبير ، وأوما ريو برأسه موافقاً .

وواصل تارو كلامه قائلاً :

— لقد انتهى كاستل من إتمام مستحضراته الأولى ، ويقترح القيام بتجربتها .

وصاح ريو :

— آه ! هذا حسن .

جـ وأخيراً ، ها هو ذا رامبير .

واستدار ريو ، وما أن لمح رامبير حتى تسكرت جفون عينيه من فوق القناع ، وقال :

— ماذا تفعل هنا ، كان ينبغي أن تكون الآن في مكان آخر .
وأجاب تارو بقوله : « إن الأمر سيتم هذا المساء في منتصف
الليل . »

فأضاف رامبير : « هذا هو المفروض . »
وكانوا كلما تكلم أحدهم ، أخذ القناع الرقيق ينتفخ . ويبتل في مكان
الفم . وكان ذلك يضيف على المحادثة جواً بعيداً عن جو الحقيقة ، كما
لو كان الحديث يدور بين تمانيل ، وقال رامبير :

— إنني أرغب في التحدث إليك .
— سوف نخرج سوياً ، لو كنت تريد ذلك حقاً . انتظرني في
مكتب تارو .

وبعد قليل كان رامبير وريو قد اتخذا مكانيهما على المقعد الخلفي
لمربة الدكتور بينما تولى تارو القيادة .
وقال هذا الأخير وهو يبدأ سيره :

— لقد فقد وقود السيارات ، وغداً سنطوف سيراً على أقدامنا .
وقال رامبير :

— إنني لن أرحل ، بل أريد البقاء معكم .
ولم تهتز خلجة واحدة من خلجات تارو ، واستمر في القيادة . وبدأ
ريو وكأنه لا يستطيع أن يتغلب على ما يشعر به من تعب ، فقال بصوت
مكتوم :
— وهي ؟

وأجاب رامبير أنه قد فكر في الأمر ملياً ، وأياً كانت هواجسه فإنه لو رحل لخلج من نفسه ، ولعاقه ذلك عن حب من تركها . ولكن ريو اعتدل في جالسته وقال بصوت حازم :
إن هذا عناء ، ولا ينبغي له أن يخجل لأنه فضل السعادة .
وأجاب رامبير :

— نعم ، ولكن قد يكون مخجلاً أن يكون المرء سعيداً بمفرده .
أما تارو الذى كان قد ظل صامتاً حتى تلك اللحظة ، ولم يدر رأسه ناحيتيهما ، فقد قال — ملاحظاً — : إنه لو أراد رامبير اقتسام شقاء الناس ، فإنه لن يحصل أبداً على وقت للسعادة ، وأن عليه أن يختار .
وقال رايير :

— ليست هذه هى المسألة . لقد كنت دائماً أفكر أننى غريب عن هذه المدينة ، وأننى لا شأن لى بكم ، ولكننى الآن — بعد أن رأيت ما رأيت — عرفت أننى من هنا ، سواء رضيت أم لم أرض . إن هذه المسألة تخصنا جميعاً .

ولم يجب أحد بشيء ، فشعر رامبير بشيء من نفاد الصبر ، وقال :
— وأياً ما كان ، فإنكنا نعرفان ذلك ، وإلا فماذا نعملان فى هذا المستشفى ؟ هل عقدتما أتباً الاختيار وعدلتما عن السعادة ؟

ولم يجب كل من ريو وتارو بشيء — للمرة الثانية — وبساد الصمت فترة طويلة ، حتى اقتربوا من بيت الدكتور ، ووجه رامبير سؤاله الثالث بمزيد من القوة ، وحينئذ لم يلتفت ناحيته إلا ريو الذى نهض وهو يبذل جهداً كبيراً ، ثم قال .

— أرجو معذرتك يا رامبير ، ولكنى لا أدرى . إبقى هنا
ما دمت تريد البقاء .

ودارت السيارة فجأة ، فتوقف ريو عن الكلام ، ثم استطرده
— وهو ينظر أمامه — :

— ليس هناك فى الدنيا ما يعرض البعد عما نحب ، ومع ذلك فأنا
أيضا أبتعد دون أن أدرى سبباً لذلك .

ثم ألقى بنفسه على الوسادة ، وقال والتعب يبدو عليه :
— هذه هى الحقيقة ، هذا كل ما فى الأمر ، فلانسجلها ونستخرج
منها نتائجها .

وسأل رامبير :

— أية نتائج ؟

وأجابه ريو :

— إن المرء لا يستطيع أن يعالج ويعرف فى وقت واحد ؛ فلنعالج
بأسرع وقت ممكن . هذا هو الأمر الملح الآن .

وعند منتصف الليل أعد نازر ورامبير خطة الخى الذى كلف
بمراقبته ، ولما نظر تارو إلى ساعة ، ووقع رأسه التفت عيناه بعينى
ورامبير ، وقال :

— هل أخبرتهم ؟

وأدار الصحن عينيهِ ، وقال بمحمد :

— لقد تركت لهم كذبة صغيرة قبل أن أحضر زيارتكما .

لم تتم تجربة مصل (كاستل) إلا في الأيام الأخيرة من أكتوبر ،
وقد كان ذلك المصل أمل ريو الأخير من الناحية المهنية ، وكان الدكتور
مقتنعاً بأنه لو وقع فشل جديد لاستسلمت المدينة لنزوات المرض ، سواء
امتد أثر الوباء لمدة أشهر طويلة أخرى أم توقف دون سبب .

وفي عشية اليوم الذي أتى فيه كاستل لزيارة ريو كان ابن السيد
أوتون قد أصيب بالمرض ، ولحقت كل الأسرة بالحجر الصحي، وهكذا
ألفت الأم نفسها وقد عزلت للمرة الثانية ؛ إذ أنها لم تكن قد غادرت
الحجرة إلا منذ قليل ، ولما كان القاضي يحترم تعليمات السلطات، فقد سارع
إلى دعوة الدكتور ريو بمجرد أن تعرف على علامات المرض بحجم ابنه ،
ولما حضر ريو كان الأب والأم واقفين عند نهاية الفراش ، أما الفتاة
الصغيرة ، فكانت قد أبعدت . كان الطفل في حالة الإنهاك الأولى ،
فترك الطبيب يفحصه دون أن تبدر منه أية شكوى ، ولما رفع الطبيب رأسه
التفت عيناه بعيني القاضي ، ومن خلفه وجه الأم الشاحب ، وقد وضعت
منديلا على فمها ، ورائحت حدقتها ، وأخذت تمتنع بحركات الطبيب .

وقال الأب بصوت فاتر :

— إنه هو ، أليس كذلك ؟

وأجاب ريو وهو ينظر إلى الطفل من جديد :

— نعم .

واتسمت عينا الأم ، ولكنها ظلت ملازمة للصمت ، وصمت القاضى كذلك برهة ، ثم قال بصوت منخفض :

— حسن يا دكتور ، ينبغي أن تدبج التعليمات .

وكان ريو يتجنب النظر إلى الأم التى ظلت ممسكة بمندبلها فوق فمها ، فقال بلهجة المتردد :

— إن ذلك يتم فى وقت أسرع لو استطعت أن أتحدث بالتليفون .
وقال السيد أوتون : إنه سيقوده إلى التليفون . ولكن الطبيب التفت نحو السيدة ، وقال :

— إنى آسف ، ينبغي أن أعدى بعض الأشياء ، وأنت تعرفين ما هى .

أرتج على السيدة أوتون ، وغضت بصرها ، ونظرت إلى الأرض ، ثم قالت — وهى تهز رأسها — :
— هذا ما سوف أعمله الآن .

وقبل أن يغادرهم ريو لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤا لهم عما إذا كانوا فى حاجة إلى شىء . وكانت المرأة تنظر إليه فى صمت ، أما القاضى ، فقد أشاح هذه المرة عنه بنظره ، وقال :

— كلا . ثم بلع ريقه وأضاف :

— ولكن انقذ طفلى .

— أما المحجر الصحى الذى لم يكن فى أول الأمر سوى لإجراءات شكلية بسيطة ، فقد أتم ريو ورامبير تنظيمه بطريقة غاية فى الدقة ،

وقد وجها اهتمامهما الخاص نحو وجوب عزل أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض ، حتى إذا كان أحد هؤلاء الأفراد قد أصيب بالعدوى دون أن يدري لم يصبح حظ الأسرة من المرض مضاعفاً ، وشرح ريو هذه الأسباب للقاضى فوجدهما وجيهة ، ومع ذلك فقد نظر إلى زوجته ، ونظرت زوجته إليه بطريقة جعلت الدكتور يشعر بىدى ما يشعران به من هلع لهذا الفراق ، وأمكن إيواء السيدة أوتون وإبنتها فى المحجر الصحى الذى يديره رامبير ، أما القاضى ، فلم يكن له مكان سوى معسكر العزل الذى كانت الإدارة فى سبيل إقامة على ملعب البلدية بواسطة خيام استعارتها من مصلحة الطرق ، وقد اعتذر له ريو عن ذلك ، ولكن السيد أوتون أجابه بأنه ليست هناك إلا قاعدة واحدة للجميع . وأنه من العدل أن يطيعها الناس .

أما الطفل فقد نقل إلى المستشفى المساعد فى قاعة قديمة من قاعات الدرس قد صفت بها عشرة أسرة . وبعد نحو عشرين ساعة حكم ريو على حالته بأنها ميتوس منها . فقد استسلم جسمه الصغير للجراثومة دون أية مقاومة ، وأخذت عقد صغيرة مؤلمة تتكون ، وتسد مفاصل أطرافه الناحلة . فقد كتبت له الهزيمة مقدماً . ولهذا خطرت لريو فكرة تجربة مهمل كاستل عليه . وفى مساء اليوم نفسه — بعد العشاء — تمت تجربة الحقن الطويل على الطفل دون أن يبدو أى رد فعل ، وفى فجر اليوم التالى حضر الجميع حول الغلام الصغير ؛ لكى يشاهدوا مفعول تلك التجربة الفاصلة .

وخرج الطفل من غيبوبته وأخذ يتسلوى فى تشنج تحت أغطيته .

وكان الدكتور كاستل وناورو يجلسان بجواره منذ الرابعة صباحاً وهما يتتبعان — خطوة بخطوة — تقدم المرض أو فترات توقفه . وعند رأس السرير وقف ناورو وقد أحى قامته بعض الشيء ، وعند قدم الفراش كان كاستل يجلس قرب ريو الذى ظل واقفاً ، وكاستل يقرأ كتاباً قديماً وقد بدت عليه كل مظاهر الهدوء . ومع تقدم النهار فى قاعة الدرس القديمة تلك توالى — شيئاً فشيئاً — حضور الآخرين . وكان أول القادمين بانلو الذى جلس أعلى الطرف الآخر من السرير فى مقابلة ناورو ، وأسند ظهره إلى الجدار . وكان وجهه يعبر عن الألم الدفين ، والجهد المضنى الذى يبذله من جسمه طوال الأيام الماضية والذى سطر التجمعايد على جبينه المنقبض .

وحضر جرزيف جران بدوره ، حيث كانت الساعة قد بلغت السابعة . وأخذ هذا الموظف يعتذر من أنه كان يلهث . لم يكن فى نيته أن يملك سوى لحظة ، فقد جاء يسأل عما إذا كانوا يعرفون — فى هذا الوقت — معلومات محددة عن الحالة . ودون أن يفوه ريو بكلمة أراه الطفل بوجهه المختلط الملاحح، وعينيه المفلتتين ، وأسنانة التى كان يضغط عليها بكل ما فيه من قوة ، وجسمه الراقد بلا حراك وهو يلف رأسه ويديره من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين على الوسادة العارية . ولما سطع نور النهار أخيراً ، وأصبح فى مقدورهم أن يروا السبورة المعلقة فى نهاية القاعة ، والتى ظلت فى مكانها ، وأن يتبينوا عليها آثار بعض العلامات الحسابية حضر رامبير . فأسند ظهره إلى ظهر السرير المجاور ، وأخرج علبة سجائره . ولكنه ما كاد يلتقى نظرة على الطفل حتى أعادها إلى جيبه .

وكان كاستل لا يزال جالساً ينظر إلى ريو ، فسأله من فوق نظارته :
— هل لديك أخبار عن الأب ؟

وقال ريو :

— كلا ، إنه في معسكر العزل .

وكان الدكتور يضم حاجز السرير الذى يثن فوقه الطفل بقوة ولا يفارق نظره المريض . وقد تصلب المريض فجأة ، وضم أسنانه بشدة من جديد وتقوس جسمه عند الوسط وراحت أطرافه تبتعد عن جسده بالتدريج : وكانت رائحة الصوف المختلط بالعرق تفوح من ذلك الجسد الصغير العارى تحت الغطاء العسكرى . ثم أخذ الطفل يسترخى تدريجياً وأعاد ذراعيه إلى وسط السرير ، وظل مغمض العينين مطابق الفم ، وبدأ أن تنفسه قد ازداد سرعة ، وتصادف أن التفت عينا ريو بعيني تارو ، فأشاح هذا الأخير بعينه .

لقد شاهدا من قبل أطفالا يموتون ، فإن الهول الذى بدأ منذ أشهر لم يكن يتعب نفسه فى الاختيار ، ولكن لم يحدث قط لهما أن تتبعاً آلام الضحايا بدقة بدقيقة كما يفعلان الآن منذ الصباح . ولا شك أن الآلام التى صبتها الأقدار على هؤلاء الأبرياء لم تكف يوماً عن الظهور فى أذهانهم بمظهرها الحقيقى ، أى على أنها فضيحة . ولكنهما — حتى الآن على الأقل — كانا يشعران بتلك الفضيحة بصورة تجريدية على نحو ما ، لأنهما لم يكونا قد رأيا أبداً عن قرب ولمدة طويلة احتضار أحد الأبرياء .

وفى تلك اللحظة أخذ الطفل يتلوى من جديد ، كما لو كانت أفعى

قد عضته في معدته ، وراح يئن أنيناً خافتاً .

وظل هكذا ثواني عديدة ، غائر الجسم فريسة للرعدة والاهتزازات
التشنجية كما لو كان هيكله الواهي ينحني تحت ضغط ريح الطاعون العانية
ويتحطم تحت نوبات الحمى المتكررة . وانتهت تلك الأزمة ، وبدأ
الطفل يسترخي قليلاً ، وبدأ أن موجة الحمى قد انسحبت وتركته يلهث على
شاطيء رطب مسمم قد تشابهت فيه الراحة والموت ، ولما عاودته موجة
الحمى من جديد للمرة الثالثة ، وبعثت في جسمه شيئاً من الاضطراب ، كور
الطفل جسمه ، وتراجع إلى نهاية الفراش وسط آلام اللهب الذي يحرقه .
وأخذ يهز رأسه في جنون وهو يقذف بغطائه بعيداً عنه . وتدفقت
الدموع الغريزة من بين جفونه الملتهبة ، وأخذت تسيل على وجهه الجامد .

وفي نهاية الأزمة كانت قد خارت كل قواه ، فضم ساقيه اللتين برز
العظم منهما وذراعيه اللتين ذاب ما عليهما من لحم خلال هذه الساعات
الثماني والأربعين . وبدأ وسط سريره المخرب كما لو كان مصلوباً غريب
الشكل .

وانحنى تارو ، ومسح بيده الثقيلة ذلك الوجه الصغير الذي بلله العرق
والدموع . وكان كما ستل قد أغلق كتابه منذ لحظة ، وأخذ ينظر إلى المريض .
وبدأ يتكلم ، ولكن صوته انحبس فجأة ، فراح يتكلف السعال لكي
يستعيد قدرته على النطق .

— لم تكن هناك أية هدنة في الصباح ياريو ، أليس كذلك ؟

وأجاب ريو بالنفي، ولكنه أضاف قائلا: إن الطفل قد قاوم مدة أطول من المعتاد. وكان يائلا يبدو كأنه يتكئ على الجدار، فقال بصوت مكتوم:

— إذا قدر له أن يموت، فإنه سيكون قد عانى من العذاب أكثر مما عانى غيره.

فاستدار ريو نحوه فجأة، وفتح فمه يريد الكلام، ولكنه توقف وبدأ كما لو كان يبذل مجهوداً واضحاً لكي يسيطر على نفسه، ثم أعاد بصره إلى الطفل.

وازداد النور في القاعة. وكان هناك على الأسرة الخسنة هياكل تتحرك وتئن، ولكن بخفوت يشبه أن يكون متفقاً عليه. أما الشخص الوحيد الذي كان يصيح في النهاية الأخرى للقاعة، فكان يرسل — على فترات منتظمة — صيحات صغيرة تعبر عن الدهشة أكثر مما تعبر عن الألم. وبدأ — حتى للبرضى أنفسهم — أن الخوف المروع الذي عرفه الناس في أول الأمر قد اختفى، بل لقد أخذوا يشعرون بنوع من الرضا في طريقة تقبلهم للبرض. وذلك فيما عدا الطفل الذي كان يتخبط بكل قواه. وكان ريو، الذي كان بين الفينة والفينة يحس بنبض الطفل حتى ولو لم تكن هناك ضرورة لذلك، بل وربما لم يكن الدافع لإليه إلا الخروج من حالة الجمود العاجز التي كان فيها، كان ريو يشعر وهو يغلق عينيه أن اضطراب الطفل يختلط بحركة دمه هو؛ فقد امتزج إذن بالطفل المعذب، وراح يحاول أن يسانده بكل قوته التي احتفظ بها كاملة حتى

الآن . ولكن دقات قلبيهما لم تكن تتحد لحظة حتى تعود الانفصال ، فيحس أن قد أفلت منه زمام الطفل وذهب مجهوده هباء ، وحينئذ كان يترك المعصم الضعيف الذى يمسك به ويعود إلى مكانه .

وكان الضوء يغير لونه من الوردى إلى الأصفر على طول الجدران المطلية بالجير ، فقد بدأ صباح قاتظ يتأجج بالحرارة . ولم يكن أحد يشعر بهران وهو يغادرهم قائلا : إنه سوف يعود . كان الجميع فى حالة انتظار . وبدا الطفل — الذى ظلت عيناه مغلقتين — كما لو كان قد هدأ بعض الشيء ، وراحت يدها اللتان أصبحتا تشبهان المخالب تعبثان بلطف فى جوانب السرير ، إلى أن صعدتا وأخذتا تمسكان الخطأ قرب الركبتين . وفجأة نثى الغلام ساقيه وقرب فخذه من بطنه ، وتوقف عن الحركة . وحينئذ فتح عينيه للمرة الأولى ، ونظر إلى ريو الذى كان واقفا أمامه . ثم فتح فمه فى تهويف وجهه الذى غدا بلون الطفل الرمادى ، وفى الحال خرجت منه صيحة واحدة مستمرة لا يكاد يقطع تنفسه من رتابتها ، فلات القاعة بنوع من الاحتجاج الرتيب — غير منسجم النبرات — الذى لا يكاد يشبه الاحتجاج البشرى حتى بدا كما لو كان صادرا من جميع بنى البشر . وعرض ريو على أسنانه ، وأشاح تارو بوجهه عن الغلام . واقترب رامبير من الفراش قرب كاستل الذى أغلق الكستاب بعد أن كان يحتفظ به مفتوحا فوق ركبتيه . ونظر بانلو إلى فم الطفل وقد تلوث بالمرض وامتلا بصيحة ، هى صيحة الناس جميعا من جميع الأعمار ، وترك نفسه ينزلق جانبا على ركبتيه . وكان من الطبيعى أن يتوقع الجميع أن يسمعه ينادى بصوت محتقق بعض الشيء . وإن كان واضح النبرات ،

ويقول — من خلف الشكوى العامة التي لا تنقطع — : « إلهي ! أنقذ هذا الطفل » .

ولكن الطفل استمر يصرخ ، وبدأ الاضطراب يسود المرضى من حوله . أما هذا الشخص الذي لم تنقطع صيحاته في الطرف الآخر للقاعة ، فقد تلاحقت نغمة شكواه ، وازدادت سرعة حتى تحولت هي الأخرى إلى صرخة ، في حين أخذ الآخرون يثنون بصوت يزداد حدة . وهكذا اجتاحت القاعة موجة من الصراخ غطت على صلاة يانلو . وكان ريو يقف متعلقاً بمحاجر السرير ، فأغلق عينيه وقد أثمله التعب والاشمئزاز ، وحينما فتح عينيه وجد تارو بجواره . وقال له :

— ينبغي أن أذهب ، فلم أعد أحتمل .

ورجأة صمت المرضى الآخرون ، وعرف الطبيب حينئذ أن صرخة الطفل قد ضعفت ، واستمرت تضعف بالتدريج ، وأنها قد توقفت الآن . وعادت الأناث من حوله ثانية ولكن بصوت مكتوم كما لو كانت صدى بعيداً لذلك الصراع الذي انتهى الآن . ذلك أن الصراع قد انتهى . وكان كاستل قد انتقل إلى الناحية الأخرى من السرير ، وقال : « لقد انتهى الأمر » . وكان الطفل وقد في تجويف الأغطية المبعثرة وقد فخر فيه الصامت ، وضمير حجمه لجأة بينما ، بقيت بعض آثار الدموع على وجهه .

واقترب يانلو من الفراش ، وقام بحركات التبريك ، ثم جمع أطراف ثوبه وخرج من الممر الرئيسي . واتجه إلى كاستل ، وسأله قائلاً : « هل يجب البدء من جديد ؟ » .

وهز الطبيب الحرم رأسه، وقال بابتسامة كلها غضون :
— ربما ، لأنه على أية حال قد قاوم طويلا .

وكان ريو قد غادر القاعة بخطا سريعة ، وقد بدا في هيئته ما جعل
پانلو يمسك بذراعه وهو يمر به ، ويقول له :
— هيا ، يا دكتور .

والتفت إليه ريو في نفس هذه الحركة المحمومة ، والتي في وجهه
بهذا الكلام العنيف :

— أما هذا، على الأقل، فإنه كان بريئاً، وأنت تعرف ذلك جيداً !
ثم استدار من جديد ، وعبر باب القاعة قبل پانلو ، وواصل سيره
حتى نهاية قناء المدرسة . وهناك جلس على مقعد بين الأشجار الصغيرة المغبرة
ومسح العرق الذي نصبب على عينيه . وكانت به رغبة في الصراخ لكي
يفك العقدة التي تطحن قلبه . وفي هذه الأثناء كان القيث يهبط يهبط بين
أغصان الأشجار . وتغطت السماء — التي بدت زرقاء في ذلك الصباح — بسحابة
مبيضة جعلت الجو أشد خفقاً للنفوس . وترك ريو لنفسه العنان على
مقعده ، وأخذ ينظر إلى الأغصان وإلى السماء حتى عاد إليه تنفسه الطبيعي
بالتدريج . واستطاع شيئاً فشيئاً أن يورد ما يشعر به من نصب ،
وفجأة سمع صوتاً من خلفه يقول :

— لماذا خاطبتني بهذه اللهجة الغاضبة ؟ إن هذا المشهد كان فوق
إحتمالي أنا أيضاً .

واستدار ريو ناحية پانلو ، وقال :

— هذا صحيح ، أرجو معذرتك ، ولكن التعب نوع من

الجنون ، وإنه لتمر بي ساعات في هذه المدينة لا أشعر فيها إلا بالثورة
التي تملاً نفسي .

وتتم يأنلو :

— إني أفهمك جيداً . إن هذا يدهو للثورة ، لأنه يتجاوز إدراكنا ،
ولكن قد يكون من الضروري أن نحب ما لا نستطيع فهمه .

وهنا انتصب ريو مرة واحدة ، وأخذ ينظر إلى يأنلو بكل ما لديه
من قوة وعاطفة ، وراح يهز رأسه ، ويقول :

— لا أيها الأب . إن فكرتي عن الحب بعيدة عن ذلك ، وسأظل
حتى المات أرفض أن أحب هذا العالم الذي يلقي فيه بالأطفال تحت
عجلات التعذيب .

ومرت بوجه يأنلو سحب مضطربة من الظلال وقال في نغمة حزينة :

— آه يادكتور ، لقد فهمت الآن فقط ما يسمونه بالفضل الإلهي .

ولكن ريو ألقى بنفسه من جديد على مقعده ، وأجاب من أعماق
الشعور بالتعجب الذي عاد إليه وبصوت أكثر رقة :

— وهذا ما لم يوهب لي ، إني أعرف ذلك . ولكنني لا أرغب في
مناقشة هذا الأمر معك ، فنحن نعمل معاً في أمر يجمعنا على ما هو أهم
من الابهال والتجديف ، وهذا فقط هو المهم .

وحينئذ جلس يأنلو بجوار ريو والتأثر باد عليه ، ثم قال له :

— نعم ، فأنت أيضاً تعمل من أجل خلاص الإنسان .

وحاول ريو أن يبتسم ، وهو يقول :

— خلاص الإنسان هذه كلمة كبيرة جداً بالنسبة لى، فأنا لا أذهب بعيداً إلى هذا الحد . إن صحته فقط هى التى تهمنى ، صحته أولاً وقبل كل شىء .

وتردد پانلو بعض الشىء ، ثم بدأ يقول :
— يا دكتور . .

ولكنه توقف عن الكلام، وبدأ العرق يتصبب على جبينه هو الآخر، ثم تتمم قائلاً :

« إلى اللقاء » . ونهض والبريق ينبعث من عينيه، وقد هم بالانصراف عندما نهض ريو بدوره — بعد أن كان مستغرقاً فى التفكير — وخطا خطوة نحوه ، وقال :

— أرجو معذرتك مرة أخرى ، فهذا الانفجار لن يتجدد مرة ثانية .

ومد له پانلو يده بحزن ، وقال :

— ومع ذلك فإنى لم أتمكن من إقناعك .

وأجاب ريو :

— هذا لا يهم ؛ فإن ما أكرهه هو الموت والشر ، وأنت تعرف ذلك جيداً ، وسواء أردت ذلك أم لم ترده فنحن هنا جنباً إلى جنب لنقاسى منهما ، ونقاومهما .

وظل ريو ممسكاً بيد پانلو، وقال وهو يتحاشى التقاء نظريهما :
— ها أنت ترى جيداً ، إن الله نفسه لا يستطيع الآن أن

يفرق بيننا . .

منذ أن التحق بانلو بالمنظمات الصحية لم يغادر المستشفيات، ولا الأماكن التي يلتقي الناس فيها بالطاهون، وقد اتخذ مكانه بين رجال الإغاثة في الصف الذي رأى أنه جدير به وهو الصف الأول، ولم تكن مشاهد الموت حوله بالقليلة، كما أنه كان من المفروض أنه حصن ضد المرض بالمصل الواقى، ولكن فكرة احتمال موته هو أيضاً لم تكن غريبة عنه بالرغم من ذلك. وكان قد ظل محتفظاً بهدوئه الظاهري حتى ذلك اليوم الذى وقف فيه طويلاً يشاهد الطفل وهو يصارع الموت، فند ذلك الحين بدا عليه شيء من التغيير؛ فكانت تقرأ على وجهه علامته التورم المتزايد.

وفي ذات يوم قال لريو - وهو يبتسم - إنه يعد الآن بحثاً قصيراً موضوعه «هل لرجل الدين أن يستشير الطبيب؟»، فحيل إلى الدكتور أن الأمر يتعلق بما هو أكثر خطورة مما عبر عنه بانلو، ولما أبدى ريو رغبته فى أن يطلع على هذا البحث أعلن له بانلو أنه سوف يلتقى وعظماً فى قداس الرجال، وبهذه المناسبة سوف يعرض على الأقل بعض وجهات نظره، وقال:

— إن أود أن تحضر هذا الوعظ يا دكتور، فإن الموضوع يهمك -

والقى الأب وعظه الثانى هذا فى يوم ريح عاصف . والحقيقة أن صفوف الحاضرين كانت أقل ازدحاماً منها فى يوم الوعظ الأول ؛ ذلك لأن هذا النوع من المشاهد لم يعد له رونق الجدة فى أعين مواطنينا . هذا إلى أن صفة الجدة ، كانت قد فقدت فى الظروف العسيرة التى كانت تجتازها المدينة ، وأياً ما كان فإن معظم الناس ، — إذا لم يكونوا قد هجروا واجباتهم الدينية هجراناً كلياً ، أو إذا كانت تلك الواجبات نفسها لم تعد تنسجم مع الحياة الشخصية الشديدة العتث التى راحوا يحيونها — كانوا قد أحلوا الحرافات الحرقاء محل الفرائض الدينية العادية ، فكانوا يفضلون عن طيب خاطر أن يلبسوا الأحذية الحافظة ، أو تعاوذك القديس روش على أن يذهبوا للمشاركة فى القداس .

ومن أمثلة ذلك مبالغتهم فى اللجوء إلى التنبؤات ، فقد حدث فى الربيع أن انتظر الناس نهاية المرض من لحظة لأخرى . لذلك لم يحاول أحدهم أن يطلب أية معلومات دقيقة عن مدة بقاء الوباء ما دام الناس جميعاً قد افتنعوا بأنه لم يعد له بقاء ، ولكن مع مرور الأيام بدأ الناس يخشون ألا تكون له نهاية حقاً ، وحينئذ غدا توقف الوباء موضوع آمالهم جميعاً ، فكنت تراهم يتداولون — من يد إلى أخرى — كتب النبوءات المختلفة التى ينسبونها إلى الأولياء أو القديسين التابعين للكنيسة الكاثوليكية ، وتنبيه بعض الناصرين فى المثنية إلى الفائدة التى يمكنهم جنيها من بيع هذه النبوءات ، فطلبوا على الفور نسخاً عديدة من الكتب المتداولة . ولما لاحظوا أن الاستطلاع لدى الجمهور لا يرتوى ، أخذوا يبحثون فى مكتبات البلدية عن كل وثيقة من هذا القبيل يمكن أن تدلهم عليها أخبار التاريخ

العامى لىكى ينشروها فى المدينة ، ولما غضب معين التاريخ نفسه عن تقديم هذه النبوءات لجأ الناشرون إلى استسكتاب الصحفيين الذين أثبتوا أنهم فى هذا الموضوع — على الأقل — لا يقلون جدارة عن أقرانهم فى العصور الماضية .

بل لقد نشرت بعض هذه النبوءات فى الصحف بطريقة سلسلة وكان الناس يقرأونها بلمهة لا تقل عن تلهفهم على قراءة القصص العاطفية التى يتلهف الناس عليها فى الصحف أيام الصحة ، وكانت بعض هذه النبوءات تستند إلى عمليات حسابية غريبة يدخل فيها تاريخ السنة التى وقع فيها الوباء ، وعدد ضحاياه ، وعدد الأشهر التى مرت عليهم تحت عهد الطاعون . وأخذ آخرون يعقدون المقارنات بين هذا الوباء وأوبئة الطاعون الأخرى التى يذكرها التاريخ ويبينون ما بينهما من وجه الشبه (الذى تسميه النبوءات وجه الشبه الثابت) . وعمليات حسابية لا تقل غرابة عن سابقتها يدعون استنباط معلومات تتعلق بالتجربة التى يمرون بها حالياً ، ولكن النبوءات التى حظيت بتقدير الجمهور أكثر من غيرها كانت دون جدال تلك التى تعلن — فى لغة غامضة — سلسلة من الأحداث التى يستطيع أى واحد منها أن ينطبق على الحدث الذى يهز المدينة ، ويساعد ما يحويه من تعقيد على قبول جميع التأويلات ، وهكذا أوحوا يستشيرون نبوءات «نومسترا داموس»^(١) ، والقديسة أوديل ، يومياً ، وفى كل يوم كانوا يحصلون

(١) منجم مشهور ، وصاحب مؤلف فى النبوءات المترجمة (١٥٠٣ - ١٥٦٦) .

على نتائج طيبة ، وكان الطابع الغالب على هذه النبوءات أنها كانت جميعاً مطمئنة ، ولم يكن هناك شيء غير مطمئن سوى الطاعون .

أصبحت هذه الخزافات تحتل مكان الدين عند مواطنينا ، ولذا لم يشغل الجمهور الذى حضر وعظ پانلو من قاعة الكنيسة غير ثلاثة أرباعها ، وقد حضر ريو فى ليلة الوعظ هذه حيث كان الهواء يمر فى صورة شبك من خلال أبواب الدخول (المواربة) ويتجول بين الحاضرين كما يشاء . وهكذا اتخذ ريو مكانه فى كنيسة باردة صامتة وسط جمع من الحاضرين كلهم من الرجال ، وقد رأى الأب پانلو يصعد المنصة ، وأخذ هذا الأخير يتكلم بلهجة أكثر هدوءاً وتروياً عما كانت عليه فى المرة الأولى . وقد لاحظ الحاضرون عدة مرات أن طريقة كلامه يشوبها شيء من التردد ، وأعرب من ذلك أنه لم يكن يقول « أتم ، بل » نحن » .

ومع ذلك ، فقد أخذ صوته يزداد ثباتاً بالتدريج . وقد بدأ بأن ذكر الناس أن الطاعون يقيم بيننا من أشهر طويلة ، وأتينا الآن قد عرفناه أكثر من ذى قبل ، لأننا رأينا مراراً يجلس إلى مائدتنا ، أو بجانب غرائش من نحبهم ، ويسير بجوارنا ، وينتظر قدومنا إلى مقر عملنا . الآن إذن يمكننا أن نتلقى بصدر أرحب ما يوسوس به إلينا دون انقطاع ، ذلك الذى قد لانكون قد أحسننا الاستماع إليه لأول وهلة عندما فاجأنا المرض . إن ما دعا إليه الأب پانلو من قبل فى نفس هذا المكان قد ظل حقيقة ثابتة ، أو على الأقل هذه كانت عقيدته ، ولكنه — وهذا مما يحدث لنا جميعاً وندهش له — ربما يكون قد فكر فيه وقاله دون أن تكون إرادة الخير هى التى دفعته إليه .

ومع ذلك فإنه من الحقائق الثابتة أيضاً أن كل شئ - يمكن أن يقدم لنا
جديداً نتعلمه ، كما أن أقصى أنواع البلاء ينطوى على الكثير من الفائدة
بالنسبة للمسيحي . والأمرا الذي ينبغي للمسيحي أن يبحث عنه في هذه الحال
ينحصر بالذات في تلك الفائدة ، ومن تتكون هذه الفائدة ، وكيف
يحصل عليها .

وفي هذه اللحظة أخذ الناس من حول ريو يعتقدون في جلستهم بين
أذرع مقاعدهم ؛ السكى يريحوا أجسامهم إلى أقصى حد ممكن ، وفي هذه
الآناء كان أحد أبواب الدخول المبطنة يتأرجح فيمدق دقاً خفيفاً ، فكلف
أحدهم نفسه مشقة تثبيته ، وساعدت هذه الحركات ذهن ريو على
الشروع ، فلم يستمع إلى بانلو الذي استأنف وعظه . وكان يقول — مامعناه
على وجه التقريب — : إنه لا ينبغي لنا أن نحاول تفسير ظاهرة الطاعون ،
ولكن يجب علينا أن نلج في استنباط ما تنطوى عليه من دروس .

وفهم ريو — بشكل غامض — أن الأب بانلو يريد أن يقول : إنه ليس هناك
ما يمكن تفسيره . ثم ركز اهتمامه حينئذ سماع بانلو يقول بقوة : إنه توجد
أشياء من الممكن تفسيرها بالنسبة لله وأخرى لا يمكن تفسيرها ؛ فالخير
والشر موجودان قطعاً ، ومن السهل على وجه العموم أن تفسر لأنفسنا
الفرق بينهما . ولكن الصعوبة تبدأ حينئذ يتعلق الأمر بالشر وحده .
فهناك مثلاً الشر الذي يبدو ضرورياً ، والشر الذي يبدو عديم الفائدة .
هناك مثلاً دون جوان الفارق في الجحيم كما أن هناك موت أحد الأطفال ،
فإذا كان من العدل أن يصعق الرجل الماخن ، فليس هناك ما يبرر تعذيب
الطفل ، والحقيقة أنه ليس هناك على ظهر الأرض ما هو أهم من تعذيب
طفل ولا من الشفاعة التي يجرها وراءه هذا التعذيب ، أو البحث عن

المبررات التي ساقته إليه . أما فيما عدا ذلك من أمور الحياة، فإن الله قد يبرر لنا كل شيء ، ولذا لم يكن للدين أى فضل في هذا المجال . أما هنا فإن الله — على العكس من ذلك — قد وضعنا وجهاً لوجه أمام البلاء . وما نحن الآن أمام سور الطاعون السامق ، وينبغي لنا أن نعثر في ظلاله المميّنة على فائدتنا ، ورفض الآب بأنلو أن يخلع على نفسه من المميزات الرخصية ما يسمح له بتسليق السور . وكان من اليسير عليه أن يقرر أن النعيم الخالد الذي ينتظر الطفل يمكن أن يعرضه عما لحق به من عذاب ، ولكنه في الواقع لم يكن يدري عن ذلك شيئاً ، فن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أن خلود إحدى المتع يمكن أن يكون عوضاً عن لحظة من عذاب البشر ؟ لاشك أن من يقول هذا لن يكون من أولئك المسيحيين الذين عرف ربهم كيف تألموا في أطرافهم وفي نفوسهم . كلا ، فسيتبقى الآب وجهاً لوجه أما المشكلة وفاء لتلك المفارقة التي يعتبر الصليب رمزاً لها ، سيتبقى وجهاً لوجه أمام عذاب طفل وسيتقول ، دون أى وجل ، لأولئك الذين ينصتون إليه في ذلك اليوم : « يا إخوتي لقد حانت اللحظة الحاسمة فإما أن تؤمن إيماناً مطلقاً أو تكفر كفرأ مطلقاً . ومن ذا الذي يستطيع منكم أن يكفر بكل شيء ؟ »

ولم يكد الظن يتطرق إلى ذهن ريو بأن الآب قد اقترب من حدود التجديف ، حتى استطرد هذا الأخير يؤكد بقوة أن هذا الأمر الصارم ، هذه الطاعة العمياء هي الميزة الحقيقية للمسيحي ، وهي أيضاً فضيلته . وقد كان الآب على تمام البيئة من أن ما في الفضيلة التي يتحدث عنها من عنف قد يصطدم ببعض العقول التي اعتادت الأخلاق التقليدية السمجة .

ولكن الدين في زمن الطاعون لا يمكن أن يكون هو نفسه دين كل زمان .
 وإذا كان في مقدور الله أن يسلم ، بل أن يحض الناس على الركون إلى
 الراحة أو المتعة في أيام السعادة ، فإنه يريد منهم التطرف في الفضيلة
 عندما يشتد الشقاء . إن الله قد أسبغ اليوم على مخلوقاته نعمة لغراقهم في
 ذلك النوع من الشقاء الذي لا بد لهم فيه من الإيمان بتلك الفضيلة القابلة :
 « إما كل شيء ، وإما لا شيء » .

منذ عدة قرون ادعى مؤلف جاهل أنه قد كشف عن سر الدين
 حين أكد أن المطهر لا وجود له ، وكان يرمي بذلك إلى أنه ليس هناك
 أنصاف أوضاع ، ليس هناك إلا الجنة والنار ، ولا يمكن للمرء إلا أن
 ينجو أو يدان حسب ما يختار . وقد قرر بانلو أن ذلك ضرب من
 الإلحاد لا يمكن أن يولد إلا في نفس فاجرة ؛ ذلك لأن المطهر موجود ،
 ولكن أغلب الظن أن هناك عهداً لا يصبح للناس فيها أن يعلقوا آمالاً
 كبيرة على هذا المطهر ، عهداً لا يصبح لهم فيها أن يعتقدوا في وجود
 خطايا تافهة ، بل تصبح كل الخطايا من الكبائر ، وكل تهاون ضرها
 من الإجرام . فإذا كل شيء ، وإما لا شيء .

وهنا توقف بانلو . وفي تلك اللحظة استطاع ريو أن يسمع جيداً
 من تحت الأبواب أنات الرياح التي يبدو أن قوتها كانت قد تضاعفت
 في الخارج ، وحينئذ استأنف الأب كلامه قائلاً : إن فضيلة التسليم المطلق
 التي يتكلم عنها لا يمكن أن تفهم بمعناها الضيق التي يفسرونها به في المعتاد
 وأن المسألة ليست تسليماً مبتذلاً ، ولا حتى خضوعاً يصعب على النفس
 القيام به ، وإنما هي استكانة ، ولكنها استكانة يرضاها لنفسه المستكين ،

ومن المؤكد أن عذاب الطفل أمر يفرض الاستكانة على العقل والقلب . ولهذا السبب ينبغي أن نزرع تحت هذا العذاب ، وهنا حذر بانلو مستمعيه من أن ما سيقوله ليس من السهل قوله ، ثم لهذا السبب أيضا نريده ، لأن الله قد أراده . بهذا فقط يكون المسيحي قد عمل كل ما عليه ، بهذا فقط يتجه رأساً إلى الاختيار الأساسى بعد أن يرى كل المخارج قد أغلقت أمامه . إنه يختار الاعتقاد فى كل شيء لكيلا يضطر إلى إنكار كل شيء . وإذا كان هناك من النساء الصالحات منعلن بأن الخرايج هى الطريق الوحيد الذى يقذف منه الجسم ما فيه من تلوث ، فمرحون يترددون على الكنيسة فى هذه الأيام ويدعون قائلات : « يا إلهى أكثر من الخرايج » . فإنه يجب على المسيحي أن يكون مثلهم ويعرف كيف بكل أمره إلى الإرادة السماوية حتى ولو لم يكن فى وسعه فهمها ؛ فليس من الصواب أن تقول : « لاني أفهم هذا ، ولكن ذلك لا أقبله » . بل يجب أن نسارع إلى خضم ذلك الذى لا يمكن قبوله ، والذى أرسلته إلينا الأقدار؛ لأنه هو وحده الذى يمكننا من الاختيار . إن آلام الأطفال خبزنا المر ، ولكن لو لم يوجد هذا الخبز لسكان من الممكن أن تلقى نفوسنا حتفها المعنوى .

وهنا كانت الحركة التى تحدث كلما توقف الواعظ عن الكلام قد بدأت تسمع عندما استأنف الواعظ كلامه بقوة وهو يتظاهر — بدلا من مستمعيه — بالتساؤل عن المسلك الذى ينبغي أن نسلكه على وجه العموم ، ودار بخاطره أن مستمعيه يكادون ينطقون بتلك الكلمة المروعة ، كلمة الحرية ، ولكنه لم يكن ليتراجع هو عن النطق بها لو سمحوا له بأن يضيف

إليها فقط صفة « الإيجابية » . ومن المؤكد أنه لم يكن ليعنى تقليد مسيحي الحبشة الذين تحدث عنهم ، بل ولا التفكير في محاكاة مرضى الطاعون الفرس الذين كانوا يسلطون جوع كلابهم على الدوريات الصحية المسيحية ، وهم يدعون السماء بصوت مرتفع أن تبعث بالطاعون إلى هؤلاء الكفار الذين يريدون مقاومة إرادة الله بمحاربة المرض الذي أرسلته إليهم السماء — ومن جهة أخرى لم يكن ليطلب إليهم محاكاة رهبان القاهرة الذين كانوا — إبان أوبئة القرن الماضي — إذا أرادوا مناوله الرعايا أمسكوا الخبز المقدس بملقط لكي يتجنبوا الاحتكاك بالآفواه الرطبة الدافئة التي قد تكون مثوى للعدوى . ذلك أن كلا الفريقين — مرضى الطاعون الفرس ورهبان القاهرة — كان على خطأ . فالأولون لم يحسبوا أى حساب لعذاب الأطفال ، أما الآخرون فإن خوف الألم الذى هو من طبيعة البشر قد طغى عندهم على كل شئ . وفى كلتا الحالتين أهملت المشكلة الحقيقية ، إذ ظل الجميع صما أمام صوت الله . وكانت أخرى ود بانلو أن يذكروهم بها . فيحكى ذلك المؤرخ الذى سجل تاريخ طاعون مرسيليا الكبير أنه لم ينبج من الحمى من بين رجال دير هناك أمثلة الرحمة الواحد والثمانين سوى أربعة فقط ، ومن هؤلاء الأربعة ثلاثة كانوا قد لاذوا بالفرار .

هكذا قال المؤرخون ، ولم يكن فى مهمتهم أن يقولوا أكثر من ذلك ، ولكن لاشك أن الأب ماكاد يقرأ هذا الخبر حتى اتجه بكل فكره إلى ذلك الذى بقى رغم الجثث السبعة والسبعين ، وعلى الأخص بالرغم

عن المثل الذى ضرب به إخوانه الثلاثة . وصاح الأب — وهو يضرب بقبضته حافة المنصة — : « إخوتي ، ينبغي أن نكون هذا الذى بقى . »

ولم يكن بانلو يدور إلى رفض الاحتياطات الوقائية ، ذلك النظام الواعى الذى أدخله المجتمع على فوضى الوباء . لم يكن يريد اتباع أولئك الذين كانوا يدعوننا أن نجثو على ركبتينا وأن نتخلى عن كل شيء . وإنما كان يراد فقط أن نبدأ فى السير إلى الأمام خلال الظلام وعلى غير هدى إلى حد كبير ، ونحاول أن نفعل الخير ، وفيما عدا ذلك كان لابد لنا أن نظل فى مكاننا ، وأن نسلم أمرنا لله — حتى فيما يخص موت الأطفال — دون أن نحاول اللجوء إلى أية وسيلة من وسائلنا .

وهنا أشار الأب بانلو إلى المثل الذى ضرب به الأسقف «بلزونس» أثناء وباء مرسيليا . فذكر الناس أنه قبيل نهاية الوباء كان الأسقف قد قام بكل ما يمكن أن يقوم به من عمل ، وظن أنه لم يعد هناك أى علاج للحالة ، فحبس نفسه فى منزله ومعه بعض الماء كولات ، وأقام سوياً دون المنزل . وهنا انعكس شعور الأهالى الذين كانوا يعبدونه ، كما هو الحال دائماً عند الآلام الشديدة ، وغضبوا منه وأحاطوا بمنزله بالجثث لى يلوثوه بالعدوى ، بل وقد بلغ بهم الغضب أن ألغوا إليه ببعض الجثث من فوق الجدران ، وذلك لى يتأكدوا من أنه سوف يموت .

وهكذا ظن الأسقف فى فترة ضعف أخيرة أنه قادر على أن يعزل نفسه عن دنيا الموت ، فتساقط الموتى من السماء على رأسه ، وهذه هى حالتنا أيضاً . فيجب أن نقتنع بأن بحر الطاعون ليس به جزر . كلا

لهنا هناك وسط. يجب أن تقبل هذه الفضيحة لأن علينا أن نختار بين
أن نكره الله وأن نحبه . ومن منا يجرؤ على أن يكره الله ؟

وأخيراً قال الأب بانلو وهو يعلن أنه يختم كلامه : « إخوتي : إن
حب الله حب شاق . فهذا الحب يستلزم أن تنسك ذاتنا نكراً تاماً ،
وأن نحتقر أشخاصنا . ولكنه هو وحده الذى يستطيع أن يمحو عذاب
الأطفال وموتهم ، وهو وحده الذى يستطيع أن يقضى بضرورة ذلك .
وبما أنه من المستحيل أن نفهم هذه الشرور فليس أمامنا إلا أن نريدها .
هذا هو الدرس الصعب الذى أردت اقتسامه معكم . وهذا هو الإيمان
القاسى فى نظر الناس ، وهو الإيمان الحاسم فى نظر الله الذى ينبغى أن تقترب
منه . فأمام هذه الصورة المروعة يجب أن نتساوى جميعاً ، وعلى هذه القمة
سوف يختلط كل شيء ويتساوى كل شيء ، ومن ينبوع الظلم الظاهرى
سوف تتفجر العدالة . وهكذا فى كثير من كنائس جنوب فرنسا وقد
كثير من ضحايا الطاعون — منذقرون — تحت بلاط المكان الذى يقف فيه
الشماسة . ويتكلم القسس فوق قبورهم مستمدين الروح التى ينشرونها من
هذا الرماد الذى أسهم فى تكوينه بعض الأطفال أيضاً . »

وعندما غادر ريو الكنيسة كانت هناك ريح باردة قد اندفعت من
الباب الموارب ، وأخذت تلمس المصلين فى وجوههم ، وأدخلت معها إلى
الكنيسة رائحة المطر ، ورائحة الرصيف المبلل مما جعلهم يتخيلون منظر
المدينة قبل أن يخرجوا من الكنيسة . وأمام الدكتور ريو كان هناك
قسيس عجوز ، وشماس شاب قد خرجا اتوهما أيضاً . وكانا يبذلان مجهوداً

ضخما للاحتفاظ بخطاى رأسيهما ، ولكن ذلك لم يمنع إلا كبر من
من التعليق على الوعظ . وقد حيا فى پانلو فصاحته ، ولكنه أبدى قلقه
لما فى الأفكار التى عرضها من جرأة . وكان رأيه أن هذا الوعظ ينم عن
القلق أكثر مما ينم عن القوة ، وأنه لا يحق للقس — فى سن پانلو — أن
يشعر بالقلق . أما الراهب الصغير فقد أكد وهو يحنى رأسه ليحميه من
الرياح أنه كثيرا ما يزور الأب ، وأنه على بينة مما طرأ عليه من تغير ،
وأن البحث الذى بعده قد يكون أكثر جرأة من خطابه ، واذلك فقد
لا يمنح إذن الطبع .

وسأل القس المعجوز :

— ما هى إذن فكرته ؟

وهنا كانا قد وصلنا ساحة الكنيسة الخارجية ، وحاصرتهما الرياح
من كل جانب وهى تزار ، فقطعت على الشماس الشاب كلامه ، وعندما
تمكن من الكلام لم يزد على أن قال :

— إذا استشار القس الطيب كان متناقضا مع نفسه .

ولما حدث ويو تارو بما سمعه من پانلو ، أجابه تارو بأنه يعرف قسيسا
فقد إيمانه أثناء الحرب عندما شاهد وجه شاب مفقود العينين ، ثم أضاف
قائلا :

— إن پانلو على حق ؛ فعندما تفقأ عيني برىء يفقد المسيحي إيمانه ،
أو يقبل فقأ عينيه ، وپانلو لا يريد أن يفقد إيمانه ، ويصمم على السير
حتى النهاية ، هذا هو ما أراد أن يقوله .

ولكن . هل تستطيع تلك الملاحظة التى أبداها تارو أن توضح لنا
— بعض الشيء . — الحوادث التعسة التى تلت ذلك ، وكان مسلك پانلوازاها
غير مفهوم لمن حوله ؟ ذلك ما سوف نحكم عليه فيما بعد .

وبعد بضعة أيام من الوعظ قام پانلو بتغيير مسكنه ، وكانت هذه
هى اللحظة التى أدى فيها تطور المرض إلى حركة دائمة فى تغيير المساكن
فى المدينة ، وكأ أن تارو قد اضطر إلى ترك فندقه والإقامة عند ريو ،
كذلك اضطر الأب إلى إخلاء الشقة التى كانت الطريقة التى ينتمى إليها
قد أنزلته فيها ، وذهب ليقم عند سيدة عجوز من مرتادى الكنيسة ظلت
حتى الآن بعيدة عن عدوى الطاعون ، وكان الأب قد شعر فى أثناء نقل
حاجاته بأن تعبته وقلقه فى ازدياد ، وكان من وراء هذا أن فقد احترامه
فى نظر السيدة التى آوته . فقد حدث أن أطرت له هذه السيدة بحرارة
فضائل نبوة القديسة أوديل ، وأبدى لها القس شيئاً طفيفاً من الضيق ،
وربما كان ذلك يرجع إلى ما كان يشعر به من إتهام ، فأصبح كل ما يبذله
بعد ذلك من جهد لى يحصل من السيدة العجوز ولو على مجرد الحياء
المتساح لا يجدى قتيلاً . ذلك أن الفسكرة التى أخذتها عنه كانت سيئة ،
فسكان كلبا جاء فى المساء ليأوى إلى غرفته المليئة بستاير الدنتلة المشغولة
بالإبرة لم ير من صاحبة البيت الجلاسة فى غرفة الاستقبال إلا ظهرها ، ولم
يحمل معه من ذكرياتها إلا عبارة « مساء الخير يا أبى » ، التى كانت تردبها
على نحيته فى جفاف ، ودون أن تلتفت إليه .

وفى إحدى هذه الأمسيات شعر الأب فى اللحظة التى آوى فيها إلى

فراشه بأن الحى التى يحتضنها منذ أيام طويلة فى معصيته وصدغيه قد انطلقت من عقابها .

أما ما تلا ذلك فلا نعرف عنه شيئاً إلا بما رواه مضيفته . فقد استيقظت فى الصباح مبكرة كما دتما ، ومر بعض الوقت دون أن يخرج الأب من غرفته ، فاعتراها بعض الدهش ، وبعد كثير من التردد قررت أن تدق على بابه ، فوجدته ما زال راقداً فى فراشه بعد ليلة كلها أرق . كان يشكو من ضغط على جسمه ، ويبدو محتقن الوجه أكثر من المعتاد ، وتقرر المضيفة أنها عرضت عليه فى كثير من اللطف أن ترسل فى استدعاء أحد الأطباء ، ولكنه رفض عرضها بعنف رأت هى أنه مؤسف . ولم تجد أمامها سوى أن تنسحب ، وبعد ذلك بقليل دق الأب الجرس وطلب حضورها إليه ، واعتذر لها عن زلاته غير المقصودة ، وصرح لها بأن مرضه لا يمكن أن يكون الطاعون ؛ لأنه لا يبدو عليه أى عرض من أعراضه ، وإنما هى وعكة زائلة . وأجابته السيدة العجوز بكل وقار أن عرضها لم يكن مبنياً على قلق من هذا النوع ، وأنها لم تكن تقصد سلامتها الشخصية لأنها بين يدي الله ولما لم يجد الأب أية رغبة عادت تلك المضيفة التى كانت تحرص — حسب قولها — على أن تودى واجبها نحوه كاملاً ، فعرضت عليه مرة أخرى أن تستدعى له الطبيب . ومن جديد رفض الأب عرضها معزراً رفضه بمبررات رأت السيدة العجوز أنها مضطربة ، وكل ما فهمته منها أن الأب رفض هذه الاستشارة لأنها لا تتفق مع مبادئه ؛ وهذا بالذات هو الأمر الذى لم تفهمه ، واستنتجت من كل ذلك أن الحى كانت قد أصابت تفكير ضيفها بالاضطراب ، فاكتفت بأن قدمت له بعض المنقوعات الحارة .

ولما كانت قد عقدت العزم على أداء الالتزامات التي خلقتها لها الظروف بكل دقة ، فقد ظلت تزور المريض بانتظام مرة كل ساعتين ، وكان يروعها ذلك الاضطراب المتزايد الذي اعترى الأب طيلة يومه ، فكان يبعد أغطيته ، ثم يعود فيسحبها نحوه وهو لا يكف عن المسح بيده على جبهته المنداة . وكثيراً ما كان ينهض وهو يحاول أن يسعل سعالاً مخفوقاً نخشنا رطباً يحدث صوتاً يشبه صوت التمزق .

وكان يبدو - في ذلك الوقت - كأنما يحاول عبثاً أن يخرج من أعماق حلقة قطعاً من القطن قد تسببت في اختناقه ، وفي نهاية كل أزمة من تلك الأزمات كان يترك جسمه يتهاوى إلى الخلف ، ويدعو على قواه كل مظاهر الخور . وبعد كل ذلك كان يهب من جديد جالساً نصف جلسة ، ويظل لمدة قصيرة يحدق أمامه بصورة أكثر عنفاً وإلحاحاً كما كان عليه في حالة الاضطراب السابق . ولكن السيدة المعجوز ظلت مترددة في استدعاء الطبيب خوفاً من إغضاب مريضها ، معتقدة بأن الأمر قد لا يعدو أن يكون حمى شديدة ، وإن بدت تطوراتها في غاية الغرابة .

ومع ذلك فقد حاولت في فترة العصر أن تتكلم مع الأب ، ولكنها لم تتلق من رد على سؤالها سوى بضع كلمات مختلطة ، غير أنها ما كادت تحدد عرضها حتى نهض الأب من جديد وهو نصف محنتي ، وأجابها بوضوح بأنه لا يريد طبيباً . وحينئذ قررت المضيئة أن تنتظر حتى صباح اليوم التالي. مصممة على أنه إذا لم تتحسن صحة الأب ، فسوف تطلب الرقم التليفوني الذي كانت تردده وكالة «راندولك» عشرات المرات كل يوم

هاراديو . ولما كانت دائمة الحرص على واجبها فقد فكرت في زيارة ضيفها أثناء الليل والسهر عليه . ولكن لما أقبل المساء أعطته منقوها بارداً ، وأرادت أن ترقد قليلاً غير أنها لم تستيقظ إلا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى . وحينئذ جرت إلى غرفته .

كان الأب في هذه اللحظة يرقد بلا حراك ، وكان الاحتقان الشديد الذى اعتراه بالأمس قد ترك على وجهه نوعاً من الزرقة ظل بادياً على ملاحه ، وكان الأب يحدق في النجفة التى كانت تتدلى فوق السرير بلألئها الصغيرة المتعددة الألوان ، وعندما دخلت السيدة العجوز أدار رأسه ناحيتها . وتقول المضيفة : إنه كان يبدو في هذه اللحظة وكأنما قد انهال عليه أحد الأشخاص ضرباً طول الليل ، ومن ثم فقد كل قدرة على المقاومة . ولما سأله عن حاله أجاب بصوت استطاعت تمييز ما به من غرابة ، وقال : إن حالته سيئة ، ولكنه ليس في حاجة إلى طبيب ، بل يكفى أن ينقل إلى المستشفى حيث يتم كل شئ حسب القواعد المتبعة ، فبدأ الارتياح على وجه السيدة العجوز ، وجرت من فورها إلى التليفون .

وصل ريو ساعة الظهر . وبعد أن استمع إلى حكاية المضيفة لم يجب إلا بأن يأنلوا على حق ، وأن الألوان ربما يكون — فعلاً — قد فات . واستقبله الأب بنفس التعبير الفاتر ، ولما لحقه ريو دهش لعدم العثور على أى عرض من الأعراض الرئيسية للطاعون ذى العقدة أو الرئوى على السواء ، فيما عدا الاختناق وضغط الرئتين .

وعلى كل حال كان النبض ضعيفاً ، والحالة العامة تنذر بالخطر ، ولذلك كان الأمل ضئيلاً ، وقال ريو لبا نلو :

— لا يبدو عليك أى عرض من الأعراض الرئيسية للمرض ،
ولكن الحالة تدمر حقيقة للشك ، ويجب على أن أعزاك .

وابتسم الأب ابتسامة غريبة كأنها ابتسامة بجمالة ، ولكنه ظل
صامتا ، وخرج ريو ليتكلم بالتليفون ، ثم عاد وأخذ ينظر إلى الأب
وقال له بركة :

— سوف أظل بجانبك .

وهنا بدا يأنلوكا لو كان قد استرد روحه ، وأدار ناخية الطبيب
عينين كأنهما قد استعادتا نوعا من حرارتهما ، ثم تكلم بصعوبة ، فقال
دون أن تم نبراته عما إذا كان يتحدث بحزن أم لا :

— شكراً ، ولكن ليس لرجال الدين أصدقاء ، فقد وضعوا كل
شيء في يد الله .

ثم طلب الصليب الذى كان موضوعا على رأس السرير ، ولما
أحضره استدار لينظر إليه .

وفى المستشفى لم يفرج يأنلوكا عما بين أسنانه ، واستسلم للعلاج الذى
فرض عليه ، كما لو كان قطعة من جماد ، ولكنه لم يترك الصليب قط . ومع
ذلك فقد ظلت حالة القس غامضة ، واستمر الشك يبعث بذهن ريو :
هل هو الطاعون ومرض غير الطاعون ؟ رأيا ما كان ، فإن الوباء قد بدأ منذ
حين يرفه عن نفسه بتضليل ضروب التشخيص . أما بالنسبة لحالة يأنلوكا
فقد أثبت ما حدث بعد ذلك أن هذا الشك لم يكن ذا أهمية .

فقد استمرت الحمى في صعودها ، وازداد السعال خشونة ، واستمرت
آلام المريض طيلة النهار ، وفي المساء تقيأ الآب أخيراً تلك القطعة من
القطن التي كانت تخنقه . لقد كانت حمراء اللون . ووسط هذيان الحمى
ظل يأنو محتفظاً بنظراته غير المكشوفة . . . وفي صباح اليوم التالي
وجدوه ميتاً ، وقد أدلى منتصف جسمه خارج الفراش ، ولكن نظراته
لم تكن تعبر عن شيء ، فكتبوا على بطاقته : « حالة مشكوك فيها » .

لم يكن عيد جميع القديسين ، هذا العام كما كان فيما سبقة من
الأعوام ، ومن المؤكد أن الجو كان مناسباً للدوسم ؛ إذ أنه كان قد انقلب
لجأة واجتاحت المدينة موجة حر قصت على الجو البارد — نوعاً ما — الذى
كان ، سائداً . وبعد ذلك أخذت الرياح الباردة تهب بصفة مستمرة كما
حدث فى السنوات الأخيرة ؛ وأخذت السحب الكثيفة تهوب الأفق من
خاضع إلى أخرى ، وتغطى المنازل بالظلال ، ثم تمودسما . نوفير ذات الضوء
الذهبي إلى الظهور من جديد بعد انقشاع تلك السحب ، وبدأت المعاطف
الواقية من المطر تظهر ، وقد لاحظ الناس ظهور عدد مذهل من المنسوجات
ذات البريق المصنوعة من المطاط ، ذلك أن الصحف كما نرى قد ذكرت
أنه كان قد حدث منذ مائتى عام فى إبان أوبئة الطاعون الكبيرة فى الجنوب
أن ارتدى الأطباء منسوجات مدهونة بالزيت لكي يقوا أنفسهم من
العدوى ، وانتشرت المحلات هذه الفرصة لتطرح للبيع ما كانت تخزنه
من منسوجات أصبحت عتيقة ، وأقبل الناس عليها أملا فى التحصن
ضد الوباء .

ولكن جميع دلائل الموسم هذه لم يكن باستطاعتها أن تنسى الناس أن
المقابر كانت مهجورة ، فى السنوات الماضية كانت عربات القمام المليئة

يرافقة زهور الأفحوان الباهتة، وبأفواج النساء تتوجه إلى الأماكن التي
دفن فيها أقاربهن لكي ينثرن الزهر على قبورهم ، كان الناس يغملون
ذلك يوم عيد القديسين لتعويض الموتى عما ظلوا مغمورين فيه شهوراً
طويلة من عزلة ونسيان ، ولكن في هذه السنة أراد الناس ألا يفكروا
في الموتى ، ومعنى هذا على وجه التحديد أنهم كانوا يسرفون في التفكير
فيهم ، فلم يعد الأمر يتعلق بزياراتهم بعد طول الغياب مع قليل من
الأسف لكثير من الوجوه . ذلك أنهم لم يعودوا أولئك المهجورين الذين
نورهم مرة كل عام لتبرير هجراننا لهم ، بل أصبحوا أولئك الدخلاء
الذين نريد نسيانهم . ولهذا كان عيد الموتى هذا العام بلا احتفال .
ذلك أن كل الأيام أصبحت أعياداً للموتى على حد تعبير كونار الذي
لاحظ تارو أن كلامه يتسم بالسخرية المتزايدة .

والحقيقة أن نيران الفرح التي كان يشعلها الطاعون في سعادة لم تكن
تفتأ تزداد احتراقاً في فرن إحراق الكائنات البشرية الكبير . نعم إن
عدد الموتى لم يعد في ازدياد ، ولكن كان يبدو أن الطاعون قد استقر
به المقام في عليائه ، ولذلك أصبح يحوط جرائم القتل التي يرتكبها كل يوم
بكل أنواع الدقة والنظام التي تليق بموظف نشيط . وكان ذلك من
العلامات الطيبة من حيث المبدأ وفي رأى الخبراء ؛ فمثلاً كان الدكتور
ديشار ينظر إلى الرسم البياني لتقدم المرض فيراه يمثل خطاً متصاعداً
صعوداً مستمراً ، ثم يسير في صورة خط مستعرض طويل ، وعندئذ
يقرر أن الحالة مطمئنة ، ويقول : « لأنه رسم طيب ، رسم رائع ، وكان
يرى أن المرض قد وصل إلى ما سماه الخط الثابت ، وأنه من الآن فصاعداً

لا يمكن إلا أن يأخذ في النزول ، وراح يعزو الفضل في ذلك إلى مصل كاستل الذى حقق في الواقع بعض النجاح غير المتوقع منذ قليل . ولم يكن كاستل الهرم يعارض ذلك ، ولكنه كان يرى أنه لا يمكن لأحد في الحقيقة أن يتنبأ بشيء ، لأن تاريخ الأوبئة ينطوى على قفزات غير متوقعة .

أما المديرية التى كانت تمنى — منذ مدة طويلة — أن تدخل بعض الطمأنينة على نفوس الناس ، ولم يعطها الطاعون فرصة لذلك ، فقد أخذت تفكر في عقد اجتماع الأطباء لىكى تطلب منهم تقريراً عن هذا الموضوع ، وفي هذا الوقت اختطف الطاعون الدكتور ريشار بدوره من فوق خطه الثابت بالذات .

أمام هذا المثل الذى — رغم ما أحدثه من إثارة لا ريب فيها — لم يكن ليقدم أو يؤخر ، عادت الإدارة إلى التشاؤم غير المترىث الذى كان قد صاحبها في تفاؤلها ، أما كاستل ، فقد اكتفى بالاستمرار في تحضير مصله بكل ما يستطيع من عناية ، ولم يعد هناك أى مكان عام لم يتحول إلى مستشفى أو محجر . وإذا كانوا — حتى الآن — قد تركوا مبنى المديرية في حاله ، فذلك لأنه لم يكن لهم بد من مكان يجتمعون فيه . ولكن بصفة عامة ، ونتيجة للاستقرار النسبي الذى وصلت إليه حالة الطاعون في هذا الوقت لم ترهنا حاجة لتجاوز حد التنظيم الذى كان ريو قد ارتآه من قبل ولم يضطر الأطباء والمساعدون الذين كانوا يبذلون جهوداً مضنية إلى تخيل مجزعات أكبر من ذلك . ولم يكن أمامهم إلا أن يستمروا بانتظام في بذل هذا الجهد الذى يفوق طاقة البشر ، وأخذت الحالات الرئوية للوباء التى كانت

قد ظهرت من قبل تنتشر الآن في أركان المدينة الأربعة كالمكانات هناك
ريح تشعل الحرائق في الصدور وتزيدها ضراماً ، فكان الوباء يختطف
المرضى بأسرع من ذى قبل وسط ما يتقيثون من دم ، وتعرضت نسبة
انتشار العدوى للزيادة من هذه الصورة الجديدة للوباء ، ولكن الإحصائيين
في الحقيقة يرون غير ذلك . ومع كل هذا فقد رثى من باب الاحتياط
أن يستمر أعضاء المنظمات الصحية في التنفس تحت أقنعة من المنسوجات
الخفيفة المعقمة .

وعلى كل حال كان من المتوقع في بادئ الأمر أن يزيد انتشار
المرض ، ولكن لما كانت حالات الطاعون العمدى قد أخذت في التناقص
فقد ظل الميزان متعادلاً .

ومع ذلك فقد ظهرت هناك أسباب أخرى أثار قلق الناس ، وهي
أسباب تتعلق بصعوبات التكوين التي كانت غير موجودة في السوق العادية
تعرض بأثمان خيالية .

وهكذا وجدت العائلات الفقيرة نفسها في موقف عسير للغاية ، بينما
ظلت الأسر الغنية لا يفتقرها تقريباً أى شيء . وفي الوقت الذى كان
ينبغي فيه للطاعون — مع ما تميز به من عدم التحيز في أحكامه — أن يقوى
روح العدالة بين مواطنينا حدث على العكس من ذلك أن زاد من حدة
الشعور بالظلم في قلوب الناس ؛ وذلك لما للأثرة من مفعول طبيعي .
أما المساواة أمام الموت — وهي مساواة لا غبار عليها — فقد ظلت على
حالتها ، ولكن لم يعد هناك من يرغب في هذا النوع من المساواة . فكان

الفقراء الذين يقاسون من الجوع يسرحون خيالاتهم في نوع من الخبز المضى نحو المدن والحقول المجاورة حيث الحياة الحرة ، والخبز الرخيص .

ولما كانت السلطات عاجزة عن إعطائهم كفايتهم من الطعام ، فقد كانوا يشعرون بأزاه من واجب هذه السلطات نفسها أن تدعمهم يرحلون وكان هذا منهم شعوراً غير حكيم . ونتيجة ذلك سرت في الناس كلفة أصبحت كالشعار كانوا يكتبونها أحياناً على الجدران ، ويصيحون بها أحياناً أخرى لدى مرور المدير ، وهى : « الخبز أو الهواء » . وكان هذا التعبير الساخر نذيراً ببعض المظاهرات التى مالبثت أن وقعت ، ولكن طابعها الخطير لم يخف على أحد .

أما الصحف ، فقد كان من الطبيعى أن تستجيب الأمر بالدعوة إلى التناول الذى تلقته من الجهات العليا ، وكان من يقرؤها لا يملك إلا أن يعتقد أن الهدوء والاتزان المثاليين اللذين يلوذ بهما السكان هما العلامة المميزة للوظف . ولكن مهما أحكم إغلاق مدينة من المدن على نفسها لا يمكن لآى شىء فيها أن يظل سراً ، فلم يندع أحد بذلك «المثل» الذى يضربه عامة الناس . والسكى فكون فكرة صحيحة عن هذا الهدوء وهذا الاتزان اللذين كانوا يتحدثون عنهما ، كان يكفى أن ندخل أى محجر أو معسكر من معسكرات العزل التى أعدتها الإدارة . ولكن الراوى لم ير هذه المحاجر والمعسكرات لاضطراره فى ذلك الحين إلى مغادرة المكان ، ولذلك نراه يعتمد فى الكلام عنها على شهادة تارو .

نعم ، يذكر تارو فى مفكرته قصة زيارته مع رامبير للمعسكر الذى كان قد أقيم على ملعب البلدية ، وهذا الملعب يقع تقريباً عند أبواب

المدينة ، وبطل من ناحية على الشارع الذى يمر فيه الترام ، ومن الناحية الأخرى على الأرض الخلاء التى تمتد حتى حافة الهضبة التى بنيت عليها المدينة ، وهو محاط عادة بجدران مرتفعة من الأسمنت ، ولذا يسكن أن يوضع الحراس على أبوابه الأربعة لئلا يصبح الحرب منه متعذراً . كما أن هذه الجدران كان من شأنها أن تمنع الناس فى الخارج من أن يضايقوا بفضولهم أولئك التعمساء الذين حجروا فى الداخل . أما هؤلاء الآخرون ، فإنهم لطول سماعهم ضجيج عربات الترام - وإن لم يروها - قد أصبحوا يتعرفون على ساعات ذهاب الناس المسكاتب وعودتهم منها ، وذلك بفضل ازدياد الضوضاء التى يحدثها هؤلاء الناس وانخفاضها . وهكذا كانوا يدركون أن الحياة التى أبعدوا عنها لا تزال مستمرة على بعد أمتار منهم ، وأن جدران الأسمنت تلك تفصيل عالمين مختلف كل منهما عن الآخر كما لو كانا فى كوكبين مختلفين .

وقد اختار تارو ورامبير فترة ما بعد الظهر من أحد أيام الآحاد لزيارة الملعب ، وكان برقتهما جونزاليس لاعب كرة القدم الذى كان رامبير قد عثر عليه من جديد . وانتهى به الأمر إلى أن قبل التيام بمراقبة الملعب بالمناوبة ، وكان على رامبير أن يقدمه إلى مدير المعسكر ، وكان جونزاليس قد قال للرجلين لحظة التقائهما به : إن هذه هى الساعة التى كان يقوم فيها - قبل الطاعون - بلبس ملابس اللعب استعداداً لبدء الجولة . أما الآن وقد تم الاستيلاء على الملاعب فلم يعد هذا ممكناً ، ولذا كان جونزاليس يشعر بالفراغ ، وكان هذا الشعور بادياً عليه . وهذا هو أحد الأسباب التى دعت به إلى قبول تلك المراقبة على شرط ألا يزاوها إلا فى نهاية

كل أسبوع، وفي هذا الوقت كانت السماء نصف مغطاة بالسحب، ولاحظ
جوزا ليس بكثير من الأسف، وهو يرفع أنفه إلى أعلى، أن هذا الوقت
— الذي لاهو بالحار ولاهو بالمطر — يعتبر أنسب الأوقات لمباراة طيبة.
وأخذ يستعيد في نفسه بقدر المستطاع ذكرى رائحة الشحم في غرف
الملابس، والمنصات المتداعية، وملابس اللعب ذات الألوان الزاهية الملقاة
على الأرض الصفراء، وعصير الليمون أو المياه الغازية التي كانوا يتناولونها
بين شطري اللعب، والتي كانت تحدث في الحلق الجفاف تأثيراً كتأثير
ألف إبرة منعشة. هذا إلى أن تارو قد سجل هو الآخر في مفكرته أن
هذا اللاعب لم يكف خلال سيرهم في شوارع الحى الخارجى المتداعية
عن قذف الأحجار التي كان يصادفها في الطريق بقدمه.

وكان يحاول أن يصوبها مباشرة نحو فتحات المجارى. وعندما كان
ينجح في ذلك كان يقول: « واحد لصفر »، ولما انتهى من تدخين سيجارته
ثقل عقبها أمامه، وسارع يحاول التقاطه بقدمه، وبالقرب من اللاعب رأى
جوزا ليس جمعاً من الأطفال يلعبون الكرة، فقذفوها نحو جماعتهم، فإذا
به يكلف نفسه عناء لإعادتها لهم بدقة في التصويب.

وأخيراً دخلوا الملعب، قرأوا المنصات غاصة بالناس، أما أرض
الملعب، فكانت مغطاة يمثات من الخيام الحمراء التي يلجأ بداخلها من بعد بعض
الأسرة وسرور الحاجيات، وقد احتفظ بالمنصات حتى يستطيع حبيسوا
المعسكر الاحتباء بها من الحر والمطر، إذ لم يكن يسمح لهم بدخول الخيام
الإنساعة المغرب، وقد أعدت صنابير رشاشة تحت المنصات. أما غرف
الملابس السابقة التي كانت مخصصة للاعبين، فقد تحولت إلى مكان

وعيادات . وكان أغلب المحجوزين في المعسكر في هذه الآونة فوق خطرط
اللعب، كأن بعضهم يجلسون القرفصاء لدى مدخل خيمتهم، وهم يسرحون
نظراتهم الغامضة في كل ما يحيط بهم . أما أولئك الذين آووا إلى
المنصات ، فقد كانت الكشيترون منهم يرقدون كما لو كانوا في حالة
انتظار وترقب .

وسأل تارو رامبير بقوله :

— ماذا يعمل هؤلاء أثناء يومهم ؟

— لا شيء .

والواقع أنهم كانوا جميعاً تقريباً خاوي الأيدي يطرحون أذرعهم
من الفراخ ، كما كان هذا الجمع الفقير من الناس يجلسون في صمت جدمشير
الانتباه . وقال رامبير :

— في الأيام الأولى لم يكن من الممكن أن تسمع صوت نفسك هنا .
ولكن بمرور الأيام أخذ كلامهم يتناقص شيئاً فشيئاً . ويذكر تارو في
هذكرته — ويبدو أنه كان يفهمهم جيداً — أنه كان يراهم في أول الأمر
وقوداً في خيامهم يشغلون أنفسهم بالإنصات إلى طنين الذباب، أو بحك
جلودهم ، فإذا وجدوا أذناً مجاملة تصفى إليهم راحوا يصرخون من
الغضب أو من الخوف ، ولكن منذ اللحظة التي غص فيها المعسكر بالزلاء
أخذت هذه الأذان المجاملة تقل شيئاً فشيئاً ، ولم يعد أمامهم إلا أن
يلوذوا بالصمت ، ويركضوا إلى الارتياح . والواقع أنه كان هناك نوع من
الارتياح يهبط على هذا المعسكر الأحمر من السماء الداكنة رغم سطوعها .

نعم كان الارتياح يبدو عليهم جميعاً ، ذلك أنهم إذا كانوا قد عزلوا
عن الآخرين ، فلا بد أن يكون ذلك لسبب. لذا كانت تبدو على وجوههم
سمة الخائفين الذين يبحثون عن أسباب ، وكان تارو كلما نظر في عين
واحد منهم رآها تنم عن الفراغ ، وكان يبدو على جميعهم أنهم يقاسون
آلام فراق شامل عن كل ما كان يكون حياتهم ، ولما كانوا لا يستطيعون
التفكير في الموت طيلة الوقت ، فقد أصبحوا لا يفكرون في شيء . كانت
أذهانهم في عطله ، ويقول تارو :

« ولكن أسوأ ما في الأمر أنهم قد أصبحوا منسيين ، وأنهم كانوا
يعرفون ذلك ، فلقد نسيهم من كانوا يعرفونهم ، لأنهم صاروا يفكرون
في أشياء أخرى ، وهذا من الأمور التي لا يصعب فهمها . أما من يحبونهم
فقد نسوهم بدورهم ، لأنهم كان عليهم أن ينهكوا أنفسهم في المساعي وتغيير
المشروعات التي تهدف إلى إخراجهم من معزلهم ، وكان من شأن طول
تفكيرهم في هذا الإخراج أن أنساهم التفكير في أولئك الذين يعملون
على إخراجهم ، وهذا أيضاً أمر طبيعي ، وفي النهاية لاحظ الناس أنه لم
يعد أحد يقدر على التفكير في أحد حتى في أسوأ حالات الشقاء ، ذلك
أن التفكير في أحد معناه أن نفكر فيه الدقيقة تلو الدقيقة ، دون أن
يشغلنا شيء عن هذا التفكير ، من أعمال منزلية أو ذبابة تطير أو
وجبات طعام أو حكة جلدية ، ولكن كان هناك ذباب وحكات جلدية ،
ولذا كان من العسير على الناس أن يحبوا حياتهم ، وكان هؤلاء يعرفون
ذلك تمام المعرفة .

وقد أقبل عليهم المدير يخبرهم بأن شخصاً يدعى السيد أوتون يطلب

رؤيتهم ، ثم قاد جونزاليس إلى مكتبه . أما هما ، فقد قادهما إلى ركن منعزل من المنصة كان يجلس فيه السيد أوتون ، وما أن رأهما هذا الأخير حتى نهض واقفاً لاستقبالهما . وقد كان يرتدى ملابس بهنفس طريقته المعهودة ، ويضع نفس الياقة المنشأة ، وكل ما لاحظته عليه تارو من تغير أن شعر صدغيه كان أكثر تشعثاً من ذي قبل ، وأن أحد رباطي حذائه كان مفكوكاً . وكان التعب بادياً على القاضي ، كما لوحظ أنه لم ينظر مرة واحدة إلى محدثيه في وجيبهما ، وقد قال لهما : إنه سعيد لرؤيتهما ، وأنه يكلفهما بشكر الدكتور ريو على ما قام به .

وصمت الآخران .

وبعد فترة من الوقت أردف القاضي قائلاً :

— أتعشم ألا يكون چاك قد تعذب طويلاً .

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمعه فيها تارو ينطق باسم ابنه ، ولذا أدرك أن شيئاً ما كان قد تغير في هذا الرجل ، وفي هذا الوقت كانت الشمس قد أخذت تهبط وراء الأفق ، وأخذت أشعتها تنسل من بين السحب إلى المنصة فتطلى وجوه الرجال الثلاثة بطلاء ذهبي .

وقال تارو :

— كلا ، كلا ، إنه في الواقع لم يتعذب .

وعندما نهضا منصرفين كان القاضي لا يزال ينظر إلى الجهة التي تأتي منها الشمس .

وقد ذهباً ليردعا جونزاليس ، فوجداه منهما في دراسة جدول من

جداول مناوبات المراقبة ، وضحك اللاعب وهو يشد على يديهما ،
وقال :

— لقد رجعت على الأقل إلى غرف الملابس ، وهذا بعض
ما كنت أريد .

وبعد قليل عاد المدير فسميع تارو ورامبير ، وفي تلك اللحظة سمع
أزين هائل داخل المنصات ، ثم صاحبت مكبرات الصوت التي كانت تستعمل
في الأوقات الطيبة لإعلان نتائج المباريات ، أو لتقديم الفرق ، فأعلنت في
صوت كأنه صادر من الأنف : أنه ينبغي للعزولين أن يعودوا إلى خيامهم حتى
يقضى توزيع وجبة المساء عليهم ، وغادر الناس المنصات في بظء عائدين
إلى الخيام وهم يحرون سيقانهم جراً . ولما استقر بهم المقام مرت خلال
الخيام عربتان كهربائيتان صغيرتان من تلك التي ترى في محطات القطارات ،
وكانتا محملتين بقدر كبير . وأخذ الرجال يمدون أيديهم . وكان هناك
مغرفتان كبيرتان نعمران في القدرين ، ثم تخرجان ، لتصبأ ما بهما في وعاءين
من الصفيح . وبعد ذلك تواصل العربأ سيرها ، وتبدأ من جديد عند
الخيمة التالية .

وقال تارو للمدير :

— إن الأمر يسير هنا طبقاً للقواعد العلمية .

وأجاب المدير قائلاً — وهو يشد على أيديهما — :

— نعم ، إنه يسير حسب القواعد العلمية .

كان الغسق قد خيم على المكان ، وكشفت السماء غطاءها ، وأخذ

نوع من الضوء الهادى المنعش يفسر المعسكر ، وفى هدوء المساء أخذ
صوت الملاعق والصحون يتصاعد من كل مكان ، وراحت الخفافيش
تبحر فوق الخيام ، ثم اختفت فجأة . وفى الناحية الأخرى من الجدران
كانت هناك عربة ترام تصر لدى نقطة من نقط التحويل .

وتتم تارو قايلا — وهو يعبر الأبواب — :
— يا للقاضى المسكين ! ينبغى أن نعمل شيئاً من أجله .
ولكن كيف السبيل إلى مساعدة قاض ؟

وكان في المدينة معسكرات أخرى كثيرة مثل هذا المعسكر لا تسمح
أمانة الراوى ، وقلة ما لديه من معلومات مباشرة عنها أن يذكر عنها
أكثر من ذلك ، ولكن ما يستطيع أن يقوله هو أن وجود هذه
المعسكرات ، ورائحة الرجال التي كانت تتصاعد منها ، وأصوات المكبرات
الضخمة ساعة الغروب ، ولغز هذه الجدران ، والخوف من هذه الأماكن
المنكرة ، كل هذا كان شديد الوطأة على حالة مواطنينا المعنوية ، وقد
ساعد على ازدياد الهرج والاستياء الذي هم الجميع ، فتعددت ضروب
الاحتكاك ، والخلاف مع الإدارة .

وفي نهاية نوفمبر كان جو الصباح قد صار شديد البرد ، وهطلت الأمطار
كأنها الطوفان ، فغسلت الطرق بالماء الغزير ، ونظفت السماء وجعلتها تبدو
خالصة نقية مبرأة من السحب فوق الشوارع اللامعة ، وكانت الشمس
الشاحبة تنثر على المدينة في كل صباح ضوءاً خافتاً بارداً كالثلج . أما قبيل
المساء ، فكان الهواء على العكس من ذلك يصير فاتراً من جديد ، وكانت
تلك هي اللحظة التي اختارها تارو لكي يطلب بعض الاستفسارات من
الدكتور ريو .

ففي جوال الساعة العاشرة من ذات يوم ، وبعد نهار طويل حافل
بالعمل المجهد ، رافق تارو ريو في زيارته المسائية لمريض الريو العجوز .

وكانت السماء تلبع بلطف فوق منازل الحى القديم . وأخذ النسيم يتناوح فى سكون خلال الميادين المظلمة ، وقد شعر الرجلان القادمان من الشوارع الهادئة بالارتياح لثروة المعجوز ، فقد أخبرهم أن هناك بعض المتذمرين ، وأن صحن الزيت لا يقدم إلا لأشخاص معينين ، وأنه ما فى كل مرة تسلم الجرة ، ثم أخذ يفرك يديه وهو يقول : إنه من المحتمل أن يحدث بعض الصخب ، واستمر الطبيب فى إجراء علاجه عليه دون أن يكف هو عن تفسير الحوادث .

وفى هذه الأثناء سمع وقع أقدام على السطح من فوقهم ، ولما لاحظت المرأة المعجوز اهتمام تارو بذلك أخبرتهما أن هناك بعض الجارات اللاتي يسكن على السطح ، وعلمتا فى نفس الوقت أن المنظر الذى يشاهد من هذا السطح منظر رائع ، وأنه لما كانت أسطح المنازل تتلاقى عادة من إحدى جهاتها فإنه من الممكن للنساء الحى أن يتزاورن دون أن يخرجن من منازلهن .

وقال المعجوز :

— نعم ، اصعدا لذن ، ففى أعلى يوجد الهواء الطيب .

وألقيا السطح خالياً ليس به إلا ثلاثة كراسى ، ولاحظا أنه مهما بعد الإنسان بصره من إحدى الجهات فلن يرى سوى أسطح منازل تفتى بمناخه كمتلة حجرية مظلمة ، تبينا فيها أول تلال المدينة . أما من الجهة الأخرى ، فكان الناظر يرى — فيما وراء بعض الشوارع والميناء غير المرئى — أفقا تختلط فيه السماء بالبحر فى نوع من الخفتان غير المتميز ، وكان

هناك وراء ما يعلنان أنه الشاطئ الضحل ضوء لا يريان مصدره، ولكنه يظهر بصورة منتظمة . إنه فنار المرور الذى استمر يعمل منذ الربيع من أجل هداية سفن تولى هاربة إلى موانئ أخرى .

وفى سماء تجوبها الرياح وتحملها كانت النجوم تتلألأ، ثم يأتى بريق الفنار بين الفينة والفينة فيضيف إلى لآلائها نوعاً من الرماد العابر. وكان النسيم يحمل رائحة التوابل والحجارة، وكان السكون يخيم على السكون . وقال ريو وهو يهيم بالجلوس :

— إن الجو جميل كأن الطاعون لم يصعد هنا أبداً .
وكان تارو حينئذ يدير له ظهره ، وينظر إلى البحر . فأجابه بعد برهة :

— نعم ، إن الجو جميل .
ثم أتى وجلس بالقرب من الطيب ، ونظر إليه بانتباه ، وفى هذه الأثناء ظهر النور ثلاث مرات فى السماء ، وقد تصاعد من أعماق الشارع صوت أوان منزلية يصطدم بعضها ببعض ، وقرع آذانهما صوت باب يصفق داخل البيت .

وقال تارو بصوت جد طبيعى :

— ألم تحاول أبداً ، يا ريو ، أن تعرف من أكون ؟ أتمكن لى شيئاً من الصداقة ؟
وأجاب الطيب :

— نعم ، لى أكن لك شعور الصداقة ، ولكن الوقت كان أمامته شحيحاً حتى الآن .

— حسن ، إن هذا يطمئني ، أتريد أن تكون هذه الساعة هي
ساعة الصداقة ؟

ولم يجب ريو بأكثر من ابتسامة .

— حسن . ها هي ذى . .

وفي هذه اللحظة سمعا ضوضاء إحدى العربات تنزل فوق الأسفلت.
المبلل على مسيرة بضعة شوارع منهما ، ثم تلتها بعض صيحات بعيدة غير
واضحة ، فقطع عليهما كل ذلك ما كان يحيط بهما من سكون مرة أخرى ،
ثم ما لبث السكون أن عاد — بما يحمل من سماء ونجوم — نفيم على الرجلين -
ونفض تارو ليطل من سور السطح ووجهه تجاه ريو الذى ظل مسترخياً
على مقعده ، ولم يكن يرى من تارو سوى كتلة واحدة بارزة فى فراغ
السماء . لقد تسكلم طويلا ، وهذا يحمل حديثه على وجه التقريب :

ولكى نبسط الأمر ياريو أبادر فأقول : إننى كنت أعانى من الطاعون.
قبل أن أعرف هذه المدينة وهذا الوباء ، وهذا يعنى أنى مثل غيرى من
الناس ، ولكن هناك من الأشخاص من لا يعرفون ذلك أو من يستمرون
هذا الوضع ، وهناك من يعرفون ذلك ويعملون على الخروج منه . أما أنا
فقد كنت دائماً أريد الخروج .

فعندما كنت شاباً ، كنت أعيش بفسكرة براقى ، أى أنه لم يكن
لدى أفكار على الإطلاق ، ولم أكن من النوع القلق ، فقد بدأت بداية
مناسبة ، وكان كل شيء ينبجح فى يدي ، كنت على وفاق مع الذكاء ، فى حالة
طيبة مع النساء ، كانت تداهمنى بعض المشاغل ، ولكنها سرعان ما كانت

تذهب من حيث أنت ، وذات يوم بدأت أفكر ، الآن . .

د ينبغي أن أقول لك : إننى لم أنشأ مثلك نشأة فقيرة ، فقد كان أبى محاميا عاما ، وهو منصب كبير ، ومع هذا لم يكن يبدو عليه ذلك لأنه كان رجلا سليم الطوية . أما أمى ، فكانت بسيطة لا شخصية لها ، وإذا كنت لم أكف يوما عن حبها فإنى مع ذلك أفضل عدم الحديث عنها . كان أبى يهتم بى ويحببى ، بل واعتقد أنه كان يحاول أن يفهمنى ، وقد كانت له مغامرات خارج المنزل ، وأنا الآن متأكد من ذلك ، إلا أن هذا الأمر أصبح الآن أبعد من أن يغيظنى ، وكما كان متوقعا منه كان فى مسلكه هذا لا يؤذى شعور أحد ، ولكى لا أطيل عليك الحديث لم يكن كثير الشذوذ ، واليوم وقد مات فإنى أدرك أنه إذا لم يكن قد عاش عيش القدس ، فإنه أيضا لم يكن بالرجل الشرير ، كان بين بين . هذا كل ما هنالك ، وكان من هذا النوع الذى يجعلك تشعر نحوه بود معتدل ، بهذا النوع من الود الذى يحملك على الاستمرار فيه .

د ومع ذلك فقد كانت له خصلة مميزة : فإن كتابه المفضل الذى كان يقرؤه قبل أن ينام هو دليل القطارات لشيكس ، وليس معنى هذا أنه كان كثير الأسفار ، فلم يكن يسافر إلا فى الاجازات ، حيث يذهب إلى مقاطعة «بريتانيا» التى كان يملك فيها ضيعة صغيرة ، ولكنه كان يستطيع أن يذكر لك ساعات قيام قطار باريس — برلين وعودته ، وجميع الطرق التى تمكنك من السفر بين ليون وفارسوفيا ، كما كان يستطيع أن يذكر لك بدقة عدد الكيلو مترات بين العواصم التى تختارها ، هل تستطيع أن تذكر كيف يسافر من بيافسون إلى شامونيكس ؟ لأشك أن ناظر المحطة

نفسه لابد أن يرتبك إذا ما طلبت منه ذلك . أما أبى فلم يكن يرتبك ، فقد كان يتدرب كل مساء تقريبا على إزادة معلوماته في هذه النقطة، وكان غفورا بذلك . وأما أنا ، فقد كان هذا مدعاة لتسلتي ، وكثيراً ما كنت أوجه إليه الأسئلة ، وأشعر بغبطة كبيرة عندما أراجع إجاباته على دليل شيكس ، وأجد أنه لم يخطئ ، ولقد ربطت هذه التمرينات الصغيرة بيننا برابط وثيق ، فقد كنت بالنسبة له جمهوراً من المستمعين بقدر همتهم ونشاطهم . وقد كنت من ناحيتي أرى أن تفوقه فيما يختص بالسكك الحديدية يعادل أى تفوق آخر .

ولكن يبدو لي أنى أترك العنان لنفسى ، وقد يجزئني ذلك إلى أن أرى هذا الرجل الطيب أكثر مما يستحق من الأهمية ، ولكنى ذكرت ذلك لى أنتهى منه إلى أن تأثيره على مصيرى لم يكن إلا تأثيراً غير مباشر ، فهو على — أكثر تقدير — قد منحني إحدى الفرص ، فعندما بلغت السادسة عشرة دعاني إلى الذهاب للاستماع إليه في المحكمة ، وكان الأمر يتعلق بمسألة هامة في محكمة الجنايات ، ومن المؤكد أنه كان يظن أنه سيبدو في أحسن مظهره ، بل وأعتقد أنه كان يعتمد أيضاً على هذه المظاهر الرسمية التي تبهر خيال صغار الشبان ، وذلك لى يحثني على الدخول في المهنة التي اختارها هو من قبل ، ولقد قبلت دعوته لأدخل السرور إلى قلبي ، ولى أشبع عندي حب الاطلاع الذي كان يدفعني إلى رؤيته ، والاستماع إليه في دور غير الدور الذي كان يلعبه في بيتنا ، لم أكن أفكر في شيء أكثر من هذا . وكان ما يدور في المحكمة يبدو لي دائماً حايغياً ، ولا يمكن تفاديه كأحد استعراضات عيد ١٤ يوليو ، أو حفلة

توزيع الجوائز ، كانت فكرتى عن هذا الموضوع جد غامضة ، ولم يكن تفكيرى فيه يسبب لى أى ضيق .

ومع ذلك فلم تعلق بذهنى من ذلك اليوم إلا صورة واحدة ، هى صورة أبى كلدنب ، ولكن هذا الرجل القصير الفقير ذا الشعر الأحمر الذى كان يبلغ الثلاثين من عمره كان يبدو لى وكأنه مصمم على الاعتراف بكل شيء ، وكما لو كان يشعر برعب حقيقى مما فعل وما سيفعلون به ، حتى أنه لم تكذب تمر بضع دقائق حتى كنت لا أقدر على تحويل بصرى عنه . كان يبدو كبومة أذعرها الضوء القوى ، لم تكن عقدة رباط عنقه تتفق تماماً مع زاوية الرقبة ، وكان يقرض أظافر إحدى يديه ، يمانها ، وباختصار ، أن أطيل عليك ، فقد فهمت طبعاً أنه كان حياً . .

د أما أنا ، فلم أكن قد أدركت ذلك إلا فجأة ، إننى لم أكن قد فكرت فيه حتى الآن إلا على أساس أنه ينتمى إلى طائفة المذنبين . ولا أستطيع أن أقول : إننى كنت قد نسيت أبى فى هذا الوقت ، ولكن شيئاً ما قد قبض أحشائى ، وانتزع منى كل انتباه آخر سوى ذلك الذى أوليته للنهم . كنت لا أكاد أنصت إلى شيء ، بل كنت أشعر أنهم يريدون قتل هذا الرجل الحى ، ومررت فى لحظة هائلة حملتنى كأنها الموج إلى جواره فى عماية شديدة المراس ، ولم أستيقظ إلا على مرافقة الاتهام يلقيها أبى .

د لقد غيرة الرداء الأحمر من الضد إلى الضد ، ولم يعد ذلك الرجل الطيب الودود ، وإنما راح فيه يهدر بالجلل والأفراط الفخمة التى كانت تخرج منه تسعى دون توقف كأنها الأفاهى ، وفهمت أنه يطلب الموت

لهذا الرجل باسم المجتمع ، بل وأنه يطلب أن تقطع عنقه . نعم ، إنه لم يقل سوى « هذا الرأس ينبغي أن يسقط » ، ولكن الفرق ليس كبيراً على أية حال ، والنتيجة واحدة مادام قد حصل على هذا الرأس ، وكل ما هنالك أنه لم يكن هو الذى يقوم بهذا العمل فى ذلك الوقت . أما أنا — الذى تتبعمت المسألة فيما بعد حتى خاتمتها — فقد نشأ عندي نحو هذا التمس تجاوب داخلى بلغ حداً من العمق لم يعرف أبى مثله قط ، وحسب العادة المتبعة ، كان على أبى أن يمحصر ما يسمونه — بتعبير مذهب — بالدقائق الأخيرة للبهيم ، والذى ينبغي أن يسمى أبشع جرائم القتل .

« ومنذ تلك اللحظة لم أعد أستطيع رؤية دليل « شيكس » دون أن يعترضنى امتعاض مروع . منذ تلك اللحظة صرت أهتم بالعدالة اهتماماً يشوبه الاشتىزاز ، كما صرت أهتم بأحكام الإعدام وتنفيذها ، وتبين لى — والدوار يذهب بى كل مذهب — أن أبى لابد أن يكون قد حضر مراراً جريمة القتل هذه ، وأن ذلك على وجه التحديد كان فى الأيام التى يستيقظ فيها مبكراً . نعم ، فقد كان فى هذه الحال يضبط ساعته المنبهة ، ولم أستطع التحدث عن هذا إلى أمى ، ولكننى رحت أراقبها مراقبة أكثر دقة من ذى قبل . ففهمت أنه لم يعد يلينها ويذه أية علاقة شخصية ، وأنها تحيا معه حياة العزوف . وقد ساعدنى هذا — كما كنت أقول حينئذ — على إغذارها ، ثم علمت فيما بعد أنه لم يكن ثمة ما أغفره لها ، لأنها كانت قد عاشت حتى رواجها فقيرة ، وأن الفقر قد علمها الخضوع والامتثال .

« لعلك تتوقع بلا شك أن أقول لك : إننى قد رحلت عنه بعد ذلك مباشرة . كلا ، فقد بقيت معه عدة أشهر ، بل قرابة العام ، ولكن قلبى

كان قد أصبح مريضاً . وذات مساء طلب أبى ساعته المنبهة بحجة أنه يريد أن يصحو مبكراً ، ولم أنم طوال الليل ، ولما عاد في اليوم التالي كنت قد غادرت البيت . وانتبادر بذكر أن أبى قد أرسل من يبحث عني وأنى ذهبت لزيارته ، ولكننى أخبرته في هدوء — دون أن أشرح له السبب — بأننى سوف أقتل نفسى لو اضطررت للعودة ، وانتهى بي الأمر إلى الرضوخ لأنه كان هادئ الطبع ، بعد أن ألقى على خطابه عن سخف ما يسمونه « أن يحيا كل إنسان حياته الخاصة » (وهكذا كان يفسر لنفسه تصرفى ولم أحاول أنا نكران ذلك) ثم أغدق على آلاف النصائح . وكنتم الدموع الحقيقية التى كانت توشك أن تنهمر من عينيهِ ، ومع ذلك فقد ظلت زمناً طويلاً أعود إلى البيت بانتظام أرؤية أبى ، فكنت أقابله خلال تلك الزيارة ، وأعتقد أنه اكتفى من ناحيته بهذه الصلة ، أما من ناحيتى أنا ، فلم أكن نافقاً عليه ، ولكن كنت أشعر ببعض الحزن يحز فى قلبى . ولما مات أبى معى ، ولو لم تمت بدورها لظلت معى حتى هذه اللحظة .

« وإذا كنت قد تحدثت عن هذه البداية بكثير من التفصيل ، فما ذلك إلا لأنها كانت فى الحقيقة بداية كل شئ . ، أما الآن فسوف أجمل حديثى . لقد عرفت الفقر فى الثامنة عشرة من عمري بعد أن كنت فى يسر ، ومارست مئات المهن لا أكسب عيشى ، وقد نجحت فى ذلك إلى حد كبير . ولكن الأمر الذى كان يستولى على كل انتباهى هو أمر حكم الإعدام . كنت أريد أن أسوى حسابى مع البومة الحمراء . ونتيجة لذلك مارست السياسة كما يقولون ، وكل ما هنالك أنى لم أكن أرغب فى الإصابة بالطاعون ، ولكننى اعتقدت أن المجتمع الذى أعيش فيه مجتمع يقوم على

أحكام الإعدام ، وأنى إذا قاومت هذا المجتمع ، كنت قد قاومت القتل .
اعتقدت فى ذلك كما أسر إلى بعض الآخرين بمثله ، ولكن انتهى من هذه
النقطة أقول : إن ذلك كان صحيحاً إلى حد كبير ، فانضمت إذن إلى الآخرين
الذين كنت أحبهم ، والذين مازلت أحبهم ، بقيت معهم زمناً طويلاً ،
وليس هناك من بلد فى أوروبا لم أشاركه فى كفاحه .

ولكن ما علينا ..

و كنت أعرف طبعاً أننا نحن أيضاً كنا نصدر أحكاماً بالإعدام .
ولكن كان يقال : لابد من بعض الضحايا لكي نصل إلى عالم لا يقوم فيه
أحد بقتل أحد ، وكان هذا صحيحاً إلى حد ما ، ولكن لعل أنا لم أكن
لأنوى الاستقرار فى مثل هذا النوع من الحقيقة . أما أننى كنت متردداً
فقد كان هذا مؤكداً ، ولكنى بقيت أفكر فى البومة ، ومن ثم فقد أمكن
لهذا الوضع أن يستمر . حتى كان ذلك اليوم الذى رأيت فيه حكا
بالإعدام ينفذ (وكان ذلك فى المجر) . وإذا بنفس الدوار الذى أصابنى
وأنا طفل ينتابى وأنا رجل ، وأظلمت عيناى .

و ألم تر أبدأ رجلاً يموت رمياً بالرصاص ؟ كلا ، بكل تأكيد ،
فهذا يتم بناء على دعوة سابقة ، ويختار له جمهور المشاهدين مقدماً ، والنتيجة
أنك بقيت غارقاً فى الكتب والصور المطبوعة ، إن الأمر فى مخيلتك
لا يعدو عصاة الأعين ، وعموداً ، وبعض الجنود الذين يقفون على بعد .
كلا . فالأمر ليس كذلك ، هل تعرف أن فيلق الجنود المسكفين بإطلاق
النار يقف على بعد متر ونصف من المحكوم عليه ؟ وهل تعرف أن
المحكوم عليه لو تقدم خطوتين إلى الأمام لاصطدم صدره بالبنادق ؟ وهل

تعرف أنه على هذه المسافة القصيرة يصوب الرماة قذائفهم على منطقة القلب ، فيحدثون فيها برصاصهم الكبير ثقباً تستطيع أن تدخل فيه قبضة يدك ؟ كلا ! إنك لا تعرف شيئاً من هذا ، لأنه لا أحد يروى مثل هذه التفاصيل . إن نوم البشر أكثر قداسة من حياة المصابين بالطاعون ؛ ذلك أنه لا يصح منع الناس الطيبين من النوم ، فإن منعهم منه يدل على سوء الذوق ، والذوق معناه عدم الإلحاح ، هذا ما يعرفه الناس جميعاً . أما أنا ، فلم أتم منذ هذه اللحظة . وقد بقى ذلك المذاق الرديء في فمي ، ولم أكف عن الإلحاح أى عن التفكير في ذلك .

« ولقد فهمت حينئذ أنني ، أنا على الأقل ، لم أكن قد كففت عن كونى مصاباً بالطاعون خلال تلك السنين الطويلة ، على حين كنت أعتقد أنني أناضل بكل ما في وسعى ضد الطاعون ، وعرفت أنني قد أسهمت بطريق غدير مباشر في إعدام آلاف الأشخاص ، بل وأنتى قد تسببت في موتهم عندما أقررت الفعال والمبادئ التي جرتهم حتماً إلى حتفهم . أما الآخرون ، فلم يكن يبدو عليهم الضيق لذلك ، أو على الأقل لم يكونوا يتحدثون عنه أبداً من تلقاء أنفسهم . ولكنى — أنا — أصبت بعقدة في حلقى ، كنت معهم ، ومع ذلك كنت وحدي .. ولما كان يحدث لى أن أعبر عما يقلق ضميرى ، فقد كانوا يقولون لى : إنه ينبغي التفكير فيما هو موضع الفعل ، ويدلون لى بمحجج — أخاذة في غالب الأحيان — لى يجعلونى أزدرد ما أجد صعوبة فى ازدراده ، ولكنى كنت أجيبهم بأن كبار المصابين بالطاعون — هؤلاء الذين يلبسون العباءات ، والخمرا — يدلون هم أيضاً بمثل تلك الحجج البديعة فى مثل هذه الحالات ، وأنتى إذا

قبلت قانون القوة القاهرة، وضروب الضرورة التي يذكرها صغار المصابين بالطاعون لم يعد في إمكانى رفض حجج الكبار، فكانوا يجيئونني بأننا إنما نعتبر قابلين لطريقة ذوى العباءات الحمراء، إذا تركنا لهم وحدهم حق إصدار أحكام الإعدام.

ولكنى كنت أقول حينئذ لنفسى: إننا لو سلمنا مرة واحدة لما كان هناك داع للتوقف بعد ذلك. ويخيل لى أن التاريخ قد برهن على صواب رأيي، فهام أولاء الناس في هذه الأيام يتسابقون في القتل. إنهم جميعاً قد شعروا بحمى القتل، وليس في مقدورهم أن يفعلوا غير ذلك.

وأياماً ما كان فإن ما يشغلنى أنا لم يكن الإدلاء بالبراهين، بل المغامرة القذرة حيث تغدو بعض الأفواه المصابة بالطاعون تعلن لرجل مصنف بالسلاسل أنه سوف يموت، ويدبر كل شيء بحيث يموت حقيقة بعد ليال وليال من الاحتضار ينتظر خلالها أن يقتل وهو مفتوح العينين، إن ما يهمنى كان ذلك الثقب في صدره. وكنت أقول في نفسى: أما فيما يختص بى — وإلى أن يوجد حل لذلك — فإنه يجب على أن أمتنع عن أن أؤيد، ولو مرة واحدة — واحدة فقط — تلك المجزرة الممجرجة، نعم لقد اخترت هذا العمى المتعمد انتظاراً لذلك اليوم الذى أرى فيه الأمور بمزيد من الوضوح.

ومنذ تلك اللحظة لم يطرأ على أى تغيير، وقد مر على زمن طويل وأنا أشعر بالحجل، الحجل المميت، لأننى كنت — كنت أنا الآخر قاتلاً، ولو من بعيد، ولو بحسن نية. وبمرور الوقت لاحظت ببساطة أنه حتى هؤلاء الذين كانوا خيراً من غيرهم أصبحوا اليوم يعجزون عن منع

أنفسهم من القتل أو من ترك غيرهم يقتلون ؛ لأن ذلك كان جزءاً من المنطق الذى يعيشون فيه ، وأنه لا يمكننا القيام بأية إشارة فى هذا العالم دون أن يكون فيها مجازفة بالدفع إلى القتل ، نعم لقد ظلت أشعر بالحجل من أننا جميعاً نعيش فى الطاعون ، ومن ثم فقدت سلام النفس وطمأنينتها . هذا ما قد تعلمته ، وما زلت أبحث اليوم عن هذا السلام وتلك الطمأنينة محاولاً أن أفهمهم جميعاً وألا أكون العدو اللدود لأحد . وكل ما استطعت أن أعرفه هو أنه ينبغى لنا أن نعمل كل ما يمكن عمله حتى نكشف عن أن نكون مصابين بالطاعون ، وأنه بهذا — بهذا فقط — يمكننا أن نأمل فى السلام ، فإن لم يتيسر ذلك ، كان لنا أن نأمل فى الموت الهادئ ، إن هذا هو ما يمكن أن يهدىء من روع الناس ، وإذا لم يكن فى ذلك إقناذ لهم ، فإنه يحد من الضرر الذى يلحق بهم وينزل به إلى أقل قدر ممكن ، بل وقد يسمح لهم ببعض الخير ، ولهذا قررت أن أرفض كل ما يسبب موت أحدهم قريب أو بعيد ، وكل ما يبرره سواء أكان ذلك لأسباب وجيهة أم سخيفة .

ولهذا أيضاً لا يعلنى هذا الوباء شيئاً ، اللهم إلا وجوب مقاومته بجانبك . إنى أعلم علم اليقين — نعم يا ربو فأنا أعرف كل شيء عن الحياة كما ترى جيداً — أن علينا يحمل الطاعون فى جوفه لأنه لم يطعم ؛ نعم ، لم يطعم فى هذا العالم بما يقبه من عدواه ، وأنه ينبغى لنا أن نلاحظ أنفسنا باستمرار حتى لا يحدث فى لحظة سهو أن نتنفس فى وجه أحد الأشخاص فنلصق به العدوى . فالأمر الطبيعى هو الميكروب ، أما ما عدا ذلك من صحة ونزاهة وطهارة ، فليست — إذا أردت — إلا أنرا من آثار الإرادة ، الإرادة التى ينبغى أن تتوقف لحظة واحدة . والرجل

الشريف — أى الذى لا يكاد ينقل العدوى لأحد — هو ذلك الذى يئذل ما فى جمده لكى لا يقع فى السهو . والمرء يحتاج لكثير من الإرادة والتوتر حتى لا يصاب بالسهو ، نعم يا ربو ، إنه أمر شاق أن يصاب المرء بالطاعون ، ولكن أشق منه أن يرفض المرء الإصابة به . ولذلك ترى المشقة الآن بادية على الجميع ؛ لأن الجميع فى يومنا هذا مصابون به إن قليلا وإن كثيرا . وهذا هو السبب فى أن بعض الناس الذين يرغبون فى السكف عن أن يكونوا مصابين به يقاسون أقصى درجات المشقة التى لم يعد يستطيع لإخراجهم منها غير الموت .

« وإنى لأعلم — فى إنتظار هذه اللحظة — بأنى لم أعد أساوى شيئا بالنسبة لهذا العالم نفسه ، وإنى قد حكمت على نفسى بالمنفى المؤبد ابتداء من اللحظة التى عدلت فيها عن القتل ، وأن الآخرين هم الذين سيصنعون التاريخ . وليس فى وسعى أن أحكم — فيما يبدو — على هؤلاء الآخرين ، فهناك صفة تنقصنى لكى أكون قاتلا عاقلا . إن موقفى إذن ليس فيه شيء من التفوق ؛ ولكنى الآن راض بأن أكون أنا ، فقد تعلت التواضع ، وكل ما أقوله هو أنه توجد على هذه الأرض أوبئة وضحايا وأنه ينبغى لنا أن نرفض — ما استطعنا إلى ذلك سبيلا — أن نكون فى صف الوباء . وهذا قد يبدو لك أمراً بسيطاً ، ولكنى أدرى أنه حتى . ولقد سمعت الكثير من الحجج التى كادت تخدعنى ، والتى أفلحت فى خداع عدد كاف من الرءوس الأخرى ، وجعلتها تقبل القتل ، وعرفت الآن كل ما يصيب الناس من شقاء سببه أنهم لا يتكلمون كلاما واضحا ، ولذلك قررت أن أتكلم وأنصرف بوضوح ؛ لكى أبلغ طريق الجادة

ومن ثم أقول: إنه توجد أوبئة وضحايا ، ولا شيء غير ذلك. فإذا كنت أقول ذلك، ثم أصبحت — أنا نفسي — وباء، فلا أقل من أن يكون هذا على غير قبول مني ؛ ذلك أنى أحاول أن أكون قاتلا بريئا ، ومن هنا ترى أنى لست بالكثير الطموح .

دعنا لا جدال فيه أنه ينبغي أن تكون هناك طائفة ثالثة ، طائفة الأطباء الحقيقيين ، ولكن الواقع أنهم قليلو العدد، فلا بد أن يكون ذلك أمرا فسيرا . ولذلك قررت أن أنضم إلى جانب الضحايا في كل مناسبة حتى أقلل من الحسائر ، إذ أنى بين هذه الضحايا أستطيع — على الأقل — أن أبحث عن طريق للوصول إلى الطائفة الثالثة ، أى إلى السلام .

وكان تارو — وهو يختتم كلامه — يطرح ساقه. ويضرب الأرض بقدمه ضربا خفيفا . وبعد فترة صمت نهض الطيب قليلا ، وسأل تارو عما إذا كانت لديه فكرة عن الطريق الذى ينبغي اتباعه للوصول إلى السلام ، فأجاب قائلا :

— نعم إنه التعاطف .

ورن من بعيد جرس عربتين من عربات الإسعاف ، وبالقرب من التل الحجرى فى أقصى المدينة كانت قد تجمعت الصيحات التى كانت منذ برهة غير واضحة ، وفى الوقت نفسه سمع شيء ما يشبه الفرقة ، ثم عاد الصمت يخيم من جديد عليهما . ولاحظ ريو تتابع ومضتين من ومضات الفئار ، وبدت النسائم وكأنها قد اشتدت . وكان مصداق ذلك أن هبت فى نفس اللحظة نسمة من البحر تحمل معها رائحة الملح ، وصار الرجال

يسمعان الآن بوضوح صوت تكسر الموج على الشاطئ الضحل ، وقال
تارو ببساطة :

— ومهما يكن من شيء ، فإن الذى يهمنى هو معرفة الطريقة التى
تجعل من الإنسان قديساً .

— ولكنك لا تؤمن بالله .

— بالضبط ، فإن المشكلة المشخصة الوحيدة التى تواجهنى اليوم ،
هى معرفة ما إذا كان من الممكن أن يكون هناك قديس دون إله . ولجأة
انبثق نور كبير من الناحية التى صدرت منها الصرخات ، وقرعت آلهاتهما
هتافات غامضة جاءت إليهما مع تيار الريح ، ثم أظلم النور فوراً ، ولم
يبقى من أثره سوى بعض الاحمرار فوق حافات الأسطح البعيدة .
وتوقفت الرياح قليلاً ، فتمكننا من سماع صرخات بشرية واضحة تلاها
صوت طلقات داوية ، ثم هتافات جمهرة من الناس ، ونهض تارو وأخذ
يرهف أذنيه للإصصات . ثم لم يعودا يسمعان شيئاً . وقال تارو :

— لقد وقع أيضاً بعض القتال عند أبواب المدينة .

وأجاب ريو :

— لقد انتهى الآن .

وتتم تارو قائلاً : إن الأمر لم ينته فى يوم من الأيام ، وإنه ستقع
ضحايا جدد ؛ لأن هذه طبيعة الأشياء .

وأجاب الطبيب :

— ربما ، ولكنك تعرف أننى أشعر فى نفسى بأننى أقدر على

التضامن مع المزمومين منى مع القديسين ، فإني على — ما أعتقد — أميل
إلى البطولة والقداسة . كل ما يهمنى أن أكون إنسانا . ورد تارو
بقوله :

— نعم ، فسكلانا يبحث عن نفس الشيء ، ولستنى أقل منك
طموحاً .

وظن ريو أن تارو كان يمزح ، ولستنه نظر إليه ، فرأى تحت ذلك
الضوء الخافت الذى كانت تبعث به السماء وجهها حزينا صارما ، وهبت
الريح من جديد ، وشعر بها ريو دافئة على بشرته ، وانتفض تارو ، وهو
يقول :

— أتخرف ماذا ينبغى لنا فعله لنبارك صداقتنا ؟

وقال ريو :

— كما تريد .

— أخذ حمام بحر . إن تلك متعة تستحق العناء حتى ، بالنسبة لمن
سيصبح قديسا .

وابتسم ريو ، وقال :

— إن تصرجات المرور التى نحملها نخول لنا الذهاب إلى الشاطئ ،
ومن الحق ألا نعيش إلا فى الطاعون ، فن الطبيعى أنه يجب على
المرء أن يقاتل من أجل الضحايا ، ولكنه إذا ما كف عن حب أى شيء
آخر خارج ذلك النطاق ، فما جدوى القتال ؟

وأجاب ريو :

— نعم ، لنذهب !

وما هي إلا لحظة حتى كانت السيارة تتوقف قرب أسوار الميناء . .
وكان القمر قد ارتفع وأخذت السماء الصافية تليق بالظلال الشاحبة على
كل مكان، ومن خلفهما كانت تتدرج المدينة . وكانت تهب منها عليهما ريح
ساخنة مريضة فتدفعهما إلى البحر دفعا ، وأبرزتا أوراقيهما لأحد الحراس
الذى ظل يفحصهما مدة طويلة فسنيا . ومرا وسط راحة التنيذ والسلك
عبر كومة مغطاة بالبراميل، واتجهتا في طريق الشاطئ . ، وقبل أن يصلتا
إليه بقليل كانت راحة اليود والأعشاب البحرية تعلن إليهما أنهما قد
اقتربا منه، وما لبثتا أن سمعا خرير مياهه .

كان البحر يرسل صفيرا هادئا عند أقدام كمتل الحاجز الضخمة، وكان
يبدو لهما — وهما ينحدران نحوه — سميك القوام كالخمل مرنا ناعما كجسم
الدابة ، واستقر بهما المقام فوق الصخور المتجهة نحو عرض البحر، وكانت
المياه تعلو ثم تعود فتتهبط ببطء . وكان البحر يتنفس بهدوء ، فينشأ عن
ذلك ضوء زيتي على صفحة الماء ثم يعود فيختفي . وكان الليل أمامهما
لا حدود له . وراح ريويتمحس بأطراف أصابعه يحيا الصخور المتآكلة ،
ووجهه يطفح بالسعادة ، والتفت ناحية تارو ، فتبين في وجه صديقه الهادي .
الصارم نفس السعادة التي لا تنسى شيئا ، حتى ولا القتل . وخلعا ملابسهما،
وكان ريو أول من ألقي بنفسه في الماء الذي بدا باردا ولكنه كان يبدو
لهما دافئا وهما يغادرانه ، وعرف ريو بعد بضع ضربات من ذراعيه
أن البحر هذا المساء دافئ دفء بحار الخريف التي تمتص من الأرض
الحرارة التي اختزنتها خلال شهور طويلة . كان يسبح سباحة منتظمة ،
وكانت ضربات قدميه تترك خلفها زبدا ينفور، وكان الماء ينزلق على

امتداد ذراعيه لكي يلتصق بساقيه . ثم ما لبث أن وصل إلى سمعه صوت شيء ثقيل يسقط في الماء . عرف منه أن تارو قد ألقي بنفسه إلى البحر . واستلقى ريو على ظهره ، وظل ساكناً ووجهه نحو السماء المعكوسة أمام ناظره ، وقد غصت بالقمر والنجوم ثم أخذ نفساً عميقاً ، وبعد ذلك أخذ يسمع ضوضاء خبيلات على الماء تزداد شيئاً فشيئاً ، وتميز بوضوح وسط سكون الليل ووحشته ، ذلك أن تارو كان يقترب منه ، وبعد قليل وصل إلى سمعه صوت أنفاسه ، والتفت ريو إليه في غير وضعه حتى صار في مستوى صديقه ، وأخذ يسبح في تناسق معه ، وكان تارو يتقدم بقوة تفوق قوته ، فاضطر إلى أن يسرع الخطأ ، وما هي إلا دقائق حتى كانا يسبحان — بنفس الوتيرة ونفس القوة — وحدهما بعيدين عن العالم ، وقد تحررا أخيراً من المدينة ومن الطاعون ، وكان ريو أول من توقف ، وعادا أذراجهما ببطء لم يقطعاها إلا عندما دخلا منطقة تيار شديد البرودة . فحينئذ حدثا سيرهما — هما الاثنان — دون أن ينبسا بكلمة ، وقد ألهبتهما سياط تلك المفاجأة البحرية .

وارتديا ملابسهما من جديد ، وسارا دون أن يتفوها بكلمة ، ولكن كانا متحدى القلبين وكانت ذكرى هذه الليلة في نفسيهما كلها حلاوة . ولما لاحت لهما دورية الحراسة الخاصة بالوباء على بعد كان ريو يعرف أن تارو يقول في نفسه نفس ما يقوله هو ، من أن المرض كان قد نسيهما هذه اللحظة ، وأن ذلك لم يكن إلا هين الخير ، وأن عليهما الآن أن يبدأ من جديد .

نعم ، ينبغي أن يبدأ من جديد ، فالطاعون لا يئسى أحداً لمدة طويلة ، وفي خلال شهر ديسمبر احتدمت نار الطاعون في صدور مواطنينا ، وأشعل أتونه ، وملأ المعسكرات بظلال خاوية الأيدي ، ولم يكف عن التقدم بمشيته الرنيبة وصبره الطويل ، وكانت السلطات تعتمد على الأيام الباردة لإيقاف هذا التقدم ، ومع ذلك فقد سار الطاعون خلال الأيام الأولى لموسم البرد الفارس دون ملل أو كلال ؛ فكان علينا إذن أن نواصل الانتظار ، ولكن طول الانتظار يولد عدم الانتظار ، وهكذا كانت مدينتنا بأجمعها تعيش بلا مستقبل .

أما لحظة السلام والصداقة الخاطفة التي قال بها الطبيب ، فقد كانت بلا غد . لقد افتتح مستشفى جديد ، ولم يعد ريو يخلو إلا إلى المرضى ، ومع ذلك ، فقد لاحظ في هذه المرحلة من مراحل الوباء ، حيث كان الطاعون يتحول إلى الشكل الرئوى يوماً بعد يوم بدا المرضى وقد أخذوا يعاونون الطبيب بصورة ما . فبدلاً من أن يستسلموا إلى ضروب التخبط والحماقة التي عرفت عنهم في البداية ، ظهروا بمظهر من يفهمون مصالحتهم حق فهمها ، فقد راحوا هم أنفسهم يطلبون أن تطبق عليهم الإجراءات التي يمكن أن تعود عليهم بالفائدة . كانوا يطلبون شرب الماء دون انقطاع ،

كما كانوا جميعاً يطلبون النصف ، وبالرغم من أن الطبيب قد ظل مرهقا
مكدودا فقد كان يشعر بأنه أصبح في هذه الظروف أقل وحدة من
ذى قبل .

ونحو نهاية شهر ديسمبر تسلم ريو من أوتون قاضى التحقيق الذى
ما برح يعيش في المعسكر خطا بآيتول : إن مدته في الحجر قد انقضت ، ولكن
إدارة المعسكر قد فقدت تاريخ دخوله ، ولذا فن المؤكد أنهم لا يزالون
يستبقونه خطأ في معسكر الحجر . وقد قدمت زوجته التى خرجت منذ حين
اعتراضا إلى المديرية ، ولكنها استقبلت استقبالا جافاً ، وقيل لها : إنه
لا يمكن أن يقع خطأ ألبتة ، وطلب ريو من رامبير التدخل في هذه المسألة .
وما هى إلا بضعة أيام حتى رأى السيد أوتون قادماً نحوه ؛ فقد كان
هناك في الواقع خطأ ، وقد اغتاظ ريو لذلك بعض الشيء ، ولكن
السيد أوتون الذى كان قد ازداد نحولا عن ذى قبل رفع إليه يدا رخوة
وقال - وهو يلوك كلماته - : إن كل إنسان معرض للوقوع في الخطأ ، ولاح
للطبيب أن هناك شيئا فيه كان قد تغير ، وقال :

— ماذا تنوى أن تفعل ياسيدى القاضى ؟ إن ملفاتك في انتظارك .

وأجاب القاضى :

— لا ، لا . إنى أريد أن أطلب أجازة .

— الواقع أنك في حاجة إلى الراحة .

— ليس هذا هو السبب ، ولكننى أرغب في العودة إلى المعسكر .

ودهش ريو لهذا الأمر وقال :

— ولكنتك خارج منه الآن .

— لعلى لم أحسن التعبير عما أريد . لقد قيل لى : إن هناك متطوعين من الإدارة فى هذا المعسكر .

وأخذ القاضى يدير عينيه المستديرتين ، وهو يحاول أن يسوى إحدى خصل شعره ، ثم واصل كلامه قائلاً :

— على هذا النحو سأجد لى عملاً يشغلنى كما ترى ، ثم بذلك — وقد عيبدورك هذا سخيفاً — سوف أشعر أنى أقل بعداً عن ولدى الصغير . وجعل ريو ينظر إليه . لم يكن من الممكن أن تحمل الرقعة لجأة فى هاتين العينين القاسيتين ، ولكنهما كانتا قد أظلمتا بعض الشيء ، وفقدتا صفاءهما المعتادى .

وقال ريو :

— بكل تأكيد ، سوف أهتم بهذا الأمر ما دمت ترغب فيه .

ولقد أهتم الطبيب بذلك فعلاً ، واستمرت الحياة فى مدينة الطاعون كما هى حتى عيد الميلاد ، وظل نارو يلف فى كل مكان يصحبه هديره الواقعى . وذات يوم أسر رامبير إلى الطبيب أنه استطاع أن يجد طريقة للرسالة مع زوجته عن طريق الحارسين الصغيرين . وأنه أصبح يتلقى منها الرسائل على فترات بعيدة ، ثم عرض على ريو أن يستفيد هو الآخر من هذه الطريقة ، وقبل ريو ذلك . وللرة الأولى منذ أشهر طويلة كتب ريو ، ولكن بصعوبة لا حد لها ، فقد كانت لديه لغة ثم فقدوها ، وسافر الخطاب ، وتأخر وصول الرد . أما كوتار ، فقد استمرت أحواله فى ازدهار

وصار غنياً بفضل مضارباته الصغيرة ، وأما جران فإنه لم يكن سعيد الطالع خلال فترة الأعياد .

كان عيد الميلاد في تلك السنة عيد الجحيم أكثر منه عيد الإنجيل ؛ فقد كانت الدكاكين خاوية ومحرومة من الأنوار ، والشوكولاته ، إما زائفة وإما علبة فارغة من محتوياتها وضعت في الواجهات الزجاجية . أما عربات الترام ، فقد كانت تغص بالوجوه المظلمة ، ولم يكن هناك شيء يذكرنا بأعياد الميلاد السابقة ؛ ففي هذا العيد الذي كان يتقارب فيه الجميع — من غنى وفقير فيما سلف — لم يعد هناك مكان إلا لبعض المتع الفرديّة المشينة التي كان المحظوظون يحصلون عليها بسعر الذهب في القسم الخلفي من دكان قذر . كانت الكنائس مليئة بالآلات لا بصلوات الشكر . أما شوارع المدينة القائمة الباردة فكان يجرى فيها بعض الأطفال وهم في جمل مما يهددهم ، ولكن لم يكن أحد ليجرؤ على أن يعلن لإيهم قدوم رب السنين السالفة المحمل بالهدايا ، والذي هو قديم قدم الآلام البشرية ، ولكنه جديد جدة الأمل الشاب . لم يعد هناك مكان في قلوب الناس إلا لأمل شيخ متوغل في الشيخوخة مفرط في الوجوم ، وهو ذلك الأمل الذي كان يمنع الناس من أن يلقوا بأنفسهم إلى الموت ، والذي لم يكن سوى مجرد تصميم على الحياة .

وفي ليلة العيد لم يحضر جران في الموعد المحدد ، وقلق ريو من أجله فمر بمنزله في الصباح المبكر ولم يجده ، وعم القلق الجميع ، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة حضر رامبير إلى المستشفى ليخبر ريو بأنه شاهد جران من بعيد يطوف في الشوارع ، وقد تغيرت ملامح وجهه ، ثم ما لبث

أن حاد عن بصره ، واستقل الطبيب السيارة وبرفته تارو ، وزهبا معاً للبحث عنه .

وفي ساعة الظهيرة القارسة البرد نزل ريو من سيارته ليرى جران من بعيد وهو يكاد يلتصق بإحدى الواجهات الزجاجية المليئة باللعب المحفورة في الخشب حفراً رديئاً . كانت الدموع تسيل على وجه ذلك الموظف المعجوزدون توقف . واضطرب ريو لرؤية هذه الدموع؛ لأنه كان يفهمها ويحسها في تجويف حلقه ، وعاد بهذا كرتة هو الآخر إلى يوم خطبة هذا التمس ، عاد بهذا كرتة أمام أحد الحوانيت في يوم من أيام عيد الميلاد ، وإلى چان وقد ارتمت عليه لتقول له : إنها سعيدة . فمن أغوار السنوات البعيدة حيث صميم تلك المغامرة كان صوبت چان النضر قد عاد إلى جران ، وهذا مما لاشك فيه . نعم لقد كان ريو يعرف ما يحول بخاطر ذلك الرجل الهرم الباكي ، وكان مثله يفكر في أن هذا العالم الخالي من الحب أشبه شيء بعالم ميت ، وأنه لا بد من أن تمر بنا ساعة نمل فيها السجن والعمل والشجاعة ، ونسترجع فيها وجهاً حبيباً إلينا . قلباً مبهوراً يفيض بالحنان .

ولكن جران لمح في المرأة ، فاستدار إليه دون أن يكف عن الانشيج وأسند ظهره على الزجاج لينظر إليه وهو يتقدم نحوه ، وأخذ يردد :

— آه يا دكتور ! آه يا دكتور !

وراح ريو يز رأسه موافقاً ؛ لأنه يحزن عن الكلام .

ذلك أن هذا الحزن كان حزنه هو أيضاً ، وذلك الذى كان يعصر
قابه فى تلك اللحظة لم يكن إلا الغضب الهائل الذى يحتاج الإنسان أيام
الآلم الذى يتقاسمه الناس جميعاً ، وأخيراً قال له :

— نعم يا جران . وواصل جران كلامه قائلاً :

— أتمنى أن أجد الوقت الذى أستطيع فيه أن أكتب لها خطاباً
لكى تعرف .. حتى تستطيع أن تكون سعيدة دون أن يعذبها تأنيب
الضمير .

وبنوع من العنف أخذ ريو يدفع جران أمامه ، واستجاب جران
لدفعه ، وترك له تقريباً زمام أمره ، وهو يتمتم بأطراف جمل ، ويقول :

— منذ مدة طويلة جداً وأنا أعانى هذا الآلم . بودى أن أستسلم ،
لأبد من ذلك . آه يا دكتور ابيدو على الاطمئنان على النحو الذى تراه ،
ولكننى كنت أبذل أقصى مجهود لمجرد أن أبدا طبيعياً . أما الآن ، فقد
بلغ السيل الزبى .

ثم توقف ، وقد ارتفعت جميع جوارحه ، وزاغت عيناه .

وأمسك ريو بيده . لقد كانت ملتجة . ثم قال :

— ينبغي أن نعود إلى البيت .

ولكن جران أفلت منه وعدا بضع خطوات ، ثم توقف وأخذ يترنح
إلى الأمام وإلى الخلف ، ويدور حول نفسه ، ثم سقط على الإفريز ، وقد صار
جسمه فى برودة الثلج ، واتسخ وجهه بتأثير الدموع التى استمر انهمارها .
وكان المارة يراغبون المشهد من بعيد ، وقد توقفوا فجأة دون أن يجرؤ

أحدهم على الإقتراب . واضطر ريو إلى أن يأخذ الرجل الهرم بين ذراعيه .

وأصبح جران هو الآخر طريق الفراش يكاد يختنق فيه : لقد التقطت رثما العدوى . واستغرق ريو في التفكير ، وراح يقول في نفسه : إن هذا الموظف لا عائلة له ، فما فائدة نقله ؟ سوف أقوم بعلاجه هنا أنا وتارو .

وكان جران يرى غائصاً في تجويف وسادته وقد اخضر لون بشرته ، وانطفأ بريق عينيه ، وأخذ يحدق النظر في النار الصغيرة التي أشعلها تارو في المدفأة ببقايا أحد الصناديق القديمة ، وقال : إن الحالة سيئة .

وكان ينبعث من أعماق رثمه الملتصبتين نوع غريب من الأزيز يرافقه كل ما يقول ، ونصح ريو بأن يلوذ بالصمت ، ثم هم بالخروج قائلاً : إنه سوف يعود . ولاحظت ابتسامة غريبة على وجه المريض ، ووجه بنوع من الخنان ، وافترت شفاهه بعد مجهود كبير ، ثم غمز بعينه ، وقال : دلو خرجت من ذلك سالماً لكان عايناً أن نرفع قبعاتنا احتراماً يا دكتور ، ولكنه لم يكده يقول ذلك حتى خارت قواه .

وبعد بضع ساعات أقبل ريو وتارو ، فألقيا المريض جالساً نصف جلسة في سريته . وارتاع ريو لما قرأ على وجهه من تقدم المرض الذي كان يحرقه حرقاً ، ومع ذلك فقد كان يبدو أكثر صفاء من ذي قبل ، ولم يكده بلحهما حتى نطق بصوت فيه عمق غريب يرجوهما أن يحضرا له المخطوط الذي كان قد وضعه في أحد الأدراج ، وناولوه تارو الأوراق فضمها

إليه دون أن ينظر إليها، ثم أعادها إلى الطبيب وهو يدعو به بحركة منه إلى قراءتها . كان مخطوطاً صغيراً في نحو خمسين صفحة ، وتصفح الطبيب هذه الأوراق ، فوجد أنها لا تتطوى إلا على جملة واحدة ، قد أعيدت كتابتها مرات لا حصر لها ، كانت تعدل ، وتارة يزداد عليها ، وتارة أخرى يحذف منها . وباستمرار كانت الفارسة وممرات الغابة قتلافيان بأسااليب مختلفة ؛ وكانف المخطوطة تحوى — فضلاً عن ذلك — بعض الشروح التي كان بعضها يطول طويلاً غير مناسب ، وكذلك بعض الفقرات المعادة كتابتها بصور مختلفة ، وقد كتب جران في نهاية الصفحة الأخيرة بخط معتنى به وبمحرر حديث هذه الجملة : د عزيزقى چان ، إن اليوم يوم عيد الميلاد ، . وفوق ذلك سطر بخط جميل آخر نسخة من جملة .

وقال جران د إفرأ ، وقرأ ريو :

د فى يوم جميل من أيام مايو كانت فارسة جميلة تمتطى صهوة جواد أشهب رائع ، وتجوب ممرات الغابة وسط الزهور ، . وقال المعجوز بصوت تصارعه الحى :

— هل هو هذا ؟

ولم يرفع ريو عينيه نحوه .

وقال جران وقد بلغ به الاضطراب كل مبلغ : د إنى أعرف جيداً أن د جميلة ، ليست هى الكلمة المناسبة .

وأمسك ريو بيده من فوق الغطاء ، فقال :

— انركنى يا دكتور ، لم يعد أمامى وقت كاف . .

وأخذ صدره يعلو بصعوبة ونجاة صرخ قائلاً :
— أحرقة .

وتردد الطبيب ، ولكن جران كرر أمره بلهجة صارمة وبصوت ينم
عن ألم هائل . فاضطر ريو إلى أن يلتقي بالأوراق في النار التي كانت في
سبيل الخرد وبسرعة عاد الضوء إلى الغرفة ، وانتشرت فيها حرارة عابرة . ولما
عاد الطبيب إلى المريض كان هذا الأخير يدير له ظهره ووجهه يكاد يلامس
الجدار . وأخذ تارو ينظر من النافذة ، كما لو كان المشهد لا يهمه . وبعد
أن حققه ريو بالمصل قال لصديقه : إن هذه الليلة إن تنتهى على جران
وهو حي ، فمعرض تارو أن يظل بجواره ، ووافق الطبيب على ذلك .

وظلت فكرة موت جران تلاحقه طوال الليل . ولكن لم يك
صباح اليوم التالي يبرز حتى رأى ريو جران جالساً في فراشه يتحدث
إلى تارو ؛ لقد انتعشت الحى ، ولم يبق عليه من علامت المرض إلا الإجهاد
العالم .

فقال له الموظف المحرم :

— آه يا دكتور ، لقد أخطأت ، ولكننى سأبدأ من جديد .
إنى ما زلت أذكر كل شيء ، وسوف ترى ذلك .

وقال ريو لتارو :

— أنتظر .

ولكن الظهر أقبل ولم يتغير شيء . . وفي المساء كان من الممكن
اعتبار جران قد جاوز نطاق الخطر . ولم يستطع ريو تحليل هذا البحث .

وفي هذه الفترة ذاتها — تقريباً — أحضرت إلى ريو مريضه رأى أن حالتها تدعو إلى اليأس ، ولذا أمر بعزلها فور وصولها المستشفى . كانت الفتاة تهذى في غيبوبتها ، وقد ظهرت عليها كل أعراض الطاعون الرئوى . ولكن في صباح اليوم التالى كانت الحى قد انخفضت ، وظن الدكتور أن هذه هى فترة الانتعاش الصباحى ، كما حدث فى حالة جران ، وكانت التجارب قد علمته أن هذا الانتعاش يعتبر نذيراً سيئاً ، ومع ذلك فى وقت الظهيرة لم تعد الحرارة إلى الارتفاع من جديد ، وفى المساء لم يزد سوى بضعة خطوط قليلة فقط ، وفى صباح اليوم التالى كانت قد اختفت . وراحت الفتاة ، رغم الضعف البادى عليها تتنفس براحة فى سريرها . وقال ريو لتارو : إنها نجت خلافاً لكل القواعد ، ومع ذلك فى خلال هذا الأسبوع وردت أربع حالات مماثلة إلى المستشفى التى يعمل بها — الدكتور ريو .

وفي نهاية الأسبوع نفسه استقبل الرجل الهرم المريض بالرئوى الطيب ونارو بكل مظاهر الاضطراب الشديد ، وهو يقول :

— لقد انتهى الأمر ، إنها ما زالت تخرج .

— من ؟

— ومن تكون غير الفئران !

ومنذ بدأ شهر أبريل لم يكتشف أحد وجود فأر نافع .

وقال تارو لريو :

— هل معنى هذا أننا سنبدأ من جديد ؟

وأخذ الرجل الهرم يفرك يديه وهو يقول :
— ينبغي أن تراها تجرى ! إنه منظر سار .

لقد رأى فأرين حين يدخلان عنده من باب المنزل ، وأخبره بعض جيرانه أن هذه الحيوانات قد عادت للظهور في منازلهم ، وفي بعض محازن الأخشاب بدأ الناس يسمعون حركتها بعد أن كانوا قد نسوها منذ أشهر ، وابتدأوا إعلان الإحصاء العام الذي يتم في بداية كل أسبوع ، وقد كشف هذا الإحصاء عن تراجع المرض .

وبالرغم من أن مواطنينا لم يكونوا يأملون في هذا التراجع المفاجيء للمرض ، فإنهم لم يندفعوا إلى الابتهاج ؛ ذلك أن الأشهر المنصرمة ، وإن كانت قد قوت فيهم الرغبة في التحرر ، فإنها علمتهم الحذر ، وعودتهم على مر الأيام ألا يعولوا كثيراً على نهاية قريبة للوباء ، ومع ذلك فإن هذا الحدث الجديد كان حديث الناس جميعاً ، وقد تولد في أعماق القلوب أمل كبير راح ينبض فيها دون أن يعلن عنه أحد .

أما ماعدا ذلك من أمور ، فقد تراجع إلى الدرجة الثانية من الأهمية . وأما ضحايا الوباء الجدد ، فقد قلت قيمتهم أمام هذا الحدث البالغ ؛ لقد هبطت الإحصائيات . وكان من بين العلامات الدالة على توقع الناس عودة عهد الصحة — وإن لم يعاقوا على ذلك آمالاً صريحة — أن مواطنينا كانوا قد أخذوا منذ تلك اللحظة يتحدثون بحرية ، يشوبها مع ذلك شيء من عدم الاكتراث ، عن الطريقة التي سوف يعاد بها تنظيم الحياة بعد الطاعون .

كان الجميع متفقون على أن متع الحياة القديمة إن تعود كلها طفرة واحدة ؛ لأن الهدم أسهل من البناء . كانوا يرون أنه من الممكن أن يتحسن التكوين ذاته ، وكان من شأن هذا التحسن أن يخلصهم من أكثر مشاغلهم إلحاحاً ، ولكن الواقع أنه كان وراء هذه الملاحظات المسكنة

أمل جامع انطلق من عقاله فجأة، حتى أن مواطنينا كانوا في بعض الأحيان يتنهمون من ذات أنفسهم إلى هذا الغلو ، فيسارعون إلى التأكيد بأنه مهما كانت الحال ، فإن الخلاص لن يكون في اليوم التالي .

وفي الواقع لم يتوقف الطاعون في اليوم التالي، ولكن كان من الواضح أنه يضعف بأسرع مما كانوا يأملون . وقد طغى البرد في الأيام الأولى من يناير بشكل ملح لم يتعوده الناس من قبل ، كما لو كان قد تبلور في سماء المدينة ، ومع ذلك لم يحدث قط أن كانت السماء أكثر زرقة مما كانت في هذه الأيام . كان جمالها الثلجي الجامد يفرق مدينتنا أياماً بطولها في ضوء لا ينقطع ، وفي هذا الجو النقي المصفي ، استمر الطاعون ثلاثة أسابيع، يلاقى الكبوة بعد الكبوة، وكان كما أنه ينفذ قواه في صفوف الجثث التي كان يرصها، والتي أخذ عددها في التناقص شيئاً فشيئاً . وفي مدة وجيزة فقد الجانب الأكبر من قواه التي كان قد ظل يعيها شهوراً طويلة وكان يرى الضحايا تنفقت من قبضته مثل جران ومريضة ريو ، أو وهو يستشري لمدة يومين أو ثلاثة في بعض الأحياء ، في حين يختفي اختفاء تاماً من أحياء أخرى ، أو وهو يضعف عدد ضحاياه يوم الاثنين ثم يراها تنفقت منه جميعاً تقريباً يوم الأربعاء . كان الناس يرونه على هذا النحو لاهثاً أو مندفعاً، فلا يسعهم الاقتناع بأن الوباء يتفكك لتوتر أعصابه، أو لإنهاك قواه ، وأنه إذا بدأ يفقد سيطرته على نفسه راح في نفس الوقت يفقد نظامه الرياضي الناجح الذي كان السبب في قوته .

ولاقى مصـل كما ستل — فجأة — سلسلة من النجاح كان الوباء قد ضن بها

عليه حتى الآن ، وبدأ أن كل إجراء من تلك الإجراءات التي كانت من قبل لا تؤدي إلى نتيجة قد صار الآن يصيب هدفه بكل دقة . كان واضحاً أن الطاعون قد أصبح بدوره مطارداً ، وأن ضعفه المنفاجيء كان السبب في قوة الأسلحة المغلولة التي كانت توجه إليه حتى الآن ، ولكنه كان من حين لآخر يستعيد شيئاً من قوته فيمودي — فيما يشبه القفزات العشواء — بثلاثة أو بأربعة من المرضى الذين كان شفاؤهم مأمولاً . كان هؤلاء هم التمساء الذين قتلهم الطاعون والأمل يحيط بهم ، وكان من هؤلاء القاضي أوتون الذي اضطر القوم إلى إخراجه من معسكر الحجر الصحي ، وقد قال عنه تارو : إنه في الواقع كان سيء الحظ ، ولا ندري ما إذا كان يعني بذلك موت القاضي أم حياته .

ومها يكن من شيء ، فقد أخذت العدوى تتراجع على طول الخط ، أما بلاغات الإدارة التي كانت تشير في أول الأمر أملاً خفياً يتعثر خجلاً ، فقد انتهت بأن أكدت في ذهن الجماهير الاعتقاد بأن النصر قد أصبح مضموناً ، وأن المرض أخذ يخلي مراكزه ، ولقد كان الأمر يتعلق باتتصار حقيق . وعلى أية حال كان الناس مضطرين إلى الاقتصار على القول بأن المرض يبدو كما لو كان قد رحل إلى حيث أتى ، ولم تكن خطة المتابعة التي رسمت له منذ البداية قد تغيرت ، ولكنها أصبحت الآن ناجحة بعد أن كانت بالأمس غير ذات جدوى ، كان يخيل إلى الناس أن المرض قد خارت قواه من تلقاء نفسه ، أو أنه أخذ يتراجع بعد أن حقق كل أهدافه ، إن مهمته كانت قد انتهت بشكل ما .

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يظن بأنه لم يتغير شيء في المدينة .

فقد ظلت ساكنة بالنهار ، أما في المساء ، فكانت الشوارع تقص بالجموع ذاتها التي تسود فيها المعاطف والتلافيح ، وأما دور السينما والمقاهي ، فقد ظلت على حالها . هكذا كنا كلما نظرنا إلى الأمور من قرب أمكننا أن نلاحظ أن الوجوه قد زال عنها الانقباض بعض الشيء . وأنها تبتسم أحيانا ، وبهذه المناسبة كان الناس يلاحظون أنه لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يبتسم في الطرقات ؛ فلقد حدث في الواقع بعض التمزق في الحجاب السكيف الذي كان يحيط بالمدينة منذ أشهر ، وأصبح كل منا يستطيع في أيام أن يلاحظ من أخبار الراديو أن التمزق يزداد اتساعاً ، وأن الناس سوف يتمكنون أخيراً من التنفس . نعم لقد كان كل ذلك فرحاً سلبياً لم يأخذ بعد شكله الصريح ، ولكن إذا كان الناس من قبل يسمعون بأن قطاراً قد غادر المدينة ، أو أن سفينة قد وصلت ، أو أن السيارات سوف يسمح لها من جديد بالمسير ، ارتابوا في صدق الخبر ، فإن إعلان مثل هذه الأنباء حوالى منتصف شهر يناير لم يكن على النقيض من ذلك ليحدث أية دهشة . لا شك أن هذا التغير ليس بالكثير ، ولكنه مهما كان طفيفاً في صورته العامة كان يدل دلالة واضحة على التقدم الضخم الذي أحرزه مواطنونا في طريق الأمل ؛ ذلك أنه ابتداء من هذه اللحظة أصبح أضعف الآمال محتمل التحقق بالنسبة للسكان ، ومن ثم يمكننا القول بأن العهد المعلى للطاعون كان قد انتهى .

ومع ذلك ، فقد ظل رد فعل مواطنينا طيلة شهر يناير متناقضاً ، فكانوا يتنقلون بين حالتى الانتقاض والانقياس . ولذلك كنا نرى حدوث محاولات جديدة للحرب في الوقت الذي كانت فيه الإحصاءات قد وصلت إلى أحسن

صورها ، وكان هذا بما يدهش السلطات ومراكز الحراسة ذاتها ؛ إذ أن أغلب حالات الحرب كانت قد نجحت . واسكن الحقيقة أن أولئك الذين كانوا يهربون في هذه الأوقات كانوا ينزلون على حكم إحساسى طبيعى ؛ فإن الطاعون قد زرع في نفوس البعض شكاً عميقاً لم يستطيعوا منه خلاصاً ، ولم يعد الأمل أى سلطان على نفوسهم . وفي الوقت الذى انصرم فيه زمن الطاعون ظل هؤلاء يعيشون نفس الحياة التى كان قد عودهم عليها الطاعون . لقد كانوا متأخرين في متابعة مجرى الأحداث ، وعلى العكس من ذلك كانت الحال لدى البعض الآخر ، وجلهم كانوا من أولئك الذين عاشوا حتى الآن بعيدين عن الأشخاص الذين يحبونهم ، فإن ربح الأمل الذى هبت عليهم بعد هذا الوقت الطويل من الحبس والانقياد قد أشعلت فيهم من الحمى وعدم الصبر ما انتزع منهم كل سيطرة على أنفسهم . فقد استولى على هؤلاء نوع من الذعر حين فكروا أنهم — وقد أصبحوا قاب قوسين من غايتهم — قد يموتون دون أن يروا أولئك الذين يحبونهم وبذلك تذهب كل الآلام الطويلة التى تحملوها هباء . فبينما هم قد نابروا وصبروا شهوراً طويلة وقاوموا السجن والنفى بنوع من النصحيم الغامض فرى أن أول أمل لاح كان كافياً لتحطيم ما لم يستطع الخرف واليأس تحطيمه ، وهكذا اندفقوا كالمجازين يريدون أن يسبقوا الطاعون بدلا من اتباع خطاه حتى اللحظة الأخيرة .

وأيما ما كان ، فقد ظهرت في نفس الوقت بعض علامات التفاوض المتأجئة . فقد سجل انخفاض محسوس في الأسعار ، وكان هذا حدثاً لا يمكن تفسيره من الناحية الاقتصادية الخالصة ، ذلك أن الصعوبات

كانت قد ظلت كما هي ، واستمرت لإجراءات الحجر الصحي سارية عند الأبواب كما بقيت حالة التمرين بعيدة عن التحسن . لقد كنا نمر إذن بظاهرة معنوية خالصة كما لو كان لتراجع الطاعون صدى يتردد في كل مكان . وفي الوقت ذاته أدرك النفاؤل أولئك الذين كانوا يعيشون من قبل مجتمعين ، ثم قضى عليهم الطاعون بالافتراق . وهكذا بدأ الديران المقامان في المدينة في إعادة تنظيمهما ، واستطاعت الحياة المشتركة أن تعود إلى مجاريها . وهذا ما حدث أيضا بالنسبة للعسكريين حيث تم تجميعهم من جديد في الشكنات التي كانت قد ظلت حتى الآن خاوية ، وهناك استأنفوا من جديد حياة الشكنات العادية . ولقد كان لـهذين الحدثين الصغيرين مغزى كبير .

عاش السكان في هذا الاضطراب الخفي حتى الخامس والعشرين من يناير ، وفي ذلك الأسبوع انخفضت الإحصائيات انخفاضاً شديداً لدرجة أن الإدارة أعلنت بعد استشارة اللجنة العلمية ، أنه يمكن أن يعتبر الوباء شبه منته . نعم ، لقد أضاف البلاغ أنه من باب الحذر الذي لن يعدم السكان أن يوافقوا على مقتضياته ، تقرر البلدية أن أبواب المدينة ستظل مغلقة لمدة أسبوعين آخرين ، وأن الإجراءات الوقائية ستظل سارية المفعول لمدة شهر آخر . وخلال تلك الفترة — وإذا ظهرت في هذه الأثناء أية إشارة تدل على عودة الوباء — فإن حالة الطوارئ ستظل باقية ، وتمتد الإجراءات إلى ما بعد المدة المقررة في البلاغ . ولكن التأسس كانوا كلهم مجمعين على اعتبار هذه الإضافات ضرباً من الروتين البحت . وفي مساء اليوم الخامس والعشرين من يناير كانت شوارع المدينة تمتلئ .

بالهرج الذى مبعثه البهجة ، وأراد المدير أن يشارك الناس فى فرحهم ، فأصدر أمره بإعادة الإضاءة إلى ما كانت عليه أيام الصحة . وهكذا راح مواطنونا يتدبّقون فى جماعات صاخبة ضاحكة فى الشوارع المتلازمة بالأنوار .

ومن المؤكد أنه كانت هناك بيوت كثيرة ظلت نوافذها الخشبية مغلقة ، كما لو كانت هناك أسر قضت فى صمت تلك السهرة التى ملأها آخرون بالضجيج . ومع ذلك فإن الكثيرين من هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى حداد كانوا فى حالة ارتياح عميق ، إما لأن خوفهم من فقد أقارب جدد قد هدأ ، وإما لأنهم هم أنفسهم لم يعودوا فى خطر ، ولكن الأسر التى ظلت أكثر من غيرها بعداً عن البهجة العامة كانت دون شك تلك التى تضم فى هذه اللحظة مريضاً ما زال يناضل الطاعون فى أحد المستشفيات ، أو تنتظر — إما فى بيوت الحجر الصحى ، أو فى منازلها — أن يزول عنها الوباء كما زال عن غيرها . لاشك أن هذه الأسر كانت تشعر بشيء من الأمل ، ولكنها كانت تجعل منه زاداً تحتفظ به لوقت الحاجة ، وتمتنع عن أن تنهل منه قبل أن يصير لها فعلاً هذا الحق ، وكان هذا الانتظار ، هذه السهرة الصامتة فى منتصف المسافة بين الاحتضار والفرح تبدو لهم أشد قسوة وسط الابتهاج العام .

ولكن هذه الحالات الاستثنائية لم تكن لتذهب بشيء من رضا الآخرين ، وأغلب الظن أن الطاعون لم يكن قد انتهى بعد ، وقد قام هو نفسه بتقديم الدلائل على ذلك .

ولكن جميع هذه الأذهان التى تعجّلت الأمر بضعة أسابيع كانت

ترى القطارات تسافر مرسلّة صغيرها في طرق لانهاية لها ، والسفن ترسم خطوط سيرها على سطوح بحار مشرقة ، وفي اليوم التالي كان لابد لهذه الأذهان أن تزداد هدوءاً ، أو أن تقع فريسة للشك من جديد.

ولكن المدينة كانت في الوقت الحاضر في هرج ، فغادرت تلك الأماكن المغلقة المظلمة الجامدة التي أنشبت فيها جذورها الحجرية ، وأخذت تسير حاملة ما تبقى لها من أحياء . وفي هذا المساء أخذ تارو وريو ورامبير والآخرين يسرون وسط الجماهير ، وكانوا يشعرون هم أيضاً بالأرض وكأنها تميد تحت أقدامهم ، وبعد أن غادر تارو وريو الشوارع الكبيرة بمسافة بعيدة ، كانا لا يزالان يسمعان هذه البهجة تلاحقهم في نفس اللحظة التي كانا فيها يمران في شوارع مقفرة تحت نوافذ خشبية مغلقة . ولم يكن في وسعهما — وربما كان ذلك بسبب ما يشعران به من تعب — فصل هذه الآلام التي ما برحت قائمة خلف النوافذ الخشبية المغلقة عن تلك البهجة التي كانت تملأ الشوارع على بعد ليس بالكبير . إن الخلاص المقرب كان ذا وجه تختلط فيه الضحكات بالدموع .

وفي اللحظة التي بلغ فيها الضجيج أقصى مداه وأبهى درجاته توقف تارو ؛ فقد رأى هناك شبحاً يجرى بخفة وسط الشارع المعتم ، وكان شبح قطاة ، أول قطاة ترى منذ الربيع ، وقد توقفت القطاة لحظة وسط الشارع ، وبدأ عليها التردد وراحت تلحق قدمها وملست بها بخفة على أذنها اليمنى ، ثم عادت إلى سيرها الصامت ، واختفت في ظلمة الليل ، وابتسم تارو ، ومن المحتمل أن يكون الهرم القصير قد سر هو الآخر لهذا المنظر.

ولكن في اللحظة التي بدا فيها أن الطاعون يبتعد ليعود أدراجه إلى الجحر المجهول الذي خرج منه في صمت، كان هناك شخص في المدينة يشيع هذا الرحيل بالوجوم . ولم يكن هذا الشخص إلا كوتار كما تقول مفكرة تارو .

والحقيقة أن هذه المفكرة تنسم بالغرابة منذ اللحظة التي بدأت فيها الإحصائيات في الهبوط . فهل يرجع السبب في ذلك إلى التعب ؟ لقد صار خطها لا يقرأ إلا بصعوبة ، وكثيراً ما تقفز من موضوع إلى آخر . هذا إلى أن تلك المفكرة أوضحت لأول مرة بعيدة عن الموضوعية التي استعاضت عنها بالملاحظات الشخصية . وهكذا ترانا إذ نقرأ فقرات طويلة عن حالة كوتار ، نعث في وسطها على تقرير صغير عن الرجل الهرم صديق القطط . ويعترف تارو نفسه بأن الطاعون لم يقلل من اعتباره لهذه الشخصية التي استمرت تهمة بعد الوباء كما كانت تهمة من قبل ، وإن لم يصبح من الممكن — لسوء الحظ — أن يتابع هذا الاهتمام رغم أن استعداد الطيب لمتابعتها لم يكن له دخل في ذلك . ذلك لأنه قد سعى فعلاً لرؤيته ، فلم تمض بضعة أيام على سهرة الخامس والعشرين من يناير حتى كان قد وقف في ركن الشارع الصغير ، وكانت القطط هناك تصطلي في تلك الرقع الصغيرة من الشمس التي حافظت على اتخاذها مكاناً لموعدها ، ولكن

حانت الساعة المعبودة وظلت النوافذ الخشبية مغلقة في إصرار ، وبعد ذلك تعاقبت الأيام دون أن يراها تارو تفتح مطلقاً ، واستنتج من ذلك بصورة غريبة أنه لا بد أن يكون العجوز الضئيل الجسم معتل المزاج ، أو أن يكون قد مات . وأنه إذا كان معتل المزاج فذلك لأنه كان يرى أنه على حق وأن الطاعون قد كذب رأيه . أما إذا كان قد مات ، فلا بد من التساؤل في هذه الحالة — كما في حالة العجوز المريض بالربو — عما إذا لم يكن قديساً . ولم يكن تارو يظن أنه قديس ، ولكنه كان يرى في حالة العجوز دلالة ما ، فتقول المفكرة : إنه قد لا يكون هناك إلا صورة تقريبية من القداسة . وفي هذه الحالة ينبغي أن نكتفي بنوع متواضع خير من الشيطانية .

ونجد كذلك في المفكرة ملاحظات أخرى عديدة، مبعثرة في غالب الأحيان — بعضها عن جران الذي يقضى الآن فترة النقاهة بعد أن عاد إلى عمله كما لو لم يكن قد حدث شيء ، وبعضها يدور حول أم الدكتور ريو ، ولكنه فيها جميعاً مختلطة بملاحظات عن كوتار . فلقد دون تارو فيها بعناية شديدة بعض المحادثات التي سمح له الاشتراك في المسكن تبادلها مع السيدة ريو ، كما تكلم عن حركات هذه السيدة العجوز وابتسامتها وملاحظاتنا الخاصة بالطاعون ، ويهتم تارو اهتماماً خاصاً بتلاشي شخصية السيدة ريو ، وبطريقتها في التعبير عن كل شيء بحمل بسيطة ، وبالميل الخاص الذي كانت تظهره نحو نافذة معينة تطل على الشارع الهادئ حيث كانت تجلس خلفها في المساء مستقيمة القامة بهض الشيء ، وما كنة اليدين متيقة النظرات ، وتظل كذلك حتى يسود الغروب العرقة ، ويحيلها إلى

ظل أسود وسط الضوء الغاتم الذى تزداد حليته شيئاً فشيئاً حتى يذوب فيها ذلك الظل الجامد . كما تهتم المفكرة أيضاً بخفة حركتها فى التنقل من حجرة لأخرى ، ويطيبة قلبها التى لم تقدم عنها أى دليل واضح أمام تارو . ولكنه كان يلح ويميضها فى كل ما تقوم به من عمل وكل ما تقوم به من قول ، وتقول المفكرة إنها — فى رأيه — كانت تعرف كل شئ دون تفكير وأنها — رغم كل ما كان يحيط بها من صمت وظل — كانت تستطيع الصمود فى مستوى أى ضوء حتى ولو كان ضوء الطاعون ، وهنا يأخذ خط تارو يبين عن اختلال غريب . هذا إلى أن السطور التى تتلو ذلك قد أصبحت صعبة القراءة . وكأن تارو يريد أن يقدم لنا دليلاً جديداً على هذا الاختلال . فجعل الكلمات الأخيرة من هذه السطور أولى الكلمات التى يتحدث فيها عن شخصه؛ إذ يقول :

« هكذا كانت أمى ، كنت أحب فيها هذا التلاشى نفسه ، وهى التى كنت أحب دائماً أن ألحق بها . ولا يمكننى — منذ ثمانى سنوات — أن أقول : إنها قد ماتت ، ولكنها قد تلاشت أكثر من المعتاد ، وعندما عدت لم تكن هناك . »

ولكن ينبغى أن نعود إلى كونار ؛ فنجد أن هبطت الإحصائيات ازدادت زياراته لريو ، وكان يبدى لذلك مختلف الحجب ، ولكن الحقيقة أنه كان كلما زاره طالب منه بعض التسكيمات عن سير الوباء ، فيقول مثلاً : « أظن أنه من الممكن أن يتوقف هكذا دفعة واحدة دون إرهاب ؟ لقد كان فى شك من هذه النقطة ، أو على الأقل هذا ما كان يصرح به ولكن الأسئلة المتجددة التى كان يوجهها كانت تدل — على ما يبدو —

على قلة الاقتناع . وفي منتصف شهر يناير كان ريو متفائلاً ببعض الشيء .
في إجاباته . وكان رد فعل هذه الإجابات على كونار يختلف في كل مرة
باختلاف الأحوال ولكنه كان يتأرجح بين الشعور بالضيق والانهيار ،
وإزاء ذلك اضطر الدكتور إلى أن يقول له : إنه على الرغم من أن الدلائل ،
التي تقدمها لنا الإحصائيات تؤيد فكرة انتهاء الوباء ، إلا أنه يجدر بنا
— حتى الآن — ألا نسارع بإعلان النصر ، فأضاف كونار قوله :

— أو بمعنى آخر أننا لا نعرف شيئاً ، فقد يعود الوباء من جديد
بين يوم وآخر ؟ ورد ريو قائلاً :

— نعم ، كما أنه من المحتمل أيضاً أن يسير الشفاء بأسرع مما
يفعل الآن .

ويبدو أن هذا الريب الذي كان من شأنه أن يقلق الناس جميعاً
كان ينزل برداً وسلاماً على كونار . وإفد حدث ذات مرة — على مشهد من
نارو — أن كان كونار يتسكلم مع بعض تجار حيه ، وانهز الفرصة ليذيع
رأى ريو . نعم لم يكن من الصعب أن ينجح في ذلك ، إذ أنه لم تكند
تمضى حتى الانتصار الأولى حتى عاد إلى كثير من الأذهان شك كان قد
بقى مستقراً فيها رغم موجة المرح التي سببها بلاغ المديرية ، والحقيقة أن
كونار كان يشعر بمزيد من الاطمئنان إزاء مشهد هذا القلق ، ولكنه
كان في أحوال أخرى يفقد شجاعته ، ومن ذلك أن كان يقول لنارو في
بعض الأحيان :

« نعم ، سوف يأتي — في نهاية الأمر — ذلك اليوم الذي تفتح فيه
الأبواب ، وحينئذ سوف ترى أن الجميع سيتخلون عني » .

وكان الجميع يلاحظون عليه عدم استقرار الطباع حتى اليوم الخامس والعشرين من يناير ، فكان يعمل على التقرب من أهل حيه ومعارفه ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يعتزلهم فجأة ، ويظل على هذه الحال أياما طويلة ، كان في هذه الحال يعتزل الناس — في الظاهر على الأقل — ما بين عشية وضحاها ويحيا في وحشة تامة ، ولا يعود أحد يراه في المطعم أو في المسرح أو في المقاهى التى يفضلها . ومع ذلك لم يكن يبدو عليه أنه قد عاد إلى الحياة الرتيبة الكسئية التى كان يحياها قبل الرباء . كان يعيش في عزلة تامة في مسكنه ، ويبعث في استحضار وجبات طعامه من مطعم مجاور . وفى المساء فقط كان يخرج خفية ليبتاع حاجياته ، حتى إذا ما خرج من الحوانيت أندفع إلى شوارع مقفرة ، وكان تارو إذا صادفه في هذه الأثناء لم يحصل منه إلا على مقاطع كلمات ، وبعد ذلك ، ودون أية مرحلة انتقالية ، يرى وقد عاد اجتماعياً يتحدث مليا عن الطاعون ، وبطلب بإلحاح رأى كل فرد فيه ، ويعود إلى الانغماس في غمار الناس كل ليلة . وفى اليوم الذى أصدرت فيه المديرية بلاغها اختفى كوتار عن الأنظار اختفاء تاماً ، وبعد يومين قابله تارو وهو يهيم في الشوارع . فطلب كوتار منه أن يصحبه إلى الحى الخارجى ، وتردد تارو ؛ لأنه كان يشعر بتعب شديد لإثر يوم مرهق ، ولكنه اضطر إلى القبول تحت إلحاح صاحبه ، كان الاضطراب بادياً على كوتار ، وكان يأتى بحركات غير منتظمة ، ويتكلم بسرعة وبصوت مرتفع ، ثم ما لبث أن سأل رفيقه عما إذا كان تصريح المديرية يضع حقيقة نهاية للرباء ، وبطبيعة الحال كان من رأى تارو أن أى تصريح أو رأى لا يكفى في حد ذاته

لإيقاف وباء ما ، وأنه بالرغم من ذلك لم يكن من الإسراف في القول
التصريح بأنه سوف يتوقف ، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان .
وقال كوتار :

— نعم ، إذا لم يحدث ما ليس في الحسبان . والواقع أنه يحدث
دائماً شيء لم يكن في الحسبان .

فلفت تارو نظره إلى أن المديرية لم تلغ من اعتبارها ما ليس في
الحسبان حين قررت عدم فتح الأبواب قبل مضي أسبوعين ، فقال كوتار
وهو ما يزال مكفهر الوجه مضطرباً :

— وحسناً فعلت ، لأن جميع الدلائل تشير إلى أنها ربما كانت
قد تسلمت عبثاً .

وكان من رأى تارو أن هذا يمكن الحدوث ، ولكنه كان يرى من
الأوفق احتمال فتح الأبواب عما قريب ، وعودة الحياة الطبيعية إلى مجاريها .
وقال له كوتار :

— لنسلم بذلك جدلاً ، ولكن ما الذى تعنيه بعودة الحياة الطبيعية ؟
فقال تارو وهو يبتسم :

— أفلام جديدة في دور السينما .

ولكن كوتار لم يبتسم . كان يريد أن يعرف ما إذا كان يحق لنا
أن نظن أن الطاعون لم يغير في المدينة شيئاً ، وأن كل شيء سوف
يبدأ من جديد كما كان من قبل ، أى كما لو لم يكن قد حدث شيء ، وكان
من رأى تارو أن الطاعون سوف يغير المدينة ولن يغيرها ، ذلك أن أحر
رغبات المواطنين كانت تنحصر — وستظل منحصرة — في أن يعودوا إلى

تصرفاتهم العادية كما لو لم يكن قد حدث شيء ، وعلى ذلك فلن يتغير شيء من هذه الناحية ، ولكن من ناحية أخرى لن يمكن نسيان كل شيء ، حتى ولو أردنا ذلك بكل جوارحنا ، ولذلك فلا بد أن يترك الطاعون آثاره على الأقل في القلوب ،

وحينئذ صرح الرجل المتوسط الحال في وضوح تام بأنه لا يهتم بالقلب ، بل وبأن القلب آخر ما يشغله ، وإنما يهمه أن يعرف ما إذا كان النظام نفسه لن يتغير ، وما إذا كانت الخدمات العامة والإدارات ستستمر في عمل ما كانت تعمل في الماضي . واضطر تارو إلى أن يقرر أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ، وكان من رأيه أنه لابد من افتراض أن هذه المكاتب التي سادها الاضطراب طوال مدة الوباء لابد أن تعاني بعض التعب لكي تنهض من جديد ، كما أنه يمكن الاعتقاد بأنه ستجد مجموعة من المشا كل الجديدة التي من شأنها أن تتطلب — على الأقل — إجراء تنظيم شامل لمكاتب الخدمات العامة القديمة . وقال كوتار .

— آه ، هذا محتمل في الواقع ؛ إذ أنه يجب أن يبدأ كل فرد من جديد .

وهنا كان الرجلان قد وصلا في سيرهما قرب منزل كوتار الذي كان قد اشتعل حماساً ، وانحاز نحو التفاؤل ، وأخذ يتخيل المدينة وهي تحاول أن تحيا من جديد ، فشطبت كل ماضيها ، وبدأت من الصفر . وقال تارو :

— حسن ، أياً ما كان ، فقد تتحسن الأحوال بالنسبة لك أيضاً ،

فإنها حياة جديدة — على نحو ما — تلك التي ستبدأ .
وهنا كانا قد وصلنا أمام الباب ، فشد كل منهما على يد الآخر ، وقال
كوتار في اضطراب متزايد :

— إنك على حق ، فإن من الخير أن نبدأ من الصفر .
وفي هذه اللحظة برز من وسط ظلام الدهليز شبعا رجلين ، ولم
يكذ تارو يسمع رفيقه وهو يتسائل ماذا كان ينبغي هذان العصفوران
الذنان كانا يبدوان كوظفين في ملابس يوم الأحد ، حتى أخذنا يسألان
كوتار عما إذا كان هو من يدعى كوتار ، فصدرت من هذا الأخير
صيحة تعجب مكتومة ، ودار حول نفسه ، ثم غاص في ظلام الليلدون
أن يجد هذان الرجلان أو تارو من الوقت ما يسمح لهم بالقيام بأية
حركة ، ولما تابوا إلى أنفسهم سأل تارو الرجلين عما يريدان ، فقالا
بلهجة متحفظة مهذبة : إن الأمر يتعلق ببعض الاستفسارات ، ثم انطلقا
بوقار في الاتجاه الذي سار فيه كوتار .

ولما عاد تارو إلى بيته سجل هذا المشهد ، ثم عقب على ذلك بقوله :
إنه كان متعبا — وكان خطه خير دليل على صدقه — وأضاف أنه
كان لا زال أمامه من العمل الشيء الكثير ، وأن ذلك لم يكن ليمنعه
من أن يكون على أهبة الاستعداد ، ثم تساءل عما إذا كان حقا
على أهبة الاستعداد ؟ وفي ختام كلامه أجاب على تساؤله بقوله : إن
هناك دائما ساعة من النهار والليل يصير فيها المرء جباناً ، وأنه لم يكن
يخشى إلا هذه الساعة ، (وهنا تنتهى مفسكرة تارو) .

وبعد ذلك يومين، وقبل فتح الأبواب ببضعة أيام، كان الدكتور ريو يعود إلى منزله ظهراً، وهو يتساءل عما إذا كان سيجد البرقية التي كان ينتظرها ؟ وبالرغم من أن مهامه في هذه الأيام لم تكن ثقل لأنها كما عما كانت عليه في أقصى مراحل الوباء ، فإن توقعه للخلاص النهائي كان يبدد كل متاعبه ، ذلك أن الأمل كان يحده ، وقد كان سعيداً بذلك . والحقيقة أنه ليس في مقدور المرء أن يشد إرادته ويقبض أساريه دائماً، وإنما السعادة أن يحل المرء — وسط مظاهر الابتهاج — رباط تلك الباقية من الجهد التي كان قد أعدها للكفاح ، فإذا قدر لريو أن يجد البرقية التي كان ينتظرها في صالحه هي الأخرى ، كان في وسعه أن يبدأ من جديد، لقد كان هو الآخر يرى أن كل الناس يبدءون من جديد .

ومر ريو أمام حجرة البواب ، وكان البواب الجديد قد التفتق بزجاج النافذة وراح يبتسم له ، وأخذ يصعد السلم وهو يعيد النظر إلى وجهه الذي أشجبه الإجهاد وضروب الحرمان .

نعم كان سيبدأ من جديد عندما ينتهي الغموض ، وكان سيجد أمامه الفرصة موانية أكثر من ذي قبل ، ولكن في نفس اللحظة التي كان فيها يهتم بفتح الباب أقبلت عليه أمه لتخبره أن السيد تارو لم يكن

على ما يرام ، فقد نهض في الصباح ، ولكنه لم يستطع الخروج ، فعاد إلى فراشه ، وكانت السيدة قلقه ، فقال لها ابنيها :

— قد لا يكون الأمر خطيراً .

كان تارو يمدأ في فراشه ، وقد غاص رأسه الثقيل في تجويف الوسادة ، وكانت خطوط صدره القوي تبدو واضحة من تحت الغطاء الكشيف . كان يشكو من ارتفاع في الحرارة وألم في الرأس ، وقال لريو: إن الأعراض التي يشعر بها غامضة ، ومن المحتمل أن تكون أعراض الطاعون .

وأجاب ريو بعد أن فحسه :

— كلا ، ليس هناك شيء محدد حتى الآن .

ولكن تارو كان نهبا للعطش ، وفي الدهليز قال الدكتور لأمه : إن هذه الحالة قد تكون بداية الطاعون .

وقالت هذه :

— يا إلهي ! هذا غير ممكن ، ليس في هذا الوقت !

ثم أضافت على الفور :

— لتبقه معنا ، يا برنار .

وأخذ ريو يفكر ، ثم قال :

— لأنني لا أملك هذا الحق ، ولكن الأبواب على وشك الفتح ،

واعتقد أن هذا أول حق كنت أمنحه لنفسى لو لم تكوني معي .

فردت عليه بقولها :

— لنبقه معنا يا برنار ، فأنت تعرف جيداً أنه قد أعيد تطعيمى
وأجاب الدكتور : إن تارو قد طعم ، ولكن من المحتمل ألا يكون
قد أخذ الحقنة الأخيرة تحت تأثير التعب ، أو أن يكون قد نسى اتخاذ
بعض الاحتياطات .

وذهب ريو إلى مكتبه ، ولما عاد إلى الغرفة لاحظ تارو أنه يحمل
أنايب المصل الضخمة ، فقال له :

— أهو ذلك ؟

— كلا ، ولكنه إجراء وقائى ..

وكان كلود تارو على ذلك أن مد ذراعه ، وصمد للحقنة الكبيرة التى
تستغرق وقتاً لا يسكد يتهى ، والتى كان هو نفسه يعطيها للآخرين .
وحقق ريو فى وجه تارو ، وقال :

— سوف نرى هذا المساء ، وأجابه تارو :

— والعزل يا ريو ؟ فقال :

— ليس هناك ما يؤكد أنك مصاب بالطاعون .

وابتسم تارو بجهد ، وقال :

— هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها حقناً بالمصل . لا يصحبه
أمر بالعزل .

وأدار ريو ظهره ، وقال :

— سوف أتولى علاجك أنا وأمى ، سوف تكون هنا
أكثر راحة .

وصمت تارو ، وراح الطبيب يعمل فى ترتيب الأنايب ، وهو ينتظر

أن يسمع تارو يعاود الكلام لكي يستدير فاحيته ثانية، وفي النهاية اتجه هو إلى السرير ، فرأى المريض ينظر إليه ووجهه يادى التعب ، ولكن عينيه كانتا هادئتين . وابتسم له ريو ، وقال :

— حاول أن تنام إن استطعت ، وسوف أعود بعد قليل .

وما أن وصل إلى الباب حتى سمع صوت تارو يدعوه ، فعاد إليه . ولكن تارو كان كمن يقاوم الكلمة التي يريد قولها ، وأخيراً نطق قائلاً :

— ينبغي أن تقول لي كل شيء يا ريو ، إنني في حاجة إلى ذلك ، فأجابه :

— أعدك بذلك .

وتقلص كل وجهه بعض الشيء في شبه ابتسامة ، وواصل كلامه قائلاً :

— شكراً . ليست في رغبة إلى الموت ، وسوف أقاوم ، ولكن إذا لم يكن بد من فقدان الجولة ، فإنني أودع أن أتمنى نهاية طيبة .

ومال ريو عليه ، وضغط على كتفه ، ثم قال :

— كلا . فلكي تصبح قديساً يجب أن تعيش ، ينبغي أن تقاوم .

وفي أثناء النهار أخذ البرد الذي كان فارساً يخفف من حدته بعض الشيء ، ثم تبعه في فترة ما بعد الظهر وابل عنيف من المطر والبرد ، وعند الغروب انقشعت السحب قليلاً ، واشتدت حدة البرد من جديد .

وفي المساء عاد ريو إلى بيته ، وقبل أن يخلع معطفه دخل غرفة صديقه ، وهناك كانت أمه تشتغل بالإبرة ، وبدأ تارو وكأزه لم يتحرك من

المكان الذى كان يضطجع فيه ، واسكن شفثيه اللتين كانتا قد ابيضتا من الحى كاتتا تعبران عن الكفاح الذى كان يبذله .

وقال له الطيب :

— وبعد ؟

وهو تارو قليلا كتفيه الممتلئتين خارج السرير ، وقال :

— وبعد ١٩ لى فى سبيل فقدان الجولة .

وانحنى الطيب عليه . وهناك رأى بعض العقد التى تكونت تحت الجلد المحموم ، وبدا صدره كما لو كان يردد كل أنواع الضوضاء التى تصدر من مصنع حدادة يقع تحت الأرض ، ومن الغريب أنه كانت تبدو عليه سلسا الاعراض كلاهما ، وقال ريو وهو ينمض : إن المصل لم يتوفر له الوقت الكافى بعد اسكى يثبت مفعوله ، ولكن نوبة من نوبات الحى كانت قد أخذت تحشرج فى حلقه ، فغطت على الكلمات التى كان تارو يحاول النطق بها .

وبعد العشاء أتى ريو وأمه ، وجلسا بجانب المريض . وقد بدأ ليله خلال مقاومته . وكان ريو يعرف أن هذه المعركة القاسية مع ملك الطاعون لابد أن تستمر حتى الفجر ، ولم تكن كتفاء القويتان وصدره العريض أمضى أسلحته ، واسكن كان أقواها ذلك الدم الذى جعل ريو منذ اللحظة يفجره من تحت إبرته ، وفى مجرى الدم ذلك الشيء الذى يعد أعمق من الروح ، والذى لا يستطيع أى علم أن يوضحه . أما هو ، فما كان فى مقدوره إلا أن يشاهد نضال صديقه . أما ما كان سيفعله هذا الأخير ، أما الحراريج التى يجب أن يعالجها ، والمقويات التى يجب أن يحقنه بها ،

فإن أشهراً طويلة من الفشل المتواصل قد علمته كيف يقدر مفعولها حق قدره . الواقع أن مهمته الوحيدة كانت تنحصر في منح الطريق لهذه الصدفة التي كثيراً ما ترفض العمل إلا إذا دعيت له ، وكان ينبغي لهذه الصدفة أن تعمل ، ذلك لأن ريو كان قد وجد نفسه أمام صورة بحيرة للطاعون ، . فلقد تعمد مرة أخرى أن يضلل خطط المقاومة التي اتخذت ضده ، فظهر في الأماكن التي لم يكن أحد ينتظره فيها لينتفي من أماكن أخرى ، كان يبدو للجميع أنه قد استقر فيها ، مرة أخرى تعمد الطاعون أن يشير دهشة الناس .

كان تارو يقاوم دون أن يتحرك ، لم يحدث مرة واحدة خلال الليل أن قاوم ضربات الداء بالاضطراب ، كان يقاومها فقط بكل جسمه المريض ، وكل سكونه ، وكذلك ما من مرة واحدة حاول فيها أن يتكلم ، وكان هذا اعترافاً منه — على طريقته — بأن التسلية لم تعد ممكنة بالنسبة له . وأخذ ريو يتتبع مراحل المعركة في عيني صديقه اللتين كانتا تنفرجان تارة ، وتغمضان أخرى ، وفي جفنيه اللذين كان يقبضهما بشدة على حدقتي عينيه حيناً ويتركهما على السجية حيناً آخر ، فيحرق في أحد الأشياء ، أو في الطبيب وأمه ، وكان كلما التقت نظرتيه بنظرة الطبيب انقسم ، ولكن بكل مشقة .

وأتت لحظة أخذها فيها يسمعان وقع أقدام تسارع الخطى في الشوارع . كانت خطى من يولى الأدبار أمام صوت يتهده من بعيد ، وأخذ ذلك الصوت يقترب شيئاً فشيئاً حتى انساب فلاً الطريق ، لقد عاد المطر إلى الهطول ، ثم ما لبث أن امتزج بالبرد الذي كانت دقائه تسمع على الأفاريز

بوضوح ، وراحت الستائر الكبيرة تتموج أمام النوافذ .
وكان ريو الذى قبع فى ظل الغرفة — وجذبه المطر إلى الشروود بعض الشيء — قد أخذ من جديد ينظر إلى تارو الذى كان ينعكس عليه ضوء مصباح الفراش ، وظلت أمه تشتغل بالإبرة ، ثم ترفع من حين لآخر رأسها ، وتنظر بانتباه إلى المريض . لقد فعل الطبيب الآن كل ما كان فى مقدوره أن يفعله ، وبعد أن توقف سقوط المطر انتاب الغرفة نوع من السكون الكئيب ، ولم يعد يغمرها سوى مهمة خرساء لحرب خفية . وخيل إلى الطبيب — الذى كان قد أضناه الأرق — أنه يسمع من أطراف السكون ذلك الصغير الهادئ المنتظم الذى لازمه طيلة فترة الوباء ، وأشار إلى أمه أن تذهب للنوم ، ولكنها رفضت إشارة من رأسها ، ثم لمعت عينها ، وأخذت تفحص على طرف إبرها غرزة لم تكن متأكدة منها ، ونهض ريو ليسقى المريض ، ثم عاد لجلس مكانه .

وانتهز بعض المسارة فرصة الهدنة التى منحهم إياها المطر والرياح ، فراحوا يسارعون الخطى على الإفريز ، ثم أخذت خطواتهم تتضاءل وتبتعد ، ولأول مرة لاحظ الطبيب أن تلك الليلة التى غصت بالمسارة المتأخرين ، وخلت من رنين عربات الإسعاف كانت شبيهة بغيرها من الليالى الخالية ، كانت ليلة خالية من الطاعون ، وكان يبدو أن المرض الذى طرده البرد والأضواء والجماهير قد هرب من الأعماق المظلمة للمدينة ، ولجأ إلى تلك الغرفة الدافئة؛ ليسدد هجومه النهائى إلى بدن تارو المسجى بلا حراك .

لم يعد الوباء يحتم على سماء المدينة ، ولكنه كان يرسل صفيره فى

هواء هذه الغرفة الثقيل . إنه هو نفسه الذى كان ريو يسمعه منذ ساعات .
كان من الضروري أن تتوقع له التوقف هنا أيضاً ، وأن يعترف هنا
أيضاً بهزيمته .

وقبيل الفجر انحنى ريو على أمه ، وقال :

— ينبغي لك أن تنامى حتى تستطيعى أن تحلى محلى فى الساعة الثامنة ،
ولا تنسى قبل أن تنامى اتخاذ بعض الإجراءات المظهرة .

ونهمضت مدام ريو ، ورتبت شغل الإبرة الذى كان فى يدها ، ثم
تقدمت نحو السرير . كان تارو قد أغمض عينيه منذ وقت قليل ،
وكان العرق قد جمعد شعره المنسدل على جبينه الصارم ، وتهدت مدام
ريو ، ففتح المريض عينيه ، ورأى ذلك الوجه الحنون الذى مال عليه ، ومن
تحت موجات الحمى الدائمة الحركة عادت الالبسة العنيدة مرة أخرى ،
ولكن سرعان ما أطبق المريض عينيه من جديد ، ولما صار ريو بمفرده
ذهب إلى المقعد ذى الذراعين الذى غادرته أمه ، وجلس عليه .

كان الشارع صامتا والسكون الآن مطبقاً ، وبدأ بردُ الصباح يعلن
عن وجوده في الغرفة .

ونام الطبيب ، ولكنه صبحا من غفوته على ضوء أول عربية مرت
في الشارع ساعة الفجر ، وصبحا وهو يرتعد ، ولما نظر إلى تارو أدرك
أن المرض كان يمر بفترة من فترات سكونه ، وأن المريض هو الآخر
كان قد نام ، وكانت العربية ذات الحصان ما زالت تسمع من بعيد بعجلاتها
المصنوعة من الخشب والحديد . وكان الضوء الآتي من النافذة ما زال
خافتاً ، ولما تقدم الطبيب ناحية السرير ، كان تارو ينظر إليه بعينين
لا تعبير فيهما ، كما لو كان النوم ما زال يطفئ عليهما ، وسأله ريو :
— لقد نمت ، أليس كذلك ؟ وأجاب :

— نعم .

فقال :

— هل تتنفس بأسهل من ذي قبل ؟ وأجاب :

— نزهاً ما ، هل هذا يعني شيئاً ؟

وصمت ريو ، ثم قال :

كلا يا تارو ، هذا لا يعني أى شيء ، فأنت تعرف — كما أعرف —
أنا ، هدنة الصباح .

وأقر تارو ذلك ، وقال :

شكراً ، أجبني دائماً بهذه الدقة .

وجلس ريو عند قدمي المريض . كان يشعر بساق المريض إلى جواره
طويلتين متصلبتين كما لو كانتا ساق جثة .

وكان تارو يتنفس الآن بقوة أكبر ، وقال بصوت لاهت :

— إن الحرارة ستعود ، أليس كذلك يا ريو ؟

— نعم ، ولكن في ساعة الظهر سيتضح كل شيء .

وأغمض تارو عينيه ، وكأنه كان يجمع قواه ، وكان وجهه يعبر عن
التعب والخور ، لقد كان ينتظر ارتفاع الحرارة التي كانت بدأت في تلك
اللحظة تتحرك في جهة ما في أعماقه ، ولما فتح عينيه كانت نظراته ذابلة ،
ولم يعد إليها بريقها إلا عندما لمح ريو منحنياً بالقرب منه . وقال له
هذا الأخير :

— اشرب .

وشرب تارو ، ثم ترك رأسه يهوى ، وقال :

— إنه أمر يطول مداه .

وأمسك ريو بذراعه ، ولكن تارو كان قد أشاح عنه بنظرته ، ولم
يبد أي رد فعل ، ولجأة اندفعت موجات الحمى حتى وصلت إلى جبينه
وكأنها قد خرقت سداً داخلياً ، ولما ارتد بصرتارو نحو الطبيب أخذ
هذا يشجعه بوجه سمح ، ولم تستطع الابتسامة التي حاول تارو رسمها

على حياء أن تتعدى جيوبه الأنفية المنقبضة ، وشفتيه اللتين غطتهما طبقة من الزبد الأبيض تشبه طبقة الأسمنت ، ولكن ظلت عيناه قومضان وسط وجهه المنقبض بكل ما ينبعث عن الشجاعة من بريق .

وفي الساعة السابعة دخلت مدام ريو الغرفة، وذهب الطبيب إلى مكتبه ليكلم المستشفى بالتليفون طالباً البحث عن بديل له ، كما قرر في نفس الوقت أن يرجى استشاراته ، ثم تمدد لحظة على أريكة مكتبه ، ولكنه عاد ونهض من فوره ، ورجع إلى الغرفة . كان رأس تارو متجهاً ناحية مدام ريو . كان ينظر إلى ذلك الظل الصغير الذى تكور بجواره على أحد المقاعد واضعاً يديه على فخذه ، كان يتأملها بنوع من التركيز حملها على أن تضع أصبعها على شفتيها ، ثم تنهض لتطفىء مصباح الفراش ، ولكن كان ضوء النهار يتسرب بسرعة من خلف الستائر ، وبعد ذلك بقليل بدأت ملامح المريض تبرز من الظلام ، واستطاعت مدام ريو أن تلاحظ أنه ما قىء . ينظر إليها ، فالت عليه ، وعدلت من وضع وسادته ، وفي أثناء نهوضها وضعت يدها لحظة على شعره المبلل الملولى ، وحينئذ سمعت صوتاً مكتوماً آتياً من بعيد يشكرها ، ويقول لها : إن كل شيء الآن على ما يرام ، وحين عادت إلى جلستها من جديد كان تارو قد أغمض عينيه ، وارتسم على وجهه المنهك مرة أخرى ما يشبه الابتسامة رغم فمه المغلق . وعند الظهيرة بلغت الحى أقصى ارتفاعها ، وأخذ نوع من السعال الجوفى يهز بدن المريض الذى بدأ يهتق دماً . نعم ، لقد توقفت العقدة عن التورم ، ولكنهما ما زالت هناك صلبة كالمسامير المحواة الغائرة في تجويف المفاصل ، وقد رأى ريو أنه من المستحيل فتحها ، وكان تارو

في فترات توقف الحى والسعال لا يكف عن النظر من بعد متزايد إلى أصدقائه ، ولكن سرعان ما أخذ يغمض عينيه شيئاً فشيئاً ، وبدأ الضوء الذى كان يضىء وجهه فى الانطفاء . لقد أخذت العاصفة التى كانت تهز هذا البدن فى نفضات تشنجية تضيقه بومضات من البرق تندرج بالتدرج ، وكان نارو يهيم ببطء وسط هذه العاصفة كالرشرة فى مهب الرياح ، ولم يعد ريو يرى أمامه سوى قناعاً عديم الحركة اختفت منه الابتسامة . إن هذا الهيكل البشرى الذى كان جده قريب منه بدا وكأنه قد انهالت عليه ضرباً عصاً حديدية ، واحترق بنار شر فوق طاقة البشر وتلوت أعضاؤه تحت تأثير رياح السماء الحاقدة جميعها ، فراح يغرق ناظره فى مياه الطاعون دون أن يكون فى مقدوره فعل شيء لإيقاظه من الغرق . بل كان عليه أن يقف مرة أخرى على ضفة النهر خاوى اليدين معصور القلب بلا سلاح وبلا معين أمام تلك الكارثة . وأخيراً تفجرت من عينيه دموع العجز لتمنعه من رؤية نارو وهو يلتفت فجأة ناحية الحائط ويلفظ أنفاسه فى أنه جوفاء ، وكأن وتراً رئيسياً قد انقطع فى مكان ما بداخل جسمه .

أما الليلة التالية فلم تكن ليلة كسفاح ، بل ليلة صمت . فى هذه الغرفة المنعزلة عن العالم ، وأمام تلك الجثة التى لازالت مسربة فى ملابسها . كان ريو يشعر بذلك الهدوء الغريب الذى كان منذ ليال طويلة خلّت ، قد تبع الهجوم على أبواب المدينة من فوق الأسطح المشرفة على الطاعون وكان فى هذه الآونة قد فكر فى هذا السكون الذى ينبعث من الأسرة التى كان الناس يموتون فوقها أمام سمعه وبصره ، كان ذلك نفس الصمت

مهما كان مكانه ، نفس التوقف الخاشع ، نفس الاسترخاء الذى يتلو الممارك ، كان سكون الهزيمة . غير أن السكون الذى كان يلتف الآن بصديقه كان سكوناً متمشياً مع الشوارع ، سكون المدينة التى تحررت من الطاعون ، حتى أن ريو أخذ يشعر بأن الأمر يتعلق هذه المرة بالهزيمة النهائية ، الهزيمة التى تضع خاتمة للحروب ، والتى تجعل من السلام نفسه مصدر ألم لا علاج له ، ولم يكن الطبيب على بينة مما إذا كان تاروق قد وصل إلى السلام فى نهاية الأمر ، ولكنه كان ، فى هذه اللحظة على الأقل ، يعتقد أنه — هو نفسه — لن يعرف طريق السلام بعد اليوم ، كما أن الأم التى يستقطع منها ابنها ، والرجل الذى يدفن صديقه لا يمكن لهما أن يعرفا الهدنة .

أما فى الخارج ، فقد كان نفس الليل البارد ، والنجوم المتجمدة فى سماء صافية قارسة البرد . وفى تلك الغرفة نصف المعتمة كانت تحس البرودة وكأنها تروح على زجاج النوافذ ، كانت الليلة القطبية بأنفاسها الشاحبة . كانت مدام ريو تجلس بهيئتها المعتادة قرب الفراش ، وقد أضاء المصباح جانبها الأيمن . وفى وسط الغرفة كان ريو ينظر فى مقعده الكبير بعيداً عن الضوء ، وكانت ذكرى زوجته تراوده ، ولكنه كان لا يلبث أن يطردها من خاطره .

وفى بداية الليل كانت أقدام المارة تدق بوضوح وسط الليل البارد ، وقالت مدام ريو :

— هل رنبت كل شىء ؟ وأجاب الابن :

— نعم ، لقد تحدثت بالتليفون .

وعادا من جديد إلى سهادهما الصامت ، وكانت مدام ريو تنظر إلى أبنها من حين لآخر . فكان إذا فاجأ إحدى نظراتها ابتسم لها . وأخذت ضوضاء الليل المعتادة تتوالى في الشارع ، ورغم أنه لم يكن قد صدر بعد تصریح بسير العربات فقد عاد الكثير منها إلى المرور من جديد ، فكانت تمر وهي تنهب الأرض نهبا ، ثم تختفي لتظهر من جديد . كنت تسمع أصواتاً ونداء يتلوه مسكون ، ثم تتعالى ضوضاء حوافر حصان ، أو عربتي ترام نذنان لدى أحد المنحنيات ، أو بعض الصخب غير الواضح إلى أن تعود من جديد فتسمع أنفاس الليل .

ولجأة سألت مدام ريو :

— برنار ؟

— نعم .

— ألسنت متعباً ؟

— كلا .

لقد كان ريو يعرف فيم تفكر أمه في تلك اللحظة ، ويعرف كذلك أنها تحبه ، ولكنه كان يعرف أيضا أنه ليس بالشئ الكبير أن يحب المرء شخصاً ما ، أو على الأقل أن أى حب لا يتمتع مطلقاً بالقوة المكافئة التي تجعله قادراً على التعبير عن نفسه . وهكذا كان هو وأمّه يحب كل منهما الآخر في صمت دائماً . وقد يموت بدورها ، أو قد يموت هو دون أن يكونا قد تمكنا غليلة حياتهما من أن يذهبا إلى مدى أبعد من ذلك المدى في الاعتراف بحبناهما . وعلى هذا النحو أيضا عاش إلى جانب

تارو، ولقد مات تارو هذا المساء دون أن تجد صداقتها من الوقت ما يمكنهما من أن يعيشاها حقيقة . لقد خسر تارو الجولة كما كان يقول . أما ريو، فماذا ربح ؟ لقد ربح أنه عرف الطاعون وأنه بقيت له ذكراه ، وأنه عرف الصداقة، وأنه قد بقيت له ذكراها ، وأنه عرف الخنان ، وأنه لابد أن يأتي يوم لا يبقى له منه إلا ذكراه . إن كل ما يمكن للمرء أن يربحه في لعبة الطاعون والحياة هو المعرفة والذكرى ، وقد يكون هذا هو ما عناء تارو بقوله « ربح الجولة » .

ومرت سيارة من جديد ، وتملئت مدام ريو قليلا على مقعدها .
وابتسم لها ريو ، فقالت له : إنها ليست متعبة ، ثم أردفت قائلة :
— ينبغي أن تذهب للاستحمام هناك في المنطقة الجبلية . وأجابها :
— بكل تأكيد يا أماء .

نعم ، سوف يستجم هناك . لم لا ؟ قد يكون ذلك باعثا لربح ذكرى ، ولكن إذا كان هذا هو ربح الجولة ، فما أقصى الحياة التي ليس لنا فيها سوى ما نعرفه وما نتذكره دون ما نؤمله . إن تارو — ولا ريب — قد عاش هكذا ، وكان على بينه من عقم حياة تخلو من الأوهام . لا شك أنه لا سلام بلا أمل ، وأن تارو الذي كان يأبى على الناس أن يحكموا بإعدام أحد ، والذي كان يعرف مع ذلك أنه لا يوجد أحد يستطيع منع نفسه من إصدار مثل هذا الحكم ، وأن الضحايا أنفسهم قد يكونون جلادين أحيانا ، تارو هذا قد عاش في اللوعة والتناقض ، ولم يعرف الأمل قط . أترأه لهذا السبب أراد القداسة ، وبحث عن السلام من خلال خدمة الناس ؟ لم يكن ريو يعرف في حقيقة الأمر شيئا ، ولم يكن يأبه

لهذا كثيراً . إن كل ما سبق في ذاكرته اتاروه هو صورة رجل يمسك بهجلة
الفيادة بكلتا يديه ليقود سيارته ، أو صورة هذا الجسد المتين البنية
الذى يرقد الآن مسجى بلا حراك . تلك هى المعرفة : دفء الحياة
وصورة الموت .

لهذا السبب — بلا شك — تلقى الدكتور ريو فى الصباح نبأ موت
زوجته فى هدوء . كان فى مكتبه ، وأتت أمه شبه مهرولة تناوله البرقية ،
ثم خرجت لتعطى من أحضرها نفحة من المال ، ولما عادت كان ابنها
يمسك بالبرقية مفتوحة فى يده . ونظرت إليه ، ولكنه كان يرسل
نظره خلال النافذة فى إصرار ليتأمل ذلك الصباح الرائع الذى أخذ
يعمر الميناء . وقالت مدام ريو :

— برنار .

وتفحصها الطبيب بعين شاردة . فسأله :

— ماذا عن البرقية ؟

ورد الطبيب قائلاً :

— إنه كذلك منذ ثمانية أيام .

وأشاحت مدام ريو برأسها ناحية النافذة ، ولما الطبيب بالصمت ،
ثم طلب إلى أمه ألا تبكى ، وقال : إنه كان يتوقع ذلك ولكنه مع هذا
أمر شاق عسير ، وكان يعلم وهو يقول هذا أن أمه لم يكن بالمفاجأة ،
إذ أنه كان نفس الألم الذى عاش فيه فيه منذ شهور ، ومنذ يومين .

فى فجر صباح جميل من فبراير فتحت أخيراً أبواب المدينة ، وقد قامت الجماهير والصحف والراديو وبلاغات المديرية بتحيةتها ، ولم يبق الآن للراوى إلا أن يقوم بتاريخ ساعات البهجة التى تلت فتح تلك الأبواب رغم أنه هو نفسه كان ضمن أولئك الذين لم تكن لهم حرية المشاركة فيها مشاركة كاملة .

لقد نظمت احتفالات كبيرة طوال الليل وطوال النهار ، وفى نفس الوقت بدأت القطارات ترسل دخانها داخل المحطة ، فى الوقت الذى بدأت فيه السفن القادمة من البحار النائية ترسو فى مينائنا ، وكأنها بذلك تبرهن — بطاقتها الخاصة — على أن هذا اليوم هو يوم اللقاء الكبير بالنسبة لكل من كانوا يئنون من ألم الفراق .

ومن السهل أن تتخيل هنا ماذا كان من شأن الشعور بالفراق الذى كان قد حل فى نفوس أغلبية مواطنينا . إن القطارات التى كانت تدخل مدينتنا نهاراً لم تكن أقل ازدحاماً من تلك التى كانت تخرج منها . إن الجميع كانوا قد أقبلوا على حجز أماكنهم لهذا اليوم خلال أسبوعى الانتقال ، وهم يرتجفون خشية أن تلغى البلدية قرارها ، بل إن بعض المسافرين الذين اقترحوا من المدينة لم يكونوا قد تخلصوا نهائياً من مخاوفهم ، وذلك لأنهم — وإن كانوا يعرفون بصفة عامة مصير أولئك الذين يهمهم أمرهم من قرب — كانوا يجهلون كل شئ عن الآخرين ، وعن المدينة نفسها ، تلك المدينة التى كانوا يظنون أنها قد شوهت تشويهاً ، ولكن

ذلك لم يكن حقيقياً إلا بالنسبة لغير المتحمسين ذوى العواطف الملتزمة .
أما المتحمسون ، فقد وقفوا عند الفكرة التى كونوها لأنفسهم عن هذا
الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن قد تغير إلا شئ واحد بالنسبة لهم : وهو الوقت
الذى كانوا — طيلة مدة نفيمهم — يريدون دفعه إلى الأمام حتى يحدث الخطئ ،
وكانوا حتى الآن يصرون على دفعه . ولكنهم فى هذه اللحظة التى لاحت
لهم فيها مدينتنا أصبحوا على العكس من ذلك يتمنون أن يبطئ الوقت ،
وأن يتوقف لدى الآونة التى يبدأ فيها القطار يهذى من سيره قبل أن
يستقر به المقام . إن شعورهم — الذى كان يتسم فى آن واحد بالغموض
والجدة خلال تلك الشهور الضائعة بالنسبة لحبهم — قد جعلهم يلحون فى
الحصول على نوع من التعويض يضمن لهم أن يسير زمن الفرح بمعدل
أبطأ ضعفين من زمن الانتظار . وأما هؤلاء الذين كانوا ينتظرون فى
غرفة ما ، أو على الرصيف — ومنهم رامبير الذى كان قد أخبر زوجته
منذ أسابيع ، فعملت كل ما فى جهدها لى فصل إليه — فقد كانوا جميعاً
نافدى الصبر مضطربى النفوس ؛ ذلك أن هذا الحب ، أو هذا الخنان
الذى اضطرت له أشهر الطاعون إلى أن يعيش فى عالم المجرى كان رامبير
وهو يرتجف أن يقابله بذلك الشخص الملبوس المكون من لحم ودم ،
والذى كان موضعاً لذلك الحب .

كان يوده أن يعود — من جديد — ذلك الشخص الذى كان يتعنى
فى بدء الوباء أن يندفع خارج المدينة فى قفزة واحدة لى يحظى بقاء
من يحب . ولكنه كان يعرف أن هذا أمر أصبح فى حيز المستحيل .
ذلك أنه كان قد تغير ، لقد خلق الطاعون فيه نوعاً من الشرور راح

يحاول — بكل جهده — أن ينكره ، ولكنه مع ذلك ، كان يلزمه كسفاق مكتوم . كان يشعر — على نحو ما — بأن الطاعون قد انتهى فجأة ، وأنه لم يعد حاضر الذهن كما كان من قبل . فيها هي ذى السعادة تتقدم بخطى المارد ، وهماو الحادث المأمول يجري بأسرع مما كان يفعل الانتظار . وكان رامبير يفهم أن كل شيء يسير إليه دفعة واحدة ، وأن الفرح ليس إلا حرقاً لا يستساع .

كان الجميع — على وجه العموم — في مثل حاله . وكانوا كلهم على بينة من ذلك إن قليلاً وإن كثيراً . نعم ، كانوا جميعاً مثله ، ولذا ينبغي لنا أن نتكلم ، عن الجميع ، لقد وقفوا على رصيف المحطة حيث كانوا يستأنفون حياتهم الخاصة . ولكنهم كانوا على بينة بما لا يزال بينهم من إحساس مشترك كلما تبادلوا النظرات والابتسامات ، ولكن ما أن رأوا دخان القطار حتى اختفى فجأة شعورهم بالنفخ تحت وابل من الفرح للغامض المذهل ، ولما توقف القطار توقف معه عهد الفراق الذى لم تكن له نهاية ، والذى كان يبدأ في غالب الأحيان عند هذا الرصيف . توقف عهد الفراق فجأة ، في لحظة واحدة ، في اللحظة التي أطبقت فيها الأذرع — في شح وحرص — على أجسام كانت قد نسيت شكلها الحى . ولم يجد رامبير من الوقت ما يمكنه من رؤية الهيكل الذى كان يعد ونحوه ؛ لأنه سارع بالارتقاء على صدره . لقد أمسك بهامل ذراعيه ، وأخذ يضم إليه رأساً لا ير منه سوى شعر أليف إليه ، وترك لدموعه العنان ، وهو لا يدري أهى دموع السعادة الحاضرة أم الألم الذى طال كبته ، ولكنه كان — على الأقل — واثقاً من أن تلك الدموع تعوقه عن التحقق

عما إذا كان هذا الوجه الذى اختفى فى تجويف كسفه هو نفسه الوجه الذى طالما حلم به، أم أنه — على العكس من ذلك — وجه امرأة غريبه . إنه سيعرف فيما بعد ما إذا كانت شكوكه فى موضعها أولاً، أما الآن فقد كان يريد أن يفعل ما يفعله الناس من حوله ، أولئك الذين كانوا فيما يبدو يعتقدون أنه من الممكن أن يحمل الطاعون ويرحل دون أن يغير من قلوب البشر .

عاد الجميع إلى بيوتهم وقد ضم كل منهم حبيبه إليه ، ولم يعودوا يرون شيئاً مما حولهم ، وبدأت على وجوههم علامات الانتصار الظاهري على الطاعون ، وقد نسوا البؤس كما نسوا الذين عادوا معهم بنفس القطار ، ولم يجدوا أحداً فى انتظارهم ، فانقلبوا إلى بيوتهم استعداداً لتلقى مصداق المخاوف التى كان السكون الطويل قد ولدها فى قلوبهم . وأما بالنسبة لهؤلاء الذين لم يعد لهم من إلف سوى الألم الحديث العهد ، ولأولئك الذين كانوا يستسلمون الآن لذكرى شخص اختفى من بينهم ، فإن الأمر كان مختلف ، فقد وصل الشعور بالفراق عندهم إلى الذروة . نعم ، بالنسبة لجميع هؤلاء الذين فقدوا كل مباحج الدنيا عندما فقدوا شخصاً عزيزاً لعله كان الآن ملق فى إحدى الحفر المشتركة ، أو ذاب فى كومة من الرماد ، وسواء أكان ذلك الشخص أما أم زوجاً أم حبيباً ، فإن الطاعون كان لا يزال يحيط بهم .

ولكن من ذا الذى كان فى وسعه أن يفكر الآن فى هذا النوع من الوحدة ؟ فى ساعة الظهيرة كانت الشمس المنتصرة على هبات الريح الباردة التى كانت تناضل فى الجو منذ الصباح تفرغ على المدينة طوفانا

لا يتوقف من الضوء الساكن . وكان النهار في حالة توقف ، وراحت مدافع القلاع ترسل من فوق التلال دويها المستمر في أرجاء السماء الساكنة . وخرج سكان المدينة من بيوتهم عن بكرة أبيهم للاحتفال بتلك اللحظة الحافلة التي انتهت فيها زمن الآلام دون أن يكون زمن النسيان قد بدأ بعد .

وأخذ الناس يرقصون في جميع الميادين ، وازدادت حركة المرور بين عشية وضحاها زيادة ملحوظة ، حتى كان طوفان السيارات المتزايد يمر بصعوبة في الشوارع الفاصلة بالناس ، وتجاوبت أجراس المدينة طيلة فترة الاصيل حتى ملأت برلينها السماء الزرقاء المذهبة ، ذلك أنه إذا كانت قد أقيمت صلوات الشكر في الكنائس ، فقد كانت أما كن اللهو تغص في الوقت نفسه ، وكانت الملامى — التي لم تكن قد حسبت لهذا اليوم حسابه — توزع على روادها آخر ما عندها من مشروبات روحية . وأمام مناضد الشراب كانت تتزاحم جموع تتكون من أناس متساوين في درجة الانفعال ، وكان من بينهم أزواج عديدون من الذكور والإناث وقد تماضوا دون أن يحدوا نظرات الفضوليين . كانوا جميعاً يصيحون أو يضحكون ؛ ذلك أن الحياة التي كانوا قد اختزنوها — في صميمهم — طيلة تلك الأشهر كانت قد استيقظت من رقادها ، وراحوا ينفقونها في ذلك اليوم الذي كان كأنه يوم الخلاص من موت محقق . نعم ، لقد كانت هذه الحياة نفسها ستستأنف سيرتها في اليوم التالي بما فيها من حذر وحيلة ، أما الآن ، فقد أخذ الناس — مهما اختلف أصلهم — يسرون جنباً إلى جنب ، ويتآخون . إن المساواة التي لم يستطع الموت أن يحققها يوم كان ماثلاً قد حققتها بهجة الخلاص ، على الأقل لبضع ساعات .

ولكن هذا النهريج المبثذل لم يكن كل شيء ، فقد كان الذين يملثون الشوارع في ساعة الأصيل — من حول رامبير — غالباً ما يخفون وراء مظهمهم الهادىء أنواعاً من السعادة أكثر رقة ، والواقع أن الكثير من الأزواج والأسر لم يكن يبدو عليهم إلا أنهم يسرون في سلام . وحقيقة الأمر أن أغلبهم كانوا يطوفون كالحجيج بالآماكن التي ذاقوا فيها العذاب . لقد كانوا يرمون بذلك إلى أن يطالعوا القادمين الجدد على العلامات الظاهرة أو الخفية للطاعون ، وعلى الآثار التي تدل على تاريخه . وفي بعض الحالات كانوا يقومون بدور المرشد ، دور من رأى الكثير ومن عاصر الطاعون . وكانوا يتكلمون عن الخطر دون أن يشيروا ذكرى الخوف . وكانت هذه من المتع التي لا ضرر منها ، ولكن في بعض الحالات كانت الرحلة أشد من ذلك تأثيراً ، حيث كان العاشق يقول لمعشوقته — وقد استسلم لقلق الذكرى الهادىء — : « في ذلك المكان وفي ذلك الزمن كنت قد اشتيتك ولكنك لم تكوني هنا » . وقد كان من السهل على سائحي العاطفة هؤلاء أن يتعرف بعضهم على البعض الآخر ، فقد كانوا يكونون جماعات منعزلة غارقة في الخمس والنجوى وسط الضجيج الذي كانوا يسرون فيه . لقد كانوا هم الذين يعلنون عن الخلاص الحقيقي أكثر مما كانت تفعل فرق الموسيقى في الميادين . ذلك أن هؤلاء الأزواج المتجاربين المتواقفين غير الثرثارين كانوا وسط هذه الضوضاء كالدايل الساطع الذي يؤكد — بجانب انتصار السعادة الظالم — أن الطاعون قد ولى ، وأن الإرهاب قد انتهى عهده . لقد كانوا ينكرون في هدوء — ورغم ما لا يستطيع نكرانه — أنه قد مر بنا وقت عرفنا فيه ذلك العالم

المجنون الذى كان مقتل الرجل فيه من الأمور التى تحدث كل يوم كمقتل
الذباب ، وأنتا قد عرفنا تلك الوحشية المحددة المعالم ، ذلك الهذيان
المدير ، ذلك السجن الذى يجلب معه نوعاً من الحرية البشعة بالنسبة لكل
ما لم يكن حاضراً ، رائحة الموت التى كانت تذهل جميع من لم تكن تقتلهم .
وأخيراً كانوا ينكرون أننا كنّا ذلك الشعب الذى ضرب عليه بالحذر ،
والذى كان يذهب منه كل يوم جزء — فى شكل كومة — إلى الآتون ، فأيلبث
أن يتحول إلى دخان دسم بينما ينتظر جزء آخر دوره مكبلاً بأصفاد
العجز والخوف .

هذا على كل حال ما كان يبدو جلياً أمام عيني الدكتور ريو ، وهو
يحاول أن يصل إلى الأحياء الخارجية ، ويسير وحده ساعة الاصيل وسط
رنين الأجراس ، وطلقات المدافع ، وأنغام الموسيقى ، والصيحات المدوية .
لقد كان مستمراً فى أداء مهنته ، فليس هناك عطلة بالنسبة للبرضى .
وعندئذ كانت روائح الشواء السابقة ، والكحول الممزوج بالينسون تفوح
من كل مكان خلال الضوء الدقيق الجميل الذى كان يكسو المدينة ، ومن
حواله كانت هناك وجوه ضاحكة تنسكف تجاه السماء . كان هناك رجال
ونساء يحتضن بعضهم بعضاً ، وقد احتقنت وجوههم بكل ما فى الرغبة
من عصبية وصياح . نعم لقد ولى الطاعون ، وولى معه الإرهاب ، والواقع
أن تلك الأذرع المتشابكة كانت تقول : إنه كان منفى ، وكان فراقاً بكل
ما فى هذه الكلمات من معنى عميق .

ولأول مرة استطاع ريو أن يعثر على اسم لذلك التشابه الخلقى الذى
كان يلاحظه خلال شهور مضت على وجوه المارة جميعاً . كان حسبه الآن
أن ينظر حوله ، فإنه لم يكده هؤلاء الناس يصلون إلى نهاية البؤس والحرمان

بما تنهوا الطاعون حتى أخذوا يرتدون رداء الدور الذى كانوا يؤدونه منذ
 زمن بعيد ، دور المهاجرين الذين كانت وجوههم من قبل — ثم أصبحت
 ملبسهم الآن — تعبر عما كان ينطوى عليه من الغياب وبعد الموطن .
 فهذه اللحظة التى أغلق الطاعون فيها أبواب المدينة لم يكونوا يعيشون إلا فى
 ألم الفراق ، كما لو كانوا قد انتزعوا من حاراتهم البشرية التى تنفى الناس
 كل شيء . ففى أركان المدينة كلها ، كان هؤلاء الرجال والنساء يهفون —
 بدرجات متفاوتة — إلى لقاء لم يكن بالنسبة لهم جميعاً ذا طبيعة واحدة ، ولكنه
 كان بالنسبة لهم جميعاً فى درجة متساوية من الاستحالة . إن أغلبهم كانوا
 يصيحون بكل ما فيهم من قوة منادين الغائب طلباً لدفء الجسد ، أو الحنان ،
 أو إعادة وجوده معهم . كان بعضهم يرى نفسه — على غير شعور منه فى غالب
 الأحيان — يتألم ؛ لأنه فى معزل عن صداقة الناس ، ولأنه لم يعد قادراً على
 أن يلحق بهم بالوسائل العادية للصداقة أى بالخطابات أو القطارات أو
 السفن . وهناك آخرون — أقل من هؤلاء عدداً . وربما كانوا مثل تارو —
 كانوا يتمنون الالتقاء بشيء ما لا يستطيعون تعريفه ، ولكنه كان كل ما
 يرغبون فيه . ولما لم يكونوا يعرفون له اسماً ، فقد قنعوا بتسميته السلام .
 واستمر ربو يسير . وكان كلما تقدم فى سيره رأى الجوع تسكأثر
 من حوله ، والضجيج يشتد ، حتى بدا له أن الأحياء الخارجية التى يريد
 الوصول إليها قد جعلت تتراجع ، ثم أخذ يذوب شيئاً فشيئاً فى ذلك
 الجسم الكبير الذى يصيح . لقد أخذ يتبين بوضوح يزداد شيئاً فشيئاً
 أن ذلك الصياح هو صياحه هو ، جزئياً على الأقل . نعم ، إن الجميع
 كانوا قد ذاقوا العذاب معاً ، قد قاسوا من عذاب الجسم مثلما قاسوا
 من عذاب النفس ، قاسوا الفراغ العسير ، والمنفى الذى لم يكن له علاج ،

والظماً الذى لم يكن ليظناً أبداً . فى وسط هذه الأكوام المسكدة من الموتى ورنين عربات الإسعاف، وإذارات ما اصطاح على تسميته بالقدر ووطأ أقدام الخوف الملمحة ، وثورة القلوب ، كانت هناك شائعة لا تكف عن السريان بين هؤلاء المفزوعين لتتذر تلك النفوس الهلعة بضرورة العودة إلى وطنها الحقيقى ، وكان الوطن الحقيقى بالنسبة لهم جميعاً يقع فيما وراء جدران تلك المدينة المحتقة . كان يقع فوق الحشائش الشدية العرف ، وفوق التلال وفى البحر وفى البلاد الحرة وفى كل ما للحب من وزن . وكانوا يريدون العودة إلى هذا الوطن ، إلى السعادة ، أماما عدا ذلك فكانوا يشيخون عنه بامتعااض .

أما عما يمكن أن يكون هناك من معنى لذلك المتغنى ، وهذه الرغبة فى اللقيا فلم يكن ريو يعرف حنة شيئاً . كان يواصل سيره والجموع تتدافع حوله من جميع الجهات والأسئلة توجه إليه حتى ابتعد شيئاً فشيئاً ، ووصل إلى شوارع أقل ازدحاماً . لقد كان يفكر أنه لم يكن من المهم أن يكون لتلك الأشياء معنى أو لا يكون ، ولكن كل ما ينبغى الاتجاء إليه هو النظر فيما يتجاوب مع آمال الناس .

لقد كان يعرف منذ الآن ما يتجاوب مع آمال الناس ، وكان يتبينه بوضوح أجلى فى الشوارع الأولى من الأحياء المتطرفة ، الشوارع المقفرة تقريباً ، فمؤلاء الذين لم يكونوا يتمنون سوى العودة إلى مقرحبهم . فقد نالوا — فى بعض الأحيان — ما تمنوا رغم قلة عددهم ، ولكن من المؤكد أن بعضهم قد استمر يتجول فى المدينة بمفرده بعد أن حرم من الشخص الذى كان ينتظره . وكذلك كان من السعداء أولئك الذين لم يقاسوا ألم الفراق مرتين كـ بعض الناس الذين لم يستطيعوا قبل

الطاعون أن يوطدوا أركان حبيبهم منذ الوهلة الأولى ، والذين كانوا قد
قضوا السنين الطويلة في حياتهم المشتركة الصعبة وهم مغمضو العينين ، تلك
الحياة التي تنتهى بربط أواصر الألفة بين الأعداء المتحابين .

لقد كان هؤلاء — ومن بينهم ريو نفسه — من سطحية التفكير بحيث
اعتمدوا على الزمن ، فظلوا مفترقين إلى الأبد ، ولكن كان هناك آخرون
قد عادوا دون تردد إلى الغائب الذى ظنوا أنهم فقدوه ، ومنهم رامبير
الذى كان الطبيب قد غادره في الصباح وهو يقول له : تشجع ، إن ذلك
هو الوقت الذى ينبغى أن يشعر المرء فيه بالانتصار . وهؤلاء سيكونون
سعداء ، لفترة ما على الأقل . لأنهم يعرفون الآن أنه إذا كان ثمة شيء
يتمناه الناس دائماً ، ويحصلون عليه أحياناً فهو الحنان .

أما هؤلاء الذين كانوا قد أرسلوا دعاءهم فيما وراء النطاق البشرى
إلى شيء لا يستطيعون حتى مجرد تخيله فإنهم — على العكس من ذلك — لم يتلقوا
أى جواب . ويبدو أن نارو كان قد لحق بذلك السلام العسير الذى
كان يتحدث عنه ، ولكنه لم يجده إلا في الموت ، وفي الوقت الذى لم يعد
فيه السلام يجديه شيئاً . وأما أوائك الذين كان يراهم ريو أمام بيوتهم في
ضوء الغروب الخافت وقد تماثقوا بكل قواهم ، وأخذوا يتبادلون
المنظرات في حبور وانفعال ، فإنهم إذا كانوا قد نالوا ما تمنوا فلم
يكن ذلك إلا لأنهم لم يطلبوا أكثر مما يتوقف عليهم .

وفي اللحظة التى أدار فيها ريو سيارته في الشارع الذى يسكن فيه
جران وكوتار أخذت تدور في رأسه هذه الفكرة ، وهى أنه من الحق
أن يغمر الفرح — من وقت لآخر على الأقل — أوائك الذين يقنعون
بمقدور السكان البشرى ونصيبه من الحب ، ذلك النصيب البائس الرهيب .

إن هذه المذكرات تقترب من نهايتها، وقد آن الأوان لكي يعترف الدكتور دبرنارديو، بأنه صاحبها ولا يمكنه يود — قبل أن يخط آخر أحداثها — أن يبرر تدخله، وأن يبين للقارىء أنه قد استمسك بلمحة الشاهد المحايد . فقد مكنته مهنته — طيلة مدة الطاعون — من الاتصال بأغلبية مواطنيه ومن التعرف على مشاعرهم . لقد كان إذن في خير موقف يمكنه من رواية ما رآه وما سمعه ، ولكنه حرص على أن يقوم بذلك بما ينبغي له من تحفظ . وقد حرص على وجه العموم ألا يروى شيئاً أكثر مما استطاع أن يرى، وألا ينسب إلى رفاقه في الطاعون أفكاراً لم تكن لهم، وألا يستعمل سوى النصوص التي وضعتها الصدفة أو الكارثة بين يديه .

ولما كان قد دعى للشهادة بمناسبة إحدى الجرائم ، فقد التزم بعض التحفظ الذي يليق بشاهد خالص النية . ولكن في نفس الوقت حملته قلبه النبيل على الانضمام — بعد تفكير — إلى صف الضحية، وأراد أن يجمع الناس ، أن يجمع مواطنيه على الحقائق الوحيدة التي يشتركون فيها جميعاً ، ألا وهي الحب والالم والمنفى وهكذا لم يكن هناك أمر من الأمور التي أفلقت مواطنيه إلا شاركهم فيه ، ولا موقف من مواقفهم إلا كان موقفه هو أيضاً .

وقد آلى على نفسه — لكى يكون شاهداً أميناً — ألا يستشهد بغير
الأفعال والوثائق والشائعات . أما ما كان فى وسعه هو شخصياً أن
يقوله ، أما انتظاره وتجاربه الشخصية ، فقد رأى لزماً عليه أن يكتسبها .
وإذا كان قد استعان بها فلم يكن ذلك إلا لكى يفهم مواطنيه ، ويساعد
الآخرين على فهمهم ، ولكى يحدد بقدر الامكان ما كانوا يحسونه ، فى
فى أغلب الأحيان ، بصورة غامضة . والحقيقة أن هذا المجهود العقلى لم
يكلفه شيئاً . ذلك أنه كان كلما شعر بالميل إلى مزج أحاسيسه الشخصية
بآلاف المؤلفة من أصوات مرضى الطاعون كانت تعترضه تلك الفكرة
وهى أنه لم يكن هناك من ألم إلا تقاسمه الناس جميعاً ، وأن هذه ميزة
هامة بالنسبة لذلك العالم الذى غالباً ما يعيش فيه الألم وحيداً . لقد
كان عليه بطبيعة الحال أن يتكلم باسم الجميع .

ولكن كان هناك — على الأقل — شخص واحد من مواطنينا لم يكن فى
مقدور الدكتور ريو أن يتكلم عنه . وذلك هو الشخص الذى قال عنه
تارو يوما ما لريو : « إن جريمتك الحقيقية الوحيدة هى أنه أقر بقلبه ذلك
الشيء الذى يتسبب فى موت الأطفال والكبار . أما ما عدا ذلك فإنى
أفهمه ، وهذا أيضاً أرانى مضطراً لأن أغفره له ، . وإنه لمن العدل أن
تختتم هذه المذكرات به ، فقد كان له قلب جاهل ، أى قلب غارق
فى الوحدة .

ولم يكد ريو يغادر الشوارع الكبيرة التى تتردد فى جنباتها ضوضاء
العهد ، ويدلف فيها إلى شارع جران وكوتار ، حتى أوقفه حاجز من
رجال الشرطة ، ولم يكن يتوقع ذلك لأن صخب العيد الذى يصل إليه

من بعيد كان يجعل الحى يبدو أمامه ساكنا ، وكان يتصوره مقفراً بقدر ما هو صامت . وأخرج ريو بطاقته ، فأجابه الشرطى .

— مستحيل يا دكتور ، فإن هناك مجنوناً يطلق النار على الناس ، ولكن ابقى قريباً منا فقد نحتاج إليك .

وفى هذه اللحظة نظر ريو فرأى جران قادماً نحوه ، ولم يكن هو الآخر يعرف شيئاً ، ومنع هو أيضاً من المرور ، ثم علم أن تلك الطلقات تصدر من منزل . والواقع أنه كانت ترى من بعيد واجهة المنزل وقد طرزتها الشمس الخافية بخيوط ذهبية من أشعتها الغاربة . ومن حول المنزل كان هناك قطاع كبير خال يمتد حتى الإفريز المقابل ، وفى وسط الشارع كانت ترى بوضوح قبة وقطعة من قماش قذر ملقآن على الأرض ، وكان فى مقدور ريو وجران أن يريا على بعد كبير فى الناحية المقابلة من الشارع حاجزاً آخر من رجال الشرطة موازياً لذلك الذى منعهما من التقدم ، ومن خلفه بعض سكان الحى يروحون ويغدون بسرعة ، ولما دققا النظر رأيا كذلك بعض رجال الشرطة وقد أمسكوا بمسدساتهم ، وانبطحوا أرضاً أمام أبواب العمارات المواجهة للنزل ، وكانت نوافذ المنزل الخشبية كلها مغلقة ، ومع ذلك فقد كانت هناك نافذة فى الدور الثانى تبدو مواربة وكان السكون غمياً فى الشارع ، ولم يكونوا يسمعون سوى نبرات موسيقية آتية من قلب المدينة .

وفى لحظة ما صدرت من أحد المنازل المقابلة لمنزل جران طلقتان من مسدس تبعتهما انفجارات راجعة من النافذة المواربة ، ثم عاد السكون

من جديد . وكان كل ذلك يبدو من بعيد كالوهم في نظر ريو بعد ضواء
اليوم الذي مر به ، وقال جران لجأة باضطراب :

— إنها نافذة كوتار ، ولكن كوتار مع ذلك قد اختفى .

وسأل ريو الشرطي :

— لماذا يطلقون النار ؟ وأجاب الشرطي :

— إنهم يلهونه ، وهم في انتظار سيارة تحمل المعدات اللازمة ؛ لأنه

يطلق النار على من يحاولون الدخول من باب العمارة ، وقد أصيب أحد
رجال الشرطة :

— ولماذا يطلق هو النار ؟

— لا يدري أحد سبباً لذلك . كان الناس يلهون في الشارع ،

ولما سمعوا أول طلقة لم يفهموا شيئاً ، ولما سمعوا الطلقة الثانية صدرت منهم
بعض صرخات ، وسقط أحدهم جريحاً ، ثم ولوا الأبواب جميعاً . إنه مجنون
بلا شك .

ولما عاد السكون بدت الدقائق وكأنها تتلصق في مرورها ، ولجأة ،
وأوا من الناحية الأخرى من الشارع كلباً يبرز ، أول كلب يراه ريو
منذ وقت طويل . لقد كان كلباً ضئيل الجسم بادی القنطرة ، لا بد وأن
يكون أصحابه قد أخفوه حتى الآن . وأخذ يجري جرياً بطيئاً محاذياً
للجدران . ولما وصل قرب الباب تردد وألقى على مؤخرته ، ثم انقلب
ليلتهم براغيثه ، وانطلقت صفارات رجال الشرطة العديدة تدعوه ،
فرفع رأسه ، ثم حزم أمره على أنه يجتاز الشارع ببطء ليذهب إلى القبة
يقسمها ، وفي نفس اللحظة صدرت طلقة من الدور الثاني ، فانقلب الكلب

رأساً على عقب ، وأخذ يحرك أرجله بعنف ، ثم انقلب أخيراً على جانبه وهو ينتفض انتفاضات الموت ، وأجاب على هذه الطلقة خمس طلقات أخرى أو ست انبعثت من الأبواب المقابلة ، فزادت الشباك الخشبي تفتتاً . وعاد السكون ، وكانت الشمس قد استدارت قليلاً ، وبدأ الظلام يقترب من نافذة كوتار ، وسمعت في الشارع من خلف ريو ضوضاء أبلجة خيل تن أنيناً خافتاً . وقال الشرطي :

— ما هم قد حضروا .

وبرز من وراء ظهورهم جمع من رجال الشرطة يحملون حبالا وسلماً ولفافتين سميكتين لفتا في قماش مشمع ، ودلفوا إلى أحد الشوارع المحيطة بمجموعة المنازل المقابلة لعمارة جران ، وبعد لحظة شعر الناس باضطراب أمام أبواب هذه المنازل ، ولكن دون أن يروا شيئاً ، فوقفوا ينتظرون . ولم يعد الكلب يتحرك ، ولكنه كان غارقاً في بركة قائمة .

وعلى حين غرة سمعت طلقات مدفع رشاش تنبعث من نوافذ المنازل التي احتلها رجال الشرطة ، وأخذت النافذة الخشبية التي كانت تصوب إليها الطلقات تنساق كاشفة عن بقعة سوداء لم يستطع ريو وجران — وهما في مكانهما — أن يميزا فيها شيئاً ، ولما توقف إطلاق النار بدأ مدفع آخر يطلق رصاصه من زاوية أخرى من منزل أبعد مدى ، وأغلب الظن أن الرصاص كان يدخل من إطار النافذة ، بدليل أن إحدى هذه الرصاصات قد نسفت بعض الطوب . وفي الثانية ذاتها عبر الشارع ثلاثة من رجال الشرطة ، واندفعوا إلى مدخل البيت ، وفي التو تبعهم ثلاثة آخرون ، وتوقفت ضربات المدفع الرشاش ، وقد ظل الناس ينتظرون ، وسمعت

حزبتان بعيدتان تدويان في المنزل ، وترددت بعض الأصدااء التي راحت
تتزايد ، ثم رأى الناس رجلا قصير القامة يخرج محمولا أكثر منه مقوداً ،
وهو يصرخ دون توقف ، وقتحت جميع التوافد المغلقة ، كما لو كان ذلك
بفعل قوة خفية ، وامتلات المستطلعين ، بينما أخذت جموع الناس تخرج
من المنازل وتتسابق خلف حواجز الشرطة ، وبعد لحظة شاهد الناس
الرجل القصير وسط الشارع وقد لمست قدماء الأرض في نهاية الأمر ،
وكبل رجال الشرطة ذراعيه من خلف ظهره ، ولما لم يكن قد كلف عن
الصياح اقترب منه أحد رجال الشرطة وضربه مرتين بقبضتي يديه بكل
ما فيهما من قوة ، وكان يبدو أنه يفعل ذلك بإتقان مرموق .

وتتم جران قائلا :

— إنه كوتار ، لقد جن .

وسقط كوتار على الأرض ، وهنا رأى الناس الشرطي مرة أخرى
يوجه قدمه بكل قوتها إلى الكومة الراقدة أمامه على الأرض ، ثم ساد
الاضطراب جمع من الناس ، وتوجهوا نحو الطبيب وصديقه العجوز ، وهنا
قال الشرطي :

— هيا ، انصرفوا .

وأدار ريو عينيه عندما مر الجمع أمامه .

وسار جران والطبيب في ظل الغروب الموشك على نهايته ، وكان
الحى قد نشط كما لو كان هذا الحادث قد نقض عنه الخمول الذي كان
يغط فيه .

وأخذت هذه الشوارع النائية تمتلئ من جديد بطنين جمهور تغمره
الفرحة ، وعند باب المنزل قال جران للطبيب : إلى اللقاء . لقد كان في
طريقه إلى العمل ، ولكن في اللحظة التي هم فيها بالصعود ، قال له : إنه
كتب إلى جان ، وأنه الآن يشعر بالرضا ، وأنه قد بدأ بجملة من جديد .
ثم أضاف قائلاً :

« لقد حذفت منها جميع الصفات » .

وفي ابتسامة ماكرة رفع قبعته في صورة تحية مسرحية ، ولكن ريو
كان يفكر في كوتار ، وفي اللكاك المكتومة التي اخترقت وجهه ، وفي
صوتها الذي كان يلاحقه طول مدة اتجاهه إلى منزل المعجوز المريض
بالربو ، ولعل التفكير في رجل مذنب كان أشق عليه من التفكير في
رجل ميت .

ولما وصل ريو عند مريضه المعجوز كان الليل قد انهم السماء بأجمعها ،
وكان في وسع من في الغرفة أن يسمع من نافذتها همهمة الحرية الآتية من
بعيد ، وكان الرجل الهرم مستمرا في نقل حبات البازلاء من وعاء إلى آخر
في حركة رتيبة تنم عن نوع من الجود ، وقال له :

— إنهم على حق في لهوهم ، فإنه لابد من وجود شيء لتكوين عالم
من العوالم ، وزميلك يا دكتور ، ما هي أخباره ؟

وحينئذ قرعت أسماعهما بعض الطلقات ، ولكنها كانت طلقات
سلبية ، فقال :

— إنهم أطفال يطلقون لعبهم النارية ، ورد الدكتور — وهو يفحص
صدر مريضه الذي يضطرب بالشخير — :

— اتقدمات .

فتوقف العجوز بعض الوقت مبهوراً ، ثم قال : آه !
وأضاف ريو :

— بالطاعون .

وقال العجوز بعد لحظة :

— نعم ، إن خير الناس هم الذين يذهبون . هذه سنة الحياة ،
ولكنه كان رجلاً يعرف ما يريد .

وقال الطبيب وهو يعدل وضع سماعته :

— لماذا تقول ذلك ؟

— للاشيء . إنه لم يكن يتكلم دون جدوى ، وأياً ما كان ،
فقد كان يعجبني أنا شخصياً ، ولكن هذه حال الدنيا . إن الناس يقولون :
« إنه الطاعون » ، لقد حل بسا الطاعون ، . ومن أجل ذلك يكادون
يطالبون بالنياشين . ولكن ما معنى هذا ؟ ما معنى الطاعون ؟ إنها الحياة ،
هذا كل ما في الأمر .

وقال الطبيب :

— ضع كدادتك بانتظام .

فرد عليه العجوز بقوله :

— لا تخش شيئاً ، فإن الوقت ما زال أمامي طويلاً ، وسأرى جميع
من حولي يموتون قبلي ، أما أنا فأعرف كيف أعيش .

وغشيت الغرفة صيحات فرحة تيجيب عليه من بعيد ، وتوقف
الطبيب وسط الغرفة ، وقال :

— هل يضايقك أن أذهب إلى السطح ؟ فرد بقوله :
— كلا ، كلا . أتريد أن تراه من فوق ؟ أليس كذلك ؟
لأفعل ما يحلو لك ، ولكنهم — هم أنفسهم — لم يتغيروا .
وتوجه ريو إلى السلم ، ولكن صوت العجوز لاحقه مقساثلا :
— قل لي يا دكتور : هل صحيح أنهم سوف ينشئون نصباً تذكاريًا
لموتى الطاعون ؟

وأجاب الطبيب :

— هذا ما تقوله الصحف ، إنهم سوف يقيمون إما نصباً أولوحة
تذكارية .
فقال :

— لقد كنت واثقا من ذلك ، وسوف تلقى الخطب .
ثم أخذ العجوز يضحك ضحكات مختنقة ، ويقول :
— لأنى أسمعمهم من هنا وهم يصيحون « إن موتانا . . . » ، ثم بعد
ذلك يذهبون لاثام طعامهم .

وكان ريو قد صعد السلم ، وكانت السماء العريضة الباردة تتألق
فوق المنازل ، وبالقرب من التلال كانت النجوم تبدو صلبة كأنها قطع
من السليكا ، ولم تكن تلك الليلة تختلف عن تلك التى صعد فيها مع تارو
فوق هذا السطح لى ينسب الطاعون ، غير أن البحر فى هذا اليوم كان
أكثر صخباً عند أقدام الشواطئ ، وكان الهواء خفيفاً ساكناً ، قد
تخفف من الأنفاس المألحة التى تجلبها معها رياح الخريف الدافئة ، وفى
هذه الأثناء كانت ضوضاء المدينة تتلاطم أسفل الشرفات ، كما لو كانت

هدير الموج . ولكن تلك الليلة كانت ليلة الخلاص لا ليلة الثورة . ومن بعيد كانت الحليكة الضاربة إلى الحمرة تحدد أماكن الشوارع الكبيرة ، والميادين المتألقة بالأنوار . أما الرغبة ، فكانت قد تخلصت مما كان أمامها من عوائق في ذلك الليل الذي عادت إليه الآن حريته ، ولم تكن الزجاجة التي تفرع آذان ريو في هذه اللحظة إلا زيجرتها .

ومن الميناء المظلم انطلقت أول الصواريخ النارية إعلانا عن البهجة الرسمية ، وحيثما المدينة بصيحة طويلة مكثومة . إن كوتار وتارو وكل من أحبهم ريو من الرجال والنساء ثم قدّمهم قد ذهبوا جميعاً في طي النسيان سواء من مات منهم أو من كان مذنباً . إن العجوز كان مصيباً ، فإن الناس دائماً هم الناس ، ولكن هذا هو مصدر قوتهم وبرائتهم ، وكان ريو يشعر رغم آلامه أنه يشترك معهم في ذلك ، وفي وسط الصيحات التي كانت تتضاعف قوة واتساعاً ، والتي كان يتردد صداها حتى يرتطم بأسفل الشرفة كلما ارتفعت في سماء المدينة باقات الألعاب النارية المتعددة الألوان ، قرر الدكتور ريو أن يكتب تلك القصة التي تصل الآن إليه نهايتها ، وذلك حتى لا يكون من أولئك الذين يلزمون الصمت ، وحتى يقدم شهادة في صالح مرضى الطاعون ، ولكي يترك من وراءه على الأقل شهادة تذكر بالظلم والعنف اللذين حاقا بهم . وأخيراً لكي يذكر ببساطة أننا نتعلم من التعكبات أن الإنسان فيه مما هو جدير بالإعجاب أكثر مما يستحق الأزدراء .

ولكنه كان يعرف مع ذلك أن تلك القصة لا يمكن أن تكون قصة النصر النهائي . إنها ليست إلا شهادة على ما لا بد لهؤلاء الناس من تحقيقه .

وما ينبغي لهم أن يحققوه — في أغلب الظن — رغم الإرهاب وسلاحه الذي لا يكل ، ورغم همومهم الشخصية . ذلك أنهم إذا كانوا لا يستطيعون أن يكونوا قديسين ، ويرفضون الاستسلام للأوبئة ، فإنهم مضطرون أن يكونوا أطباء .

والواقع أن ريو كان ينصت إلى صيحات الفرح تتصاعد من المدينة ، فيذكر أن ذلك الفرح ما زال مهدداً ؛ لأنه كان يعرف ما تجمله تلك الجموع المبتهجة ، وما يمكن قراءته في الكسب من أن جرثومة الطاعون لا تموت ولا تختفي أبداً ، وأنها قد تظل عشرات السنين نائمة في الأثاث والفرش ، وأن تنتظر — في صبر وأناة — في الغرف والأقبية والحقائب والمناديل والأوراق القديمة ، وأنه ربما يأتي يوم يوقظ فيه الطاعون قرائه ، ويبعث بها إلى الناس من أجل شقاتهم وتعليمهم ، لكي يختطفهم الموت من بين أحضان مدينة سعيدة .

ملتزم الطبع والنشر
عكا المراكب
٣٨ شارع عبدالحق ثروت - ت ١٠٠١٤٠١٤
القاهرة

Bibliotheca Alexandrina



0388312

دار الثقافة المصرية للطباعة
شارع تولقة - الدمام - الرياض